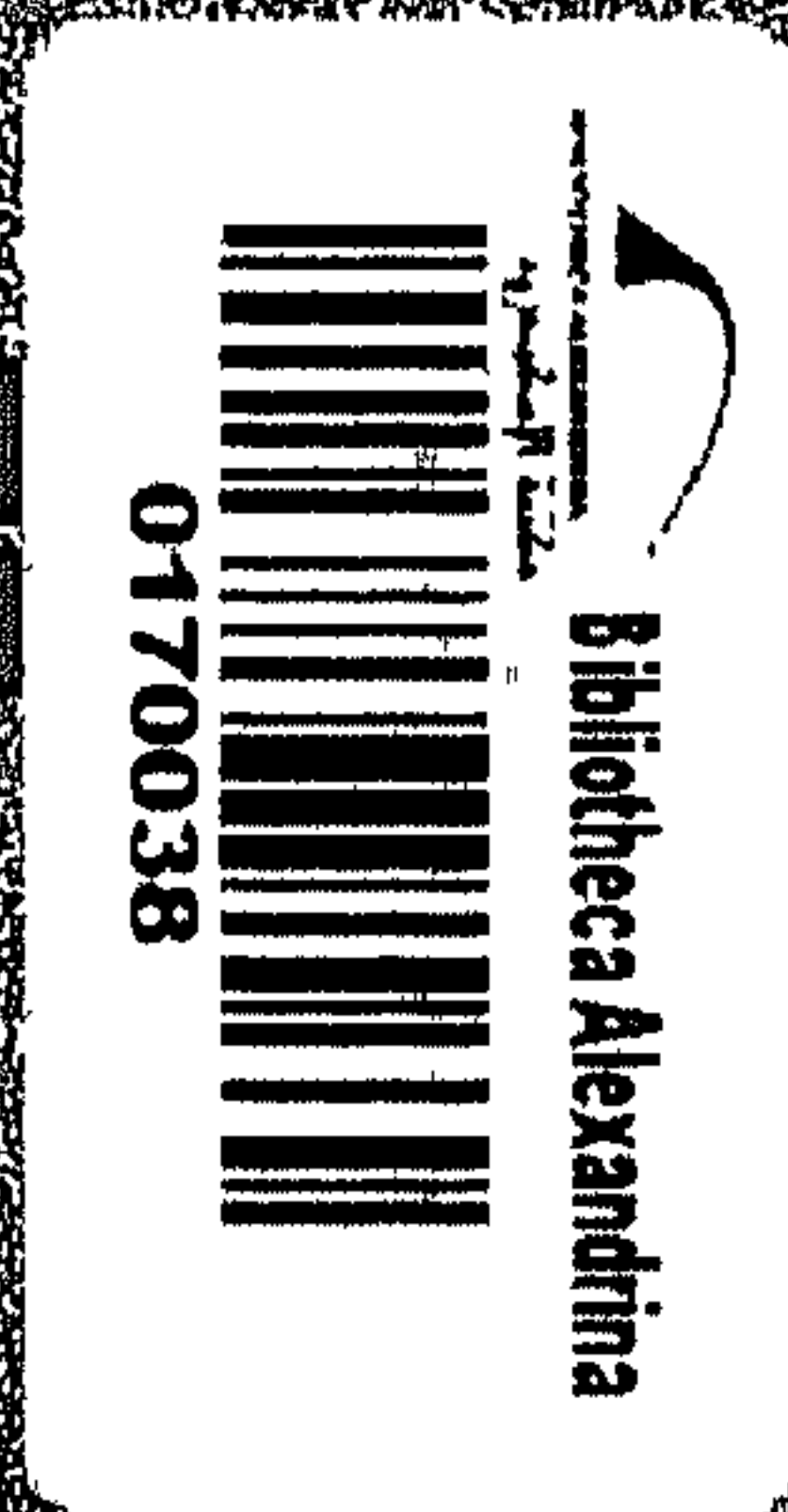
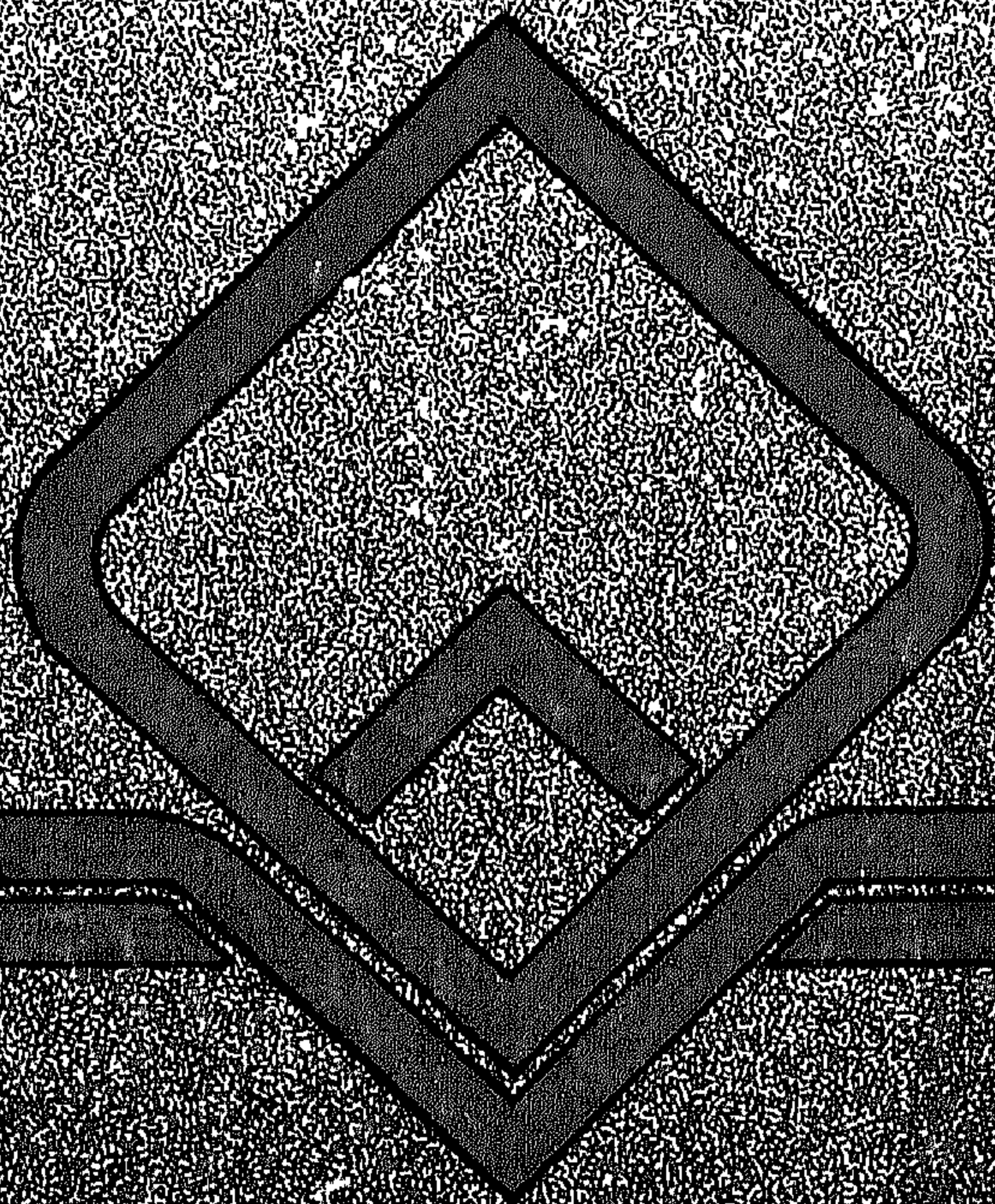


مَقَالَةُ فِي الْأَنْشَاءِ وَالنَّوْحِ

الدكتور السَّيِّدُ حَرْوِي



مقال في الإنسَان والتوحيد

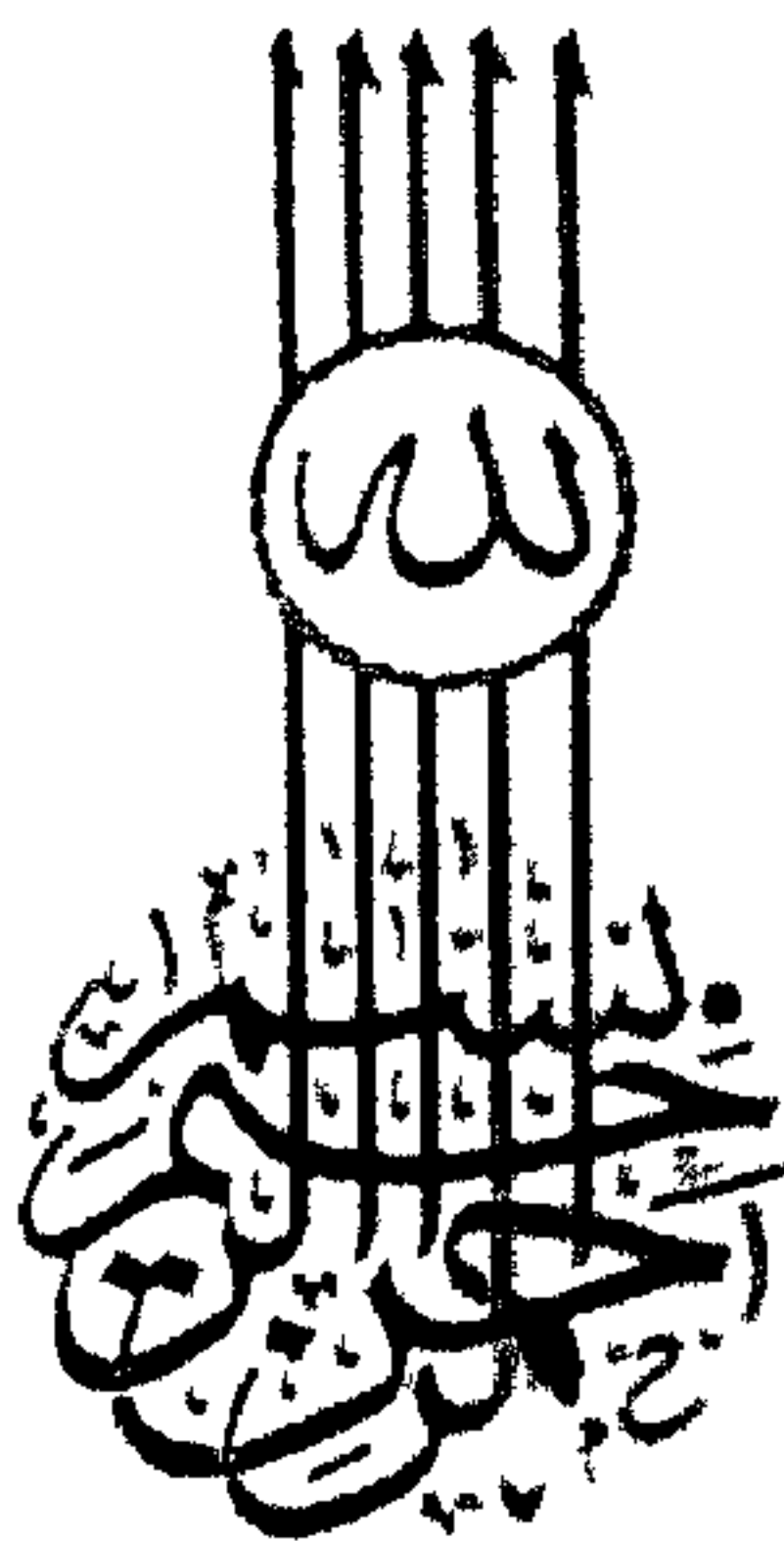
كافة حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المصورة ش.م.م
الإدارة والمطابع : المصورة ش.م.م محمد عبد الواحد لكلية الآداب
ت ٢٤٦٧٢١ / ٢٥٦٢٢ / ٢٥٦٢٣
المكتبة أمام كلية الطب ت ٣٤٧٤٢٣ من ب ٢٣ تكس DWI A UN 24004



مَقَامُكَ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ

الدُّكُونِ السَّيِّدِ الْأَجْمَلِ



المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين . وبعد :

فهذا كتاب (مقال في الإنسان والتوحيد) عرفت به بالإنسان والكلام فيه ،
وعبوديته لله عز وجل . بينت فيه كيف أن الإنسان مقصود الخالق جل شأنه إلى
خلافة الأرض وعمارتها ، وحمل الأمانة ، حتى يبلغ الإنسان كماله الدنيوى
والآخروى .

هذا وكان لابد أن أذكر بعض مقالات العلماء - منذ القدم - في الإنسان
والتعريف به بقدر ما توصل إليه علمى . مع أن كلامهم فيه دار في أغلبه حول صفاته
المادية ، وهو ما لا يوافق كلام القرآن فيه ، وفهم علماء الإسلام - أمثال الماوردى ،
وابن حزم ، والراغب الأصفهاني ، والغزالي ، وابن تيمية ، وابن القيم وغيرهم - الذين
جاء كلامهم في الإنسان والتعريف به - في ضوء فهمهم لآيات القرآن الكريم
ونصوص السنة الشريفة .

هذا ولما كانت قضية خلق الإنسان من أهم القضايا التي طرحت من قبل الباحثين
من الطبيعيين الذين بحثوا في خلق الحياة على الأرض ، وفي خلق الإنسان عليها - وهي
في مزاعمهم - تضاد الحقيقة التي بينها القرآن ، ولما كانت تصوراتهم - في مزاعمهم -
لا يقبلها العقل السليم ، دون أن يتداعى إليه الشك ، بل النقض ، فقد بينت قصة
الخلق كما وردت في كتاب الله . ذلك لأن الله هو الخالق الذى انفرد بالخلق . قال
تعالى : ﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ
المضلين عضداً ﴾^(١) .

لقد تحدث القرآن الكريم عن خلق الإنسان ، وبيّن القاعدة الجليلة التي عليها الخلق
من الناحية الروحية والمادية معاً ، ولكل ما لا يقدر عليه إلا البارئ المصور سبحانه

(١) الكهف : ٥١ .

وتعالى ، الذى كرم الإنسان بهذا الخلق ، تكريم دوام لبني آدم منذ خلق آدم إلى يوم الدين ، مع بيان أطوار الخلق ، وبيان كيف أن الأصل الطينى للإنسان لم يحل دون كرامته ، لقد خلق الله الإنسان من الطين ، وأودعه عجائب سره ، وبث فيه تعالى من روحه فوصله بالكرامة على كل خلقه . فكانت العبرة بالوصل لا بالأصل ، فالوصل قربة لله ، وإن كان الأصل تربة من تراب الأرض .

إن هذا الوصل جعل الإنسان بفطرته ميالاً إلى التدين ، مشدوداً بقوة من داخله تصله بخالقه ، بسبب استعداد أصيل في طبيعة خلقه ، وهذا الميل الفطرى إلى عبادة الله الواحد ، هو الذى يعطى المتدين الحس الذى يلتمس به حقيقة الذات العليا المبدعة لهذا الكون ، وهو يستمد منها العون كلما حزبه أمر ، ثم وهى تقوده إلى صنع عظام الأعمال .

ومع أن الإنسان يستجيب بفطرته لنداء الله ، فإن بعض البشر فى أجيال متعاقبة بغوا فأشركوا مع الله ، وجعلوا له أنداداً ، فأرسل الله تعالى الأنبياء والرسل ليصححوا للبشر مسيرتهم الإيمانية ، وهذا يهدم القول الذى يزعم أن البشر بدأوا تاريخهم الدينى بتعدد الآلهة ، ثم مالوا إلى التوحيد فى النهاية ، وهذا باطل ، والحق أن الله خلق الإنسان على دين التوحيد ، وعلى حب الله والإقرار له بالوحدانية والعبودية وحده بلا شريك له فى الملك والخلق ، وعلى تزكية النفس ، بما منحهم الله من نعمة الوحي الذى هو أشرف مقاصد المعرفة ، وبنعمة العقل الذى هو أعظم وسيلة لتحصيلها .

ولقد خلق الله الإنسان ليستخلفه فى الأرض ، وأعدده لذلك بالعلم الضرورى ومصدره الوحي ، وبالعلم الاستدلالى ومصدره القلب والعقل ووارداتهما ، وفرض على المسلم العمل بهما جميعاً فى التعامل مع الكون ليحقق ما ينفعه فى مجاله الروحي والمادى معاً . ذلك لأن الدين يروى جذور الإيمان الفطرى فى الإنسان ، ويربط فى الوقت نفسه بين إيمان الإنسان وواقعه ، وما يحتمه عليه من سلوك صحيح يحقق العمل النافع ، ويوصل تبادل النفع المطلق بين الإنسان وواقعه ، ودينه وآخرته .

إن الدين فى جوهره يجمع بين الإيمان وحب الناس ، والعلم والعمل ، وتحقيق الذات والإبداع والأخذ بوسائل العلم المتمكنة من تحقيق الخير للناس فى عالم المحسوسات .

تلك هي مقاصد الدين العليا ، فإذا قطع الإنسان الوصل ما بين الدين والعلم ، والقيم الروحية ، والمعاني الأخلاقية التي تطهر النفس وتزكّيها ، وكذا البحث والتجريب ، والتمكّن من واردات القوة في الأرض ، كالمال وحسن تدبيره ، والصناعة المتقدمة وحسن توجيهها ، والسياسة والعدل فيها ، يخسر الإنسان نفسه ويجهل الغاية من خلقه .

وإذا علمنا أن الإنسان مركب من أضداد متعادلة ، وأنه يتوزع بمنازعه بين شكر الله ، والجنوح إلى المعصية ، فإن الغالب عليه الميل الفطري إلى الإيمان والتدين - بحكم خلق الله للإنسان وتسويته ، وتركيب القوى المدركة فيه للخير والشر معاً ، على أكمل ما يكون التركيب ، وبهدايته هداية البيان ليختار ، فإن رجح طريق الخير أفلح ، وإن جنح إلى الشر خاب سعيه ونال الخسران المبين .

وإن المسلم الذي رجح الخير فيه مُقَرَّبٌ بالعبودية لله ، التي هي كمال العبادة والعلم والعمل ، والإيمان يقتضى حب الله وتوحيده ، وحسن المعاملة ، والخلق الحسن ، وحسن القصد إلى مقاصد الحياة الدنيا ، بذلك يتحقق الاستخلاف الذي هو منحة مقررة من الله للإنسان لِيَلَيَّ بها الأرض ، بالتمكين فيها بمنهج الإسلام ، وعند ذلك يبدلنا الله سبحانه من خوفٍ أمناً ، ويجعل لنا السيادة في الأرض .

هذا وبالله التوفيق

د . السيد أحمد فرج السويدي

٢٥ من شوال ١٤١٠ هـ .

٢٠ من مايو ١٩٩٠ م .

ميت سويد في صباح يوم الأحد

الفصل الأول

ما الإنسان !؟

ما الإنسان ؟

يحسُن عند الكلام في الإنسان والتوحيد أن يكون الكلام فيه من خلال فهم آيات القرآن الكريم التي تكلمت في الإنسان ، وفي ضوئها يجب أن يلتزم المرء بالفهم القرآني الصحيح لدور الإنسان - كما صوره القرآن - في الحياة الدنيا التي هي جسر يعبره الإنسان إلى الحياة الآخرة ، ومن ثم فليس على الإنسان أن يكون عقلاً خالصاً وهو يتكلم في الإنسان ، ذلك لأن العقل المحض لن يعطيه - وحده - منظومة المعلومات الصحيحة عن جوهر الإنسان ، وإذا أصر الإنسان أن يكون عقلاً خالصاً فلن ينفعه ما بلغه من تقدم في مجال واردات العقل ، كما لن ينفعه ما بلغه من تقدم علمي ، وتفوق في كل مجالات العلوم والصناعة والاقتصاد ، وكافة الدراسات الإنسانية ، لكي يصل إلى علم يقيني بحق الإنسان ، كذلك لن يفيد ما حققه من امتلاك وسائل التقنية ، بما أفاء الله عليه من منحة تفوق العقل الإنساني ومكتسباته ، وما تيسر له من قدرة على التصرف في المادة الجامدة ، وغير الجامدة ، وتشكيلها وإنطاقها أو تحويلها إلى طاقة يسخرها لإرادته ، وللسيطرة على الأرض والفضاء الكوني .

ويخطئ الذين يعتقدون أن إنسان القرن العشرين ، الذي امتلك وسائل العلم ، هو المثال الذي ينشده القرآن الكريم للإنسان ، فإنسان القرن العشرين بهذا التصور ، لا يمثل إلا شقاً واحداً من المثال القرآني للإنسان^(١) أي أنه - فقط - يمثل الجانب العملي في الإنسان القرآني : العالم المفكر ، الدؤوب المرید ، المعتر بعقله وإنجازاته في هذا العصر .

وليعلم إنسان القرن العشرين هذا أن هذه المعطيات المادية كلها من الله ، فهو سبحانه وتعالى الذي هيأها للإنسان ، واختصه بها من دون خلقه ، وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله : « فاعلم أن الله سبحانه وتعالى اختص نوع الإنسان من بين خلقه

(١) رأى عباس محمود العقاد أن إنسان القرن العشرين ، هو بعينه إنسان القرآن الكريم . انظر العقاد : الإنسان في القرآن ص ٩ كتاب الهلال ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م ، وهذا كلام لا يمكن التسليم به ، إلا بإقرار التوحيد لله ، وتسخير منح العقل ومكتسباته في وجوه الخير لكل البشر .

بأن كرمه وفضله وشرفه ، وخلق نفسه ، وخلق كل شيء له ، وخصه من معرفته ومحبه ، وقربه بما لم يعط أحداً غيره ، وسخر له ما في سماواته وأرضه وما بينهما ، حتى ملائكته - الذين هم أهل قربه - استخدمهم له ، وجعلهم حفظة له في منامه ، ويقظته ، وطمعته وإقامته ، وأنزل إليه وعليه كتبه ، وأرسل إليه رسله ، وخاطبه وكلمه منه إليه ، واتخذ منهم الخليل والكليم ، والأولياء والخواص والأخبار ، وجعلهم موطن أسرارهم ، ومحل حكمتهم وموضع حبه ، وخلق لهم الجنة والنار ، فالخلق والأمر ، والثواب والعقاب مداره على النوع الإنساني ، فإنه خلاصة الخلق ، وهو المقصود بالأمر والنهي وعليه الثواب والعقاب»^(١) .

ولقد جعله عز شأنه قادراً مختاراً مريداً ، وكرمه سبحانه وتعالى . يقول عز من قائل : ﴿ ولقد كرمنا بني آدم ﴾^(٢) بالتكليف الذي لا يختص به إلا عاقل عالم عامل ، ومن ثم فقد ألزمه عز شأنه بالتوحيد ، وفرض عليه الإقرار به ، وجعله غاية يسعى إليها ، فإن ألزم نفسه به - عن حب وإيمان وطواعية - صار جديراً بخلافة خالقه في الأرض ، وإن جنح عنه ارتد إلى أسفل سافلين ، قال تعالى : ﴿ والتين والزيتون * وطور سينين * وهذا البلد الأمين * لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم * ثم رددناه أسفل سافلين * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون * فما يكذبك بعد بالدين * أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾^(٣) .

يقول ابن القيم رحمه الله : « فالؤمن من نوع الإنسان ، خير البرية على الإطلاق ، وخيرة الله من العالمين ، فإنه خلقه ليتم نعمته عليه ، ولتواتر إحسانه إليه ، وليخصه من كرامته وفضله بما لم تنله أميئته ، ولم يخطر على باله ولم يشعر به ، ليسأله عن المواهب والعطايا الباطنة والظاهرة ، العاجلة والآجلة التي لا تنال إلا بمحبته ، ولا تنال محبته ، إلا بطاعته ، وإيثاره على ما سواه »^(٤) .

الإنسان من خلق الله ، وإلى الله يسعى ، وإليه جل شأنه يصير ، وما مواهبه وعطاياه الدنيوية إلا من لدن عزيز حميد ، فإن وفاها حقها ، فإنما حقق الغاية من

(١) ابن القيم : مدارج السالكين بين منازل ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ ١ / ٢٣٢ ، دار الحديث .
(٢) الإسراء : ٧٠ . (٣) التين : ١ - ٨ . (٤) نفسه : الصفحة نفسها .

خلقه : عبادة لله ، وعمارة لكونه ، وبها يكون له على الله حق ﴿ أجر غير ممنون ﴾ أن يدخله الجنة .

إن الذين شغلوا بالإنسان واهتموا بكيونته ، لم تكشف أبحاثهم إلا عن كونه كائناً حيويّاً أما عناصره النفسية ، أو قواه المدركة ونحوها فلم يعرف عنها بعد إلا القليل . وهذه حقيقة أعجزت العلماء لدرجة أن العلماء المتخصصين في علوم الإنسان لو كرسوا حياتهم لمعرفة كنه الإنسان كائناً حياً - معتمدين على العقل المحض - لأعجزهم معرفة ذلك .

وهب أن هؤلاء العلماء جميعاً استطاعوا التوصل إلى نتائج صحيحة عن مركبات جسم الإنسان العضوية في جميع أطوار حياته ، ومع أن ذلك سيظل افتراضاً صعب المنال ، ذلك لأن الإنسان لا يمكن فهمه مادامت الدراسة ستظل مقصورة على الجانب الحيواني فيه - فسيبقى اكتشاف الإنسان من هذه الوجهة مرهوناً باكتشاف أعقد ما في الكون من مواد وتراكيب ، وصلتها ببعضها وبمبدعها جل شأنه ، وحتى لو توصلوا إلى نتائج مادية صحيحة - في هذه الحالة - فستظل روح الإنسان سراً إلهياً خالصاً لله ؛ لأن التعامل الإنساني في الإنسان سيكون مع جثة بلا روح ، ومن ثم فإن العلماء الذين قاموا بتشريح جثة الإنسان لم يصلوا بعد إلا إلى بعض مكونات الإنسان ، وعناصره المتعلقة بالمادة كأي مادة ، من خلايا وأعضاء وأنسجة وغير ذلك .

ربما الذي ألبأ العلماء الطبيعيين إلى ذلك ، التذرع إلى إخضاع أفكار اجتماعية محددة لنتائج البحث (البيولوجي) في الإنسان ، وحقيقة الأمر - كما يقول بعض علماء الأحياء البارزين - : « إن البيولوجيين الاجتماعيين يرتكبون خطأً التَّشْيُؤَ المعتاد حينما يأخذون مفاهيم خلقت لتنظيم الخبرة الاجتماعية البشرية ، وتعظيمها والحديث عنها ، ثم يضعون عليها حياة من عندهم لتصبح لها القدرة لأن تؤثر في العالم وتتأثر به .

إن من الصعب أن نقرر تشريح كائن حي حتى نفسره بيولوجياً ، أفلا ينبغي أن نبذل مزيداً من الحرص بالنسبة للسلوك ، خصوصاً إذا كان سلوك كائن اجتماعي ؟ ومن المعروف أن بنية الذاكرة لا تماثل بنية المخ ، فالذكريات المعينة لا تخزن في أجزاء معينة من قشرة المخ ، ولكنها تنتشر مكانياً على نحو ما ، ووظيفة الإدراك المتكاملة مازالت غامضة في تنظيمها ، ومع هذا فإن البيولوجيين الاجتماعيين [لا يعوزهم افتعال

الذرائع] إلى تقسيم كل حضارة الإنسان إلى وحدات تطور متميزة «^(١) .

إن العلماء الذين توقفوا عند تشريح جثة الإنسان الهامدة ، لم يقدموا - على سبيل المثال - بعد ، دراسة شافية حول عقل الإنسان ، فضلاً عن أنهم لم يلجوا حتى الآن مجال الروح ، بل لقد انتهوا إلى تجاهلها عمداً ؛ لأنها بزعمهم لا تقع في مجال المحسوس .

لقد حاول (البيولوجيون) دراسة المخ مستعينين بأدوات التشريح المتطورة ، والمجاهر الضوئية والأليكترونية ، ثم قدموا لنا معلومات مثيرة عن عدد خلايا مخ الإنسان وقالوا فيما قالوا : « إنها تتراوح ما بين ١٠ - ١٤ ألف مليون خلية عصبية ، ولكن هذه الأعداد الهائلة من الخلايا لا تزال تشكل تحدياً ضخماً لهم » .

« ورغم أن المخ هو مركز لعمليات معقدة وكثيرة ومتناقضة مثل : الجوع والشبع ، واللذة والألم ، والنوم واليقظة ، والهدوء والهياج .. إلخ ، ورغم أنه أمكن تحديد المناطق التي تتحكم في مثل هذه الأحاسيس ، وأنه من اليسير التأثير عليها بمركبات كيماوية ، أو نبضات كهربائية ، وبحيث يمكن تشييط عملية ما أو حثها، إلا أن أحداً لا يستطيع أن يميز بين خلايا المخ التي تقوم بهذه الوظائف التي تبدو متناقضة ، وهذا من شأنه أن يشكل تحدياً هائلاً للعلماء الماديين الذين ينادون بأن المخ ليس إلا آلة معقدة تستحق المزيد من الدراسة لفهم وظائفها المتناقضة ، ولكن العالم تايلور مؤلف كتاب التاريخ الطبيعي للعقل يشك في إمكان التوصل إلى فهم هذا اللغز الكبير الكامن في رؤوسنا «^(٢) .

إن الإنسان الذي يتعامل معه الاختصاصيون في علوم الحيوان ، ليس هو الإنسان الحقيقي ، إنما هو رسم تخطيطي له ، فالجثة التي يقوم العلماء بتشريحها ، غير المشاعر التي كانت تمتلكها هذه الجثة ، التي تُراقب في حالات النفس المتباينة في التردد بين الحب والنفور ، والهدوء والهياج ، والتقوى والفجور ، وإن العلم لم يصل بعد إلى القدرة على إدماج حالات النفس الإنسانية ومشاعرها مع حالاتها المادية في عمل

(١) استيفن روز وآخرون : علم الأحياء والأيدولوجيا والطبيعة البشرية ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، عالم المعرفة ، رقم ١٤٨ ، الكويت رمضان ١٤١٠ هـ - إبريل ١٩٩٠ م .

(٢) جوردون راتري تايلور : التاريخ الطبيعي للعقل ، عرض وتعليق د . عبد المحسن صالح عن مجلة عالم الفكر م ١٢ العدد ٣ في أكتوبر ونوفمبر وديسمبر ١٩٨٢ م - ص ٣١٦ .

واحد ، أو إدراك واحد يدرك دفعة واحدة حالات الإنسان في كل أحواله المادية والروحية جميعاً .

إن أحداً لا ينبغي إغلاق باب معرفة حقيقية للإنسان ، ولا ينبغي له ، وإن كل ما يتمناه الإنسان العاقل أن يصل إلى حقيقة ذاته ، فيعرف الإنسان نفسه .

إن العلم يسير بخطى سريعة - ولكن في مجال المادة - وهل استطاع العلماء اكتشاف كيف أن الأمشاج وسيلة ائتلاف لحفظ النوع الإنساني ؟ وأنها أيضاً وسيلة اختلاف بين أفراد النوع ذاته ، لتحقيق التمايز بين أفرادها ، وهل أدركوا أين يوجد العقل بالتحديد ، وهل هو في الدماغ أم في القلب ؟ وهل استطاعوا أن يلمسوا موضع العاطفة من القلب ؟ أو أن يقولوا : إن موضعها غير القلب .

إن كل ما توصلوا إليه من معرفة بالإنسان ، أنه مكون من أعضاء وأنه يتكلم ويحس ، ويحسن التصرف ، ولكن ما هي الأسرار والعلاقات التي تربط بين هذه الأشياء حتى صارت إنساناً يفكر ويتكلم ويريد ، ويجب ويكره ، وقبل كل ذلك يعتقد ، وإن ما يطلق عليه : الدراسات النفسية لا تزال تتخبط ، وعوالم النفسيين تتباعد ولا تتقارب ، وما عند بعضهم يخالف رؤى الآخرين منهم ، وعالم الإنسان الباطني لا يزال مغلقاً ، وربما ظل كذلك ما لم يقدموا ما يمكن به معرفة ما يحدث بداخل الإنسان من تسوية للنفس ، أو تشويه لها .

قال تعالى : ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً * إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً * إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾^(١) .

تقول الآيات الكريمة : إن الله خلق الإنسان من نطفة أمشاج ، وخلق فيها السمع والبصر ، فهما أهم أدوات الإدراك المادي ، المعين على الإرادة والعمل ، وهده عز شأنه السبيل ، وجعل له القصد والإرادة والعزم ، فكان إما شاكراً لأنعم الله ، وإما كفوراً بها ، جحوداً لها ، وتلك أهم أدوات البصيرة الإنسانية .

* * *

(١) الإنسان : ١ - ٣ .

ولكن ما بال العلماء لا يكفون عن إطلاق التعريفات بالإنسان ، فابن خلدون يعرفه فيقول : « إن الإنسان حيوان اجتماعي يميل إلى العمران »^(١) وهذا التعريف ليس قاطعاً مانعاً جامعاً ؛ لأن سباق التسليح ، وسباق تصنيع القنابل النووية والكيمياوية ، واحتلال الأوطان ، وتعذيب الشعوب الضعيفة وتجويعها ، يؤكد سعي الإنسان المعاصر إلى التدمير ، وسفك الدماء ، لا للعمران في كل الأحوال والأحيان . إن ابن خلدون نفسه لو كان يعيش زماننا لحكم على هذا التعريف بنقيضه ، إلا أن يدرك إنسان هذا العصر أنه يسعى سعياً حثيثاً إلى حتفه ، فيبدل سعيه إلى العمران بسعيه نحو الدمار .

وبالمثل فلن يقبل وصف آخر للإنسان بأنه مفكر لمجرد أن أحدهم قال : « أنا أفكر إذن أنا موجود » أو لأنه أراد أن يقول : إنه لا يشعر بوجوده إلا لأنه يفكر ، وهذا التعريف لا يمكن أن ينفرد به الإنسان لاشترك مخلوقات أخرى في القدرة على التفكير .

ولقد عرف الجرجاني بالإنسان فقال : « الإنسان حيوان ماشٍ على قدمين عريض الأظفار ، مستقيم القامة ، ضحاك بالطبع »^(٢) أي أنه مكون من عناصر مادية بالرغم من أنه قال : إنه ضحاك بالطبع ؛ لأنه يمكن أن يكون بكاءً بالطبع أيضاً ، أو مفكراً بالطبع ، أو قادراً على الكلام بالطبع ، أو أنه مطبوع عليها جميعاً .

لقد حاول العلماء من قديم - ولم تنته محاولاتهم بعد - معرفة الخصائص التي تجعل الإنسان يختلف عن جميع الكائنات ، وهذا أمر طبيعي إذ إن الله سبحانه قد خلق المخلوقات وجعل كل نوع منها فريداً في نوعه وخصائصه .

لقد حاول أحد علماء الأحياء المهتمين بمحصر الخصائص المميزة للنوع الإنساني ، أن يجعل التعريف بالإنسان مستنداً إلى معيار الروح ، ولكنه أقر بعجزه عن ذلك ، لتعذر ملاحظة تفاعلات الروح ، فغير التعريف مستنداً إلى معيار الحكمة والتعقل ، فلاحظ أن بعض الحيوانات تأتي بسلوك ينم عن أنه عقلائي ، فتحول إلى تعريفه

(١) عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة ص ٤١ ، الطبعة الثالثة ، المطبعة الأميرية ببولاق ١٣٢٠ هـ .

(٢) الجرجاني : التعريفات - مادة إنسان - مطبعة مصطفى الحلبي ١٩٣٨ .

بالإنسان بأنه المخلوق الذى يستخدم الأدوات ، ولكن اكتشف أن أنواعاً من الحيوانات تستخدم الأدوات مثل ثعلب البحر الذى يعيش فى كاليفورنيا ، ويحمل حجراً تحت الماء يضرب به المحارات لينزعها من صخورها ويتغذى عليها^(١) .

على أن مشاركة الإنسان المخلوقات الأخرى خصائصها دليل على تفرد نوعه ، فبينما هو قادر على التفكير والاكْتساب والعمل ، فإن سلوك الحيوانات الأخرى يظل واحداً وآلياً ناتجاً عن ردود فعل مقدرة ومحددة وثابتة ، وملازمة لنوعه .

إن أحداً لم يعط التعريف الجامع المانع للإنسان ، وبهذه المناسبة فإن باحثاً مغربياً معاصراً ، شغل نفسه بالتعريف بالإنسان ، من خلال بحوث عدة طرحها تحت عناوين متعددة تدور كلها حول البحث عن تعريف بالإنسان مثل :

« الإنسان والتعبير » .

« الإنسان حيوان رامز » .

« الإنسان حيوان يتكلم » .

« وما الإنسان » .

وتحت هذه العناوين ملاً أبحاثه بالتعريفات ، ومما قاله فيها :

« الإنسان حيوان يتواصل بالطبع مع الآخرين ، والكائنات والعالم ؛ إنه حيوان

مدفوع بالغريزة والتكوين العضوى إلى التعبير » .

أو « حيوان يعتمد على التفكير والإرادة والإشارة والكلمات » .

أو « حيوان يهتم بالدين والفن والعلم » .

أو « حيوان يستعمل الآلة » .

أو « الحيوان الذى يتكلم أى يصنع العالم بالألفاظ » .

و « الإنسان جسد وروح ولغة » .

و « الإنسان كائن حى يمشى دائماً إلى الإمام » .

و « الإنسان لغة أنا أتكلم إذن أنا أحيا » .

(١) انظر : بيتر فارب : بنو الإنسان ص ٦ : ٧ ، سلسلة عالم المعرفة ، رقم ٦٧ ، رمضان ١٤٠٣ هـ -

يوليو ١٩٨٣ م .

ولهذا الباحث الشغوف بتعريف الإنسان بحث بعنوان : ما الإنسان ؟ يقول فيه :

- « إن الإنسان حيوان عاقل » .
- « وحيوان ناطق » .
- « وحيوان يلعب » .
- « وحيوان يمشى على قدمين » .
- « وحيوان يستخدم الرمز » .
- « وحيوان يصنع آلات » .
- « وحيوان مرتبط باللغة ويفكر » .
- « ومرتبطة بالتشخيص »^(١) .

وقديماً قال بعض العلماء كلاماً أبلغ من هذا في التعريف بالإنسان . قال الراغب الأصفهاني : « وإنما فضيلة (الإنسان) بالنطق ، وقواه ومقتضاه ، ولهذا قيل : ما الإنسان ؟ لولا اللسان لم يكن إلا بهيمة مهملة أو صورة ممثلة ، فالإنسان يضارع الملك بقوة العلم والنطق والفهم ، ويضارع البهيمة بقوة الغذاء والنكاح »^(٢) .

وفي العصر الحاضر قال مالك بن نبي أقرب تعريف بالإنسان فقال : « الإنسان حيوان ديني ، بشكل فطري ، بسبب استعداد أصيل في طبيعته »^(٣) .

ومع « أن الإنسان وحده هو الذي ينفرد عن سائر الحيوانات بالسلوك الرمزي ، وبالقدرة على استعمال الرموز والتعامل عن طريقها ، فهو وحده الذي يتواصل مع غيره من الناس عن طريق اللغة والكلام المفصل ... ويصوغ القوانين ، ويراعى قواعد السلوك العامة وأصول اللياقة »^(٤) وقبل كل ذلك التدين .

(١) انظر : أبحاث د . محمد عزيز الجبابي في دورتي مجمع اللغة العربية ٣٧ / ص ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٣١ ، ١٣٦ ،

١٣٨ ، ١٤٠ - و ٣٨ / ٦٨ ، ٧٩ . وانظر للباحث نفسه بحث : ما الإنسان ؟ ضمن مجموعة دراسات فلسفية ص ٢١٧ ، ٢٢٢ بإشراف د . إبراهيم بيومي مذكور ، القاهرة ١٩٧٤ م .

(٢) الراغب الأصفهاني : الدررعة إلى مكارم الشريعة ص ٨٦ تحقيق د . أبو اليزيد العجمي ، نشر الصحوة ، والوفاء ١٩٨٥ م .

(٣) مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية ص ٧٤ ترجمة د . عبد الصبور شاهين ، الطبعة الثالثة ١٩٦١ م .

(٤) د . أحمد أبو زيد : الرمز والأسطورة والبناء الاجتماعي ، ص ٧ عالم الفكر الكويتية . م ١٦ ع ١٣ ديسمبر ١٩٨٥ م .

ومع أن الإنسان هو الفاعل للحضارة والثقافة ، وامتلاك ناصية العلوم ، وإنشاء المجتمعات بكل ما فيها من نظم سياسية واجتماعية واقتصادية ، وصنع الرموز التي تتميز بها الأشياء ، وكل ما هو إنساني ، وكل ما هو غير إنساني ، فستظل هذه التعريفات قاصرة عن التعريف الصحيح .

إن هذه النعوت تميز الإنسان عن غيره من المخلوقات بلا أدنى شك . ولكن هل هي كافية للتعريف النهائي بالإنسان ؟ إن الذي يثير الدهشة أن أكثر الباحثين دأبا على طلب التعريف الصحيح ، اعترف في آخر أبحاثه (ما الإنسان ؟) بأنه لم يصل إلى التعريف المرجو فقال : « إنه من العسير على الإنسان الإجابة عن سؤال : ما الإنسان ؟ ثم قال : إن المحاولات التي بذلت في سبيلها غير نهائية »^(١) .

إن الصفات التي أطلقت على الإنسان ووصف بها تدل عليه وعلى جوهره ، كما تدل سائر الصفات على أنواعها . وكما قال ابن تيمية رحمه الله : « إذا قدرنا عدم هذه الصفات التي هي لازمة للأنواع ، وذاتية لها لم يبق هناك ما يعقل كونه جوهرًا ، فإذا نظرنا إلى هذا الإنسان ، وقدرنا أنه ليس بحي ، ولا ناطق ولا ضاحك ، ولا حساس ، ولا متحرك بالإرادة لم يعقل هنالك جوهر قائم بنفسه ... وإنما يمكننا تقدير هذا الشكل مع عدم كونه حيواناً ناطقاً ، لكن حينئذ يكون المقدر شكلاً مجرداً ، هو عرض من الأعراض »^(٢) لا جوهر من الجواهر ، وبذلك يكون ابن تيمية رحمه الله قد قرب تعريف الإنسان إلى الأفهام ، دون أن يجد حلاً للغز الكبير بطريقة حاسمة .

ولكن هل سيستطيع الإنسان يوماً ما الإجابة عن هذا السؤال ؟ ما الإنسان ؟ مع استمرار التقدم العلمي المذهل الذي حققه في هذا العصر ، وهل سيتمكن من أن يقوم بعمليات تشريحية تعينه على تغيير بعض الأعضاء في جسم الإنسان ؟ وهل سيستطيع أن يؤثر عن طريقها في تغيير أحوال الجنين أو يكتشف بها أسرار الروح ؟ أو يعدل بها الجبلة الإنسانية وغيرها ؟

وهل إذا فعل ذلك أيقدر عن طريقها على حل هذه الأسرار فيصل إلى تعريف

(١) د . محمد عزيز الحبابي : ما الإنسان ؟ ص ٢٢٢ .

(٢) ابن تيمية : موافقة صريح المنقول لصحيح المعقول ٤ / ١٤٥ ، ١٤٦ على هامش منهاج السنة ، المطبعة الأميرية ١٣٢٢ هـ .

صحيح بنفسه ؟ إن تحقق ذلك مستحيل ، إلا أن يحوز الإنسان قدرات يدرك بها أسرار الروح ، والمخ والمشاعر ، والميل الفطري للدين ، وحب الخالق والإيمان به وتوحيده ، والتقوى وحب الخير وعمل البر ، أو الفجور وغير ذلك .

إن السبب في عجز الإنسان عن حل لغز ذاته ، يرجع إلى محاولات التعامل مع الروح ، بالطريقة نفسها التي يعالج بها المادة الجامدة . أو العلوم البحتة ، أو المذاهب الفكرية ، والاقتصاد والتاريخ والسياسة ، والاجتماع ونحو ذلك . دونما اعتبار للحسابات الدقيقة للفروق بين ملاءمة الوسائل لعلاج الأشياء ، أو عدم ملاءمتها . والأمر كما يلخصه بعض العلماء أن « العقل الذى يبدو شديد المهارة في معالجة المادة الجامدة ، يعلن عن قصوره الشديد بمجرد أن يعرض للأشياء الحية ، فإذا كان الأمر خاصاً بمعالجة حياة الجسم ، أو حياة العقل ، فإنه يسلك مسلك الصلابة والصرامة ، والعنف الذى تسلكه أداة لم تكن أعدت لمثل هذا الاستعمال »^(١) .

ومع هذا فإن ذلك ليس المثال الصحيح الكامل ، الذى يبين عجز الإنسان عن إدراك كنه ذاته ، لقد أردنا فقط أن نبين أن المسألة بالغة التعقيد ، وأن الإنسان سيقف دائماً أمامها في موقف العاجز المطلق ، إنها ليست من السهولة بحيث يكتفى بضرب الأمثال لتقريبها من الأذهان .

ولقد أثار عالم نفسى أمريكى معاصر دعوة تعليم التلاميذ الأمريكين بطريقة مبتكرة ، بإعادة تنظيم المناهج الدراسية على نحو يفجر الطاقات الإبداعية العقلية لدى الدارسين في مختلف مراحل الدراسة - هكذا يزعم - وهياً له زعمه أن يذهب إلى أبعد من الفكرة التى يزعم بعض العلماء أنها تتحكم في حركة التفكير في الجسم ، وهى ما أطلقوا عليه جانبى الدماغ ، أو الدماغ الأيسر ، والدماغ الأيمن من الجسم ، وهو المسئول عن التفكير التحليلي ، أما الجانب الأيمن من الدماغ والذى يتحكم في الجانب الأيسر من الجسم ، فهو مصدر الحدس ، ولهذا فهو يرى أن الذكاء لا يمكن التنبؤ به أو تجريده ، إلا وفق التفكير الحدسى ، والتعبير الخلاق .

ولما كان هذا العالم يذهب إلى ما هو أبعد من فكرة جانبى الدماغ السابقة الذكر

(١) هرى برجسون : التطور الخالق ، ص ١٩١ ترجمة محمود محمد قاسم - مراجعة نجيب يلى ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى ١٩٦٠ م .

فإنه « يصف الإنسان بأن له أكثر من عقل ، كل عقل هو خبير في مجالات عديدة ، فهناك العقل الذى يهتم بالجانب الصحى ، وآخر هو الدليل العاطفى ، وهناك العقل الذى يفرز جانبا للمعلومات غير الضرورية ، والعقل الذى يعقد الموازنات ، وهذه العقول المختلفة تعمل بطريقة اللاوعى»^(١) .

ويرى هذا العالم أنه يجب أن نستند فى التعليم على الاعتراف بهذا التنوع العقلى بدءاً بمرحلة رياض الأطفال .

إن أحداً - ولا هذا العالم نفسه - يقدر أن يقول : إنه استطاع أن يحل اللغز الأزلى ، أو أنه فتح النوافذ التى كانت مغلقة أمام عقول العلماء ، وإن الدراسة التى قام بها لا تزيد عن كونها دراسة تضاف إلى الدراسات السابقة التى تجعل الغموض القليل - فى معرفة كنه الإنسان - غموضاً مركباً .

لقد تفوق الإنسان فى دراسة العلوم الطبيعية ؛ لأن عناصرها مادة جامدة لا تفكر ، ولأنها تسلم نفسها للإنسان فلا يخطئها ، أما الإنسان فإنه خاضع لطبيعة عقله ، فهى التى تجعله يصل إلى درجة التفوق فى شئون البناء ، وشئون الهدم على حد سواء ، وبكفاءة عالية فى الحالىن .

وتفوق الإنسان فى دراسة المادة راجع إلى انشغال الإنسان بما يحيطه من أشياء ، قبل أن ينشغل بنفسه ، ولهذا أحرز تقدماً وتفوقاً فى دراسة الأشياء المادية ، قبل أن يعى كيانه المعقد .

إن الإجابة على سؤال « ما الإنسان ؟ » لن تحسم ، إلا أن يصل الإنسان إلى درجة قصوى من الوعى بميراثه الروحى ، ذلك الجانب الذى يملكه الخالق وحده . ومن ثم فمهما نمت معرفة الإنسان بالأشياء ، نتيجة لتقدمه فى العلم وتملكه لوسائله ، فستزداد خسارة الإنسان فى نفسه ، كلما تعمد الاندفاع بنفسه إلى الخطأ بتصوره أن بإمكانه دراسة الإنسان فى جانبه الروحى بالأسلوب نفسه الذى يعالج به المادة ، والسؤال الآن : متى يتجاوز الإنسان خطأه الكبير « إزاء الإصرار على معالجة الكائن

(١) روبرت أورنشتاين : بحث : حول عالم النفس الأمريكى ص ٨٤ مجلة الثقافة العالمية الكويتية ، العدد ٤٩ ، السنة ٩ جمادى الأولى سنة ١٤١٠ هـ - نوفمبر ١٩٨٩ م .

الحى [الروح والجسد معا] معالجة غير الحى [الجسد فقط] وفى التفكير فى كل حقيقة واقعية مهما كانت مرنة ، كما لو كانت فى صورة جسم ثابت صلب بصفة نهائية ^(١) .

إن دراسة الإنسان ستكون ناقصة إذا عولجت من الوجة المادية فقط ، ذلك لأن الإنسان لا يعرف من نفسه إلا بعض ظواهرها ، أما أسرارها فهى من أمر الله وعلمه .

* * *

وكما هو معلوم فقد خلق الله الخلق ، قبل أن يخلق الإنسان ، ولأنه لا كمال لهذا الكون بدونه ، فقد خلقه الله ليكون خليفة له سبحانه فيه ، وعلمه عز وجل أسماء مخلوقاته وجعله سيداً عليها ، ومن ثم فينبغى عند البحث عن كنه الإنسان ألا يفصله عما يحيط به من سائر المخلوقات ، فقد خلقه الله ليكون الوصل بين سائر المخلوقات ، دون أن نجرده من أثر الإيمان ، ومن قوى الخير والأخلاق فيه ، وتزكية النفس ، والمثل العليا المتأصلة فى فطرته ، وعند ذلك لن نجد للإنسان تعريفاً أصح من أنه : خليفة الله فى الأرض .

الإنسان فى القرآن وإنسان القرن العشرين :

تلك معادلة شغف بها الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابيه : (الإنسان فى القرآن) و (القرن العشرون ما كان وما سيكون) عادل فيها بين إنسان القرآن ، وإنسان القرن العشرين ، بما أفاء الله تعالى عليه من تقدم فى العلوم والفنون ، فى شتى مجالاتها .

ولعل العقاد كان مدفوعاً بدوافع كثيرة ، منها ما حل بكثير من المفكرين الإسلاميين فى العصر الحديث ، الذين دفعتهم رغبة قوية فى إظهار مجد الإسلام ، وإبراز الأجداد التى حققها عظماء الإسلام فى عصور الازدهار ، لقد اندفع - كما اندفع غيره - لإبراز العظمة الذاتية فى الإسلام ، حتى لقد شغل بذلك أكثر من انشغاله بإنهاض المسلمين المعاصرين .

(١) هنرى برحسون : التطور الخالق ، ص ١٩١ .

ربما كان السبب في هذا الاندفاع إحساس العقاد وغيره من مفكرى الإسلام ، بعجز المسلمين المعاصرين أمام تفوق الحضارة الغربية في العصر الحديث . فراحوا يؤكدون للناس جميعاً أن الغرب بكل إنجازاته العلمية والتقنية والمدنية كان مسبقاً بحضارة إسلامية ، كان لها الدور الأكبر في تقدم الإنسانية ، وفي تقدم الغرب المعاصر على وجه الخصوص .

إن مثل هذه الدراسات - بالرغم من أنها مبهرة - إلا أنها تؤثر تأثيراً سلبياً على قارئها المسلم ، الذى يجب أن يوجه إلى كيف يتقدم؟! لا إلى أن ينظر وراءه - ولو كان ذلك مشبعاً بالإحساس بالفخر - والواجب أن تدفع المسلم المعاصر إلى الأمام ، إلى العلم والعمل البناء ، لا إلى الوقوف فوق خط بين الماضى والحاضر ، لجرد عمل موازنة بين أمجاد الإسلام وتفوق الغرب حديثاً ، ثم يكتفى بأن ينحاز عاطفياً إلى أمجاد الإسلام في الأيام الخالية ، دون أن يهيبئ النفس إلى الاستفادة من معطيات الإسلام ، والعمل بوعى كامل لإنهاض أمته ، وتحقيق ذاتيتها .

إن هذه الموازنات إذا لم تكن واعية ، فإنها تفعل في الناشئة فعل المخدر ، فتميت طموحاتهم ، وهم يجترونها سير المجد القديم ، دونما تفكير في عز المستقبل .

إن هذه الموازنات أضرت على الناشئة ، من كل المثبطات التى يرمى بها المسلمون من كل أعدائهم .

هذا ولن ينفعهم انبهار العقاد بإنسان القرن العشرين ، وما حققه من إنجازات في مجالات العلوم والمال والاقتصاد وغيرها ، الأمر الذى جعل العقاد يصدر حكمه فيقول : بأن إنسان القرن العشرين ، هو إنسان القرآن نفسه ؛ لأن القرن العشرين بزعمه قد ألزم الإنسان بالبحث عن مكانه في الوجود حتى صار جماع الأسئلة إلى لا جواب لها بغير عقيدة دينية ، وليست أى عقيدة دينية ، فأنسب هذه العقائد لإنسان القرن العشرين ، هى عقيدة القرآن ، فهى العقيدة التى تدعو إلى الاطمئنان والاستقرار واليقين ، في الوقت الذى خذلت فيه عقائد أخرى كثيرة أصحابها كالمادية والفاشية وغيرها . ومن ثم كان إنسان القرن العشرين حرياً بأن يعتنق عقيدة القرآن ، وأن يدين بها .

إن كلام العقاد لا يفتقر إلى الحماس الدينى ، ولكن مع هذا ، فإن إنسان

العقاد - إنسان القرن العشرين - ليس إنسان القرآن في كل شيء خاصة في جانبه الروحي ، وإن كان حرياً بالإنسان في كل القرون أن يكون إنسان القرآن ، بحسب معطيات الزمان والمكان ، وبحسب اجتهاد الإنسان وتحكمه في هذه المعطيات ، وقدرته على الانتفاع بها .

وكذلك لم يوفق العقاد عندما وضع الإسلام في موازنة مع الفاشية والمادية وغيرهما من متواضعات البشر ، وإن انتصر للإسلام . ومثله كما قال الشاعر :

ألا ترى أن السيف يصغر قدره إذا قيل إن السيف خير من العصا

ومن دراسة العقاد أيضاً ، تبرز حقيقة أن إنسان القرن العشرين - وهو الإنسان الأوربي ، الأمريكي كما عينه الكاتب - لا يستمد تفوقه من المسيحية التي يدين بها ، وإنما يستمده من العلم ومعطياته ، فالعلم برأى الغرب الأوربي الأمريكي : « هو الملجأ والملاذ ولا شيء سواه ، ولقد صار العالم المتمدن يستفتيه في كل صغيرة وكبيرة ، مدعياً أن العلم قادر على كل شيء مهما دق واستعصى »^(١) .

وهذا المفهوم يتناقض مع المفهوم الإسلامي للفكرة نفسها ، ففي التصور الإسلامي أن الله خالق كل شيء ومنه الإنسان وما اكتسب من علم وعمل وغير ذلك ، يحرز به تفوقه على سائر المخلوقات قال تعالى : ﴿الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾^(٢) .

أما تصور العقاد للإنسان فيبدو أنه متأثر بتصور المثاليين من المفكرين الغربيين ، نراه واضحاً في كتابيه : « القرن العشرون ما كان وما سيكون » و « الإنسان في القرآن » بصفة خاصة ، وهذه الرؤيا جعلته يرى الإنسان برؤيا (طوباوية) فتمنى للنوع الإنساني « وحدة عالمية ، وأن يتحقق للإنسان الفرد زيادة الكفاية والمعرفة ، وللجماعات المتفرقة من الناس أن تتقارب على سنة الإنصاف ، وأن تزول بينها فوارق الظلم والخنوع ، كي تكون المساواة تامة بين الناس »^(٣) .

(١) د . عمارة محيب : الإنسان بين الأديان ص ٣ مطبعة حسان القاهرة سنة ١٩٧٥ م . وعباس محمود العقاد : القرن العشرون ما كان وما سيكون ص ٢٩٣ نشر دار المعارف بمصر مع مؤسسة فرانكلين د . ت وللعقاد أيضاً . الإنسان في القرآن ص ١٧ ، ٥٩ دار الهلال - سلسلة كتاب الهلال .

(٢) طه . ٥٠ . (٣) العقاد : القرن العشرون ما كان وما سيكون ص ١٠٣ .

وكل هذه المفاهيم التي ضمنها العقاد كتابيه : « القرن العشرون ما كان وما سيكون » و « الإنسان في القرآن » تتضمن قيماً إنسانية ، ولكن هيات أن توازن بتلك القيم القرآنية .

إن حماس العقاد للإسلام ، لا يقل عن حماسه للعلم والمدنية الذي يحمل الغرب لواءها في هذا العصر ، تماماً كأستاذه ومرشده الشيخ محمد عبده الذي جعل الإسلام والمدنية بتصورها الغربي في قرن واحد ، وقد جره إلى ذلك انبهاره بأثر العلم الغربي في الإنسان المعاصر في كل الأوطان والأديان ، خاصة بعد أن صارت الآلة التي صنعها إنسان هذا العصر أشد تحكماً فيه من أى عصر مضى ، ولقد كان الخيار ظالماً عندما رأى الإنسان الذي صنع الآلة ، هو نفسه قد تحكمت فيه الآلة ، وتلك مسألة شغلت تفكيره كثيراً حتى أودت به إلى الشك في أمر ذلك الإنسان الذي ينتمي إلى القرن العشرين ، يقول العقاد : « الآلة من عمل الإنسان ، أم الإنسان من عمل الآلة » .

ولقد سيطرت عليه هذه المقولة فجعلها عنواناً لفصل مستقل من كتابه : « القرن العشرون » فنقض به الموازنة التي بناها بين إنسان القرآن وإنسان القرن العشرين من أساسها ، وإن حاول أن يبنى اعتقاده هذا على ركيزة « أن المقياس الذي ينبئ عن تكامل الشخصية الإنسانية في حقوقها وتبعاتها قد دان لإنسان القرن العشرين ، كما اجتزته الحضارة الغربية ، فصار إنساناً متحرراً من الفاقة ، وتخلص من مهانة التسخير وربقة الاستعباد »^(١) .

ولكن لأن العقاد كان شديد التمسك بمدركات عقله وحده ، والاعتداد به دون سواه ، فقد وقع في خطأ تطبيق مقاييسه العقلية هذه على الذين ترجم لهم من بنى الإنسان ، وقسمهم إلى عظماء ، وهم من وجهة نظره الشخصية يمثلون الطبقة العليا من العباقرة ، لا فرق في ذلك بين نبي عبقرى كمحمد ﷺ ، أو خلفاء عباقرة : كأبي بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم ، أو قادة عباقرة كخالد بن الوليد رضي الله عنه ، أو أديب عبقرى مثل : جوته الشاعر الألماني الشهير ، أو فقيه عبقرى يدعو إلى الإصلاح كالشيخ محمد عبده ، أو أفذاذ عباقرة وعلي رأس هؤلاء معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ، وإن نعته بأنه قدير وليس عظيماً^(٢) .

(١) نفسه : الصفحة نفسها .

(٢) د . شوقي ضيف . مع العقاد ص ٨٦ دار المعارف سلسلة اقرأ والعقاد في ذلك متبع متأثر بالكاتب الإنجليزي المشهور توماس كارليل الذي كان العقاد معجباً به إعجاباً شديداً خاصة في كتابه : الأبطال وعبادة البطولة : Heroes and Hero - worship يقول كارليل عن مذهبه في البطولة : «البطولة في مذهبي =

وسواء كان الإنسان عبقرياً عظيماً ، أو أديباً نابهاً أو فذاً قديراً ، أو فقيهاً مصلحاً بحسب تصنيفات العقاد ، فالإنسان إذا وصف بالعظمة ، فإنما يوصف بها عنده لفضل يقاس بالمقاييس الإنسانية العامة ، ولذلك فهو يقرر أن كتاب (عبقرية محمد) « إنما هو تقدير لعبقرية محمد بالمقدار الذى يدين كل إنسان ، وليس فى قلب كل مسلم وكفى ، فمحمد هنا عظيم ؛ لأنه قدوة المقتدين فى المناقب التى يتمناها المخلصون لجميع الناس »^(١) .

إن هذه النظرة الإنسانية العقلانية فى ميزان العبقرية عند العقاد ، هى ما أطلق عليه الدكتور شوقى ضيف بالواقع الإنسانى الاجتماعى عنده ، وهذا صحيح فقد « مثل للعقاد من خلاله عبقرية محمد النبى الداعى بكل ما تختلف فيه من أشعة آدمية كفلت إبلاغ الدعوة التى ارتكزت على مخاطبة العقل ، وفصاحة اللسان ، وعبقرية محمد الرجل التام الرجولة فى شجاعته وحروبه وملكاته الإدارية ، وعبقرية محمد الإنسان فى رحمته وبره وعطفه وشرفه ونزاهته ، الذى عاش وفاقاً لأسمى مبادئ الخلق الاجتماعى والإنسانى ، معيشة لو لم تقترن برسالة النبوة ، لكان حقاً على الإنسانية أن تعده عبقرياً بملكاته النفسية العظيمة »^(٢) .

ولهذا رأى الدكتور شوقى ضيف بنظرته الصائبة أن التراجم الإنسانية عند العقاد « ليست سيراً بالمعنى التاريخى المألوف ، وإنما هى صور تشخيص الملكات والأخلاق »^(٣) ذلك لأن العقاد يرى فى الشخصية العبقرية ، الجوانب الإنسانية فى

= هى العروة المقدسة التى تعقد ما بين الرجل العظيم وبين سائر الناس . (الأبطال ص ٢) ومن العظماء الذين كتب عنهم فى كتاب واحد : محمد ﷺ ، ودانتى الشاعر الإيطالى ، وشكسبير الشاعر الإنجليزى ، وروسو المفكر الفرنسى ، وكرومويل السياسى الإنجليزى . والقس البروتستنتى مارتن لوثر .

وكان كتاب الأبطال وعبادة البطولة قد ذاعت شهرته فى العقد الثالث من هذا القرن . أى قبل أن يكتب العقاد كتاباً واحداً فى العبقريات ، وكان لكتاب كارليل هذا تأثير كبير على العقاد فى كتابة العبقريات والتراجم .

انظر كارليل : الأبطال - تعريب محمد السباعى - نشر المكتبة التجارية . مصطفى محمد - الطبعة الثالثة

١٣٤٩ هـ - ١٩٣٠ م .

(١) مقدمة عبقرية محمد للعقاد - طبعة كتاب الهلال .

(٢) د . شوقى ضيف : مع العقاد ص ٨٧ - ٨٨ دار المعارف سلسلة اقرأ .

(٣) نفسه : ص ٨٦ .

الرحمة والبر والعطف والشرف والنزاهة ، والخلق الاجتماعي الإنساني ما يسمو بصاحبها حتى وإن لم يقترن برسالة سماوية»^(١) .

إن العقاد بموازينه تلك رام إقلاب موازين التربية مثله كمثل مرشده الشيخ محمد عبده ، وإن خالفه في المنهج المؤدى للغرض نفسه ، فقد كان كل منهما يسعى إلى الكمال الإنساني - كما يراه هو - ويسعى إلى غرسه في نفوس الشباب ، غير أن العقاد كان متأثراً بالإنسان البطل كإنسان كارليل ، وصنوه الأعلى المقتبس من إنسان بعض فلاسفة الألمان .

كذلك كان يرى رؤاهم في أولوية الفرد ، ووضعه التاريخي كمحرك للأمم ، وبتلك النظرة أراد العقاد صياغة إنسان فذ عبقرى جديد ، هذا من ناحية ، ولعله من ناحية أخرى أراد بتلك النظرة « أن يطعن في جدوى تنظيمات المد الإسلامي الجماعية ، التي بدأت مسيرتها مع مطلع الثلاثينات ، المتمثلة بصفة خاصة في جماعة الإخوان المسلمين ، ويشوه إيمانهم بهذا الجانب الجماعي من الإسلام»^(٢) . ويشكك في دورهم التربوي الجماعي في توجيه الشباب ، فأسقط منازعه تلك في تصوره للإنسان الفذ .

على أن المسألة - فوق كل ذلك - لم تعد الإحساس بالهزيمة النفسية ، أمام الحضارة الغربية ، والمحاولة المتحمسة ، من قبل الشيخ محمد عبده ، ومن بعده العقاد للتحفز الذي يسبق الدفاع عن الإسلام وحضارته .

ومما لا شك فيه فإن العقاد كان يحمل الأمنيات الطيبة لأمتة الإسلامية ، وكان يهدف بلا شك ، إلى هدف سام ، وغاية طيبة ، ولكن ذلك لم يحل بينه وبين الخطأ في اختيار المثال ، عندما جعل الإنسان الغربي الذي صنفته الآلة ، هو مثال الشخصية المتكاملة في تصوره ، ذلك لأن إنسان القرن العشرين ، صاحب التقدم العلمي والصناعي والاقتصادي ، والذي يمثل ثمرة حضارة الغرب في العصر الحديث ، يعاني من تمزق نفسي من داخله ، ويبحث عن مخلص ، فلا يجد خلاصه ، لا في المسيحية

(١) د . السيد أحمد فرج : الطابع الإسلامي في أدب شوقي ضيف ، مجلة كلية التربية بدمياط سنة ١٩٨٥ ، ص ١٧٣ عدد خاص في تكريم الدكتور شوقي ضيف .

(٢) غازي التوبة : الفكر الإسلامي المعاصر ، دراسة وتقييم ص ١٦٦ دار القلم - بيروت ١٩٧٧ م الطبعة الثالثة .

الذى تعمد مواجهتها منذ أن ثار (مارتن لوثر) على الكنيسة ، ولا في الفاشية ، ولا في النازية ، ولا في الماركسية ، ولا في تعاليم الرأسمالية البراجماتية ، ولا يزال فرض استحالة الخلاص قائم مادام الإنسان الغربى يصر على ترك حياة قوامها روح ومادة ، والأخذ بحياة هي مادة خالصة .

ربما لا يكون مغالاة لو قيل : إن صورة الإنسان عند العقاد ، كما هي عند مرثده الشيخ محمد عبده ، تستمد ظلالة من نظيرتها عند فلاسفة الغرب ، مما دفع العقاد إلى تصور إنسان تاريخى تطابق صورته - بزعمه - ما يمكن أن تكون عليه صورة الإنسان المثالية كما يتمثلها لإنسان القرن العشرين ، التى عادها بإنسان القرآن ، وهى معادلة لا تجتمع أطرافها ، ولا تكاد بأى شكل من الأشكال .

لقد أراد العقاد أن يقيم مقاييس مثالية يرتضيها تركيب مزاحه الفكرى « لأناس يتساوون فى السعادة والرضا ، كما يتساوون فى السن والميلاد ، وفى الصحة والفكر ، والقوة والإخلاص والجمال »^(١) وهى صورة الإنسان كما تصوره الأفكار الغربية المثالية المختزنة فى مخيلة الثقافة الغربية منذ (أفلاطون) حتى (نيتشه) ، وهى صورة تتواءم مع تخيلات أصحابها من فلاسفة الغرب ، أى تصح فى تصورهم ، لا فى تصور الإنسان القرآنى . وكما هو معلوم فإن القرآن الكريم ، هو كلى الشريعة الإسلامية التى ارتضاها رب الناس للناس ؛ ولأنه وحى منزل من عند الله ، فلا يوازن بفكر بشرى ؛ ذلك لأن أفكار البشر وتصوراتهم تكون دائماً عرضة للخطأ والانتقاد ، بل والنقض من أساسها .

هذا وقد أغنانا القرآن الكريم عن البحث عن : ما الإنسان ؟ وخلقته والغاية من خلقه ، وكل شىء متعلق بالإنسان فى معاشه ومعاده ، والخصائص التى اختص بها الإنسان دون غيره من المخلوقات .

(١) العقاد . القرن العشرون ص ١٠٢ .

الفصل الثاني

الإنسان كما تحدث عنه العلماء المسلمون

الإنسان كما تحدث عنه العلماء المسلمون

أعان القرآن الكريم علماء المسلمين في بحثهم في الإنسان - فلم يتجاوزوا في التعريف به - فهمهم لآيات القرآن الكريم التي ذكرت الإنسان ، وحتى عندما اختلفوا في كلامهم فيه ، كان اختلافهم حول تساؤلهم : هل يقع التعريف بالإنسان على الجسد دون النفس ، أو النفس دون الجسد ، أو أنه يقع عليهما معا . وكل الذى قال بقول في ذلك إنما أخذه من فهمه لآيات من كتاب الله ، قال ابن حزم الظاهري رحمه الله : « احتجت طائفة بقول الله عز وجل : ﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار ﴾^(١) .

وبقوله تعالى : ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ﴾ خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب ﴾^(٢) .

وبقوله تعالى : ﴿ أيجسب الإنسان أن يترك سدى ﴾ ألم يك نطفة من منى يمى * ثم كان علقة فخلق فسوى ﴾^(٣) .

وهذه الآيات بلا شك صفة للجسد ، لا صفة للنفس ، لأن الروح إنما تنفخ بعد تمام خلق الإنسان ، الذى هو الجسد .

واحتجت الطائفة الأخرى بقوله تعالى : ﴿ إن الإنسان خلق هلوعاً * إذا مسه الشر جزوعاً * وإذا مسه الخير منوعاً ﴾^(٤) .

وهذا بلا خلاف صفة النفس لا صفة للجسد ؛ لأن الجسد موات ، والفعالة هي النفس ، وهي المميّزة الحية ، حاملة لهذه الأخلاق وغيرها .

قال أبو محمد : وكلا هذين الاحتجاجين حق ، وليس أحدهما أولى بالقول من الآخر ، ولا يجوز أن يعارض أحدهما الآخر ؛ لأن كليهما من عند الله ... فنقول في الحى : هذا إنسان ، وهو مشتمل على جسد وروح ، ونقول للميت : هذا إنسان

(٢) الطارق : ٥ - ٧

(١) الرحمن ١٤

(٤) المعارج : ١٩ - ٢١ .

(٣) القيامة : ٣٦ - ٣٨ .

وهو جسد لا نفس فيه ، ونقول : إن الإنسان يعذب قبل يوم القيامة وينعم ، يعنى النفس دون الجسد»^(١) .

وابن حزم يعرف بالكليات ، وكأنه يعظنا بأن هذا الذى يجب على الإنسان أن يعرفه من ذاته وكفى ، أما الأسرار الدقيقة فهى لله ، قال تعالى : ﴿ يسألونك عن الروح قل الروح من أمرى ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾^(٢) .

فعلم الروح من أمر الله ، وأمره تعالى هو علمه وإرادته ، وكله لله وليس من أمر البشر الذين لم يؤتوا من العلم إلا قليلاً ، وهذا القليل علم مادي ، متعلق بالمادة لا بالروح .

ولكن لا بد للإنسان من صفات تميزه على سائر المخلوقات ، وتلك الصفات هى التى جعلته حقيقاً بخلافة الله فى الأرض . وقد أعد إعداداً إلهياً يؤهله لحمل هذه الأمانة .

لقد تحدث علماء المسلمين عن الإنسان من حيث كونه جسماً ونفساً ، وقد تقدم ذكر كلام ابن حزم الظاهري فى ذلك ، ومن كلامه يعرف أن كلامهم فيه عن كونه جسماً ورد فى إشارات قليلة ، ذلك لأن جسم الإنسان ككل الأجسام والأعراض له حدود تحده فى الطول والعرض والعمق والخواص ، ومع أن الأجسام تختلف فى رسم الصور ، وأن كل جسم يمتلك صورته ، بحيث لا يقبل صورة أخرى ، فإن الأجسام بصورها وحدودها وخواصها مباينة للنفس تمام المباينة . فالنفس كما يقول ابن مسكويه : « ليس بجسم ، ولا جزء من جسم ، ولا عرضاً ، وذلك أنه لا يستحيل ولا يتغير ، وأيضاً فإنه يدرك جميع الأشياء بالسوية ، ولا يلحقه فتور ، ولا كلال ولا نقص »^(٣) .

والنفس لا تصير بالمعاني جسماً البتة ، « إذا تصورت الألوان والطعوم والروائح ، لم تتصور بها ، كما تتصور الأجسام ، ولا يمنع بعضها قبول بعض من أضدادها ، كما

(١) ابن حزم : الفصل فى الملل والأهواء والنحل ٥ / ٤١ ، ٤٢ مكتبة السلام ، مصورة عن نسخة ١٣٤٨ هـ . (٢) الإسراء : ٨٥ .

(٣) أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه : تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ، ص ١٣ حققه وشرح غريبه ابن الخطيب - المكتبة المصرية ومطبعها رمضان ١٣٩٨ .

يمنع في الجسم ، بل تقبلها كلها في حالة واحدة بالسواء .

وكذلك حالها في المعقولات فإنها تزداد بكل معقول تحصله قوة على قبول غيره دائماً أبداً بلا نهاية .

« وبالحملة كل ما يحس ويوصل إليه الحس والجسم ، يزداد بهذه الأشياء قوة ، ويستفيد منها تماماً وكلاً ؛ لأنها مادته وأسباب وجوده »^(١) وهذا يبين طباع النفس .

« والنفس وإن كانت تأخذ كثيراً من مبادئ العلوم عن الحواس ، فلها من نفسها مبادئ أخرى ، وأفعال لا تأخذها عن الحواس البتة ، وهي المبادئ الشريفة العالية التي تنبنى عليها القياسات الصحيحة ...

وأيضاً فإن الحواس : تدرك المحسوسات فقط ، وأما النفس فإنها تدرك أسباب الاتفاقات ، وأسباب الاختلافات التي من المحسوسات ، وهي معقولاتها التي لا تستعين عليها بشيء من الجسم ، ولا آثار الجسم »^(٢) .

وقد يشارك الإنسان الحيوانات في بعض القوى والملكات والأفعال ، ولكن هناك أفعال وقوى وملكات إنسانية خالصة « يختص بها من حيث هو إنسان ، وبها تتم إنسانيته وفضائله ، فهي الأمور الإرادية التي بها تتعلق قوة الفكر والتمييز »^(٣) .

والإنسان من بين سائر الموجودات له فعل خاص به ، لا يشاركه فيه غيره ، وهو ما صدر عن قوته المميزة ، فكل من كان تمييزه أصح ، ورويته أصدق ، واختياره أفضل ، كان أكمل في إنسانيته »^(٤) ومن ثم فإن أفضل الناس « من كان أقدر على أفعاله الخاصة وأشد تمسكاً بشرائط حوهره ، الذي تميز به عن الموجودات »^(٥) ومن ثم فإن كل مخلوق يساوى نظيره من جنسه في سائر المخلوقات ، إلا في بنى الإنسان فهناك رجل بألف رجل ، كما أن هناك رجلاً بألف ألف رجل ، كما أن هناك امرأة تفضل كثيراً من الرجال ، فضلاً عن كثير من النساء بنات جنسها ، بالتمييز الصحيح

(٢) نفسه . ص ١٥ .

(٤) نفسه : ص ٢٠ .

(١) نفسه : ص ١٥ .

(٣) نفسه . ص ١٩ .

(٥) ابن مسكويه : تهذيب الأخلاق ص ٢٠ .

والروية الصادقة ، والاختيار الأفضل ، والإرادة القوية ، عن الأعمش عن أبي ظبيان عن سلمان رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ليس شيء خيراً من ألف مثله إلا الإنسان »^(١) .

ولقد أصاب الراغب الأصفهاني إذ قال : « الإنسان مركب من جسم مدرك بالبصر ، ونفس مدركة بالبصيرة »^(٢) وإليهما أشار تعالى : ﴿ إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾^(٣) .

ونفخ الروح هو الذي شرف به الإنسان على سائر خلق الله ، وشرف الإنسان من إضافته تعالى الروح إليه تشريفاً للإنسان ، وتفضيلاً على سائر خلقه ، كما أضاف عبده تشريفاً له ﷺ في آية الإسراء في قوله تعالى : ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا ﴾^(٤) .

وبقدر ما تسمو روح الإنسان ، يشرف صاحبها ، ويتفوق على بني جنسه والدليل على ذلك أن القرآن الكريم أشار إلى الإنسان باعتباره نفساً كله ، بروحه وبدنه قال تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾^(٥) .

وفي مثل قوله تعالى : ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾^(٦) .

وقال تعالى : ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾^(٧) .

(١) الحافظ أبو الشيخ الأصفهاني : الأمثال في الحديث النبوي ص ١٧٣ حديث رقم ١٣٧ ، تحقيق د .

عبد العلي عبد الحميد حامد ، الدار السلفية ناھد الطعة الثانية ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م .

(٢) الراغب الأصفهاني . الدررمة إلى مكارم الشريعة ص ٧٥ ، بشر الصحوة والوفاء .

(٣) الحجر . ٢٨ ، ٢٩ . (٤) الإسراء . ١٠ .

(٥) الأنعام : ٩٣ . (٦) التحريم . ٦ .

(٧) الذاريات : ٢١ .

وقال تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾^(١) .

قال الراغب الأصفهاني : « وهى التى بحصولها [الروح] فى الجسم ، تحصل الحياة والحركة ، والحس والعلم والرأى والتمييز ، ويكون الجسم متصرفاً بها ، وحاملاً ومستحسناً ومستطاباً ومحبباً ، وبفقدها عدم هذه الأشياء ، فيصير جيفة يحتاج إلى عدة تحمله .

وهى محل الأعراض الروحانية ، مثل الجسم فى كونه محلاً للأعراض الجسمانية »^(٢) .

وركب فى البدن من قوى العذاء والحس ، والتحيل والزوع والتفكر ما به يسعد أو يشقى « والإنسان إذا نقصت أفعاله ، وقصرت عما خلق له أعنى أن تكون أفعاله التى تصدر عنه ، وعن رويته غير كاملة أخرى بأن يحط عن مرتبة الإنسانية إلى مرتبة البهيمية »^(٣) وبقدر كمال هذه الصفات يتفوق الإنسان على سائر المخلوقات . وبقدر كمالها أو نقصها يتميز الإنسان عن غيره من بنى جسده ، كما جاء فى حديث رسول الله ﷺ : « ليس شئ خيراً من ألف مثله إلا الإنسان »^(٤) .

وعن سعيد الخزيمى حدثنا سفيان عن معمر ، والزهرى عن سالم عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « الناس كإبل مائة لا توجد فيها راحلة »^(٥) .

والإنسان - بالقوى التى ركت فيه - قادر بإرادته أن يسمو بإنسانيته ، أو يسفل إلى بهيميته ، خاصة وقد منحه الله أدوات الإدراكات جميعاً من أدناها كالإدراكات الحسية التى يستعين بها لإدراك ما يصلح البدن ، وبها يتغذى ويسل ، وأرفعها كالعقل والفكر والتخيل والسمع والبصر ، والقلب الذى جعله الله قوام الجسم كله .

وهذه الإدراكات كلها - وإن تفاوتت فى الأهمية - فلا غناء لأحدها عن الآخر .

(١) فصلت : ٥٣ . (٢) الراغب الأصفهاني الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٧٥

(٣) ابن مسكويه : تهذيب الأخلاق ص ٢١ (٤) الحديث سبق تحريجه .

(٥) الحافظ أبو الشيخ الأصفهاني . الأمثال فى الحديث السوى ص ١٧٠ ، ١٧١ حديث رقم ١٣١ ، ١٣٢ .

والقلب معقلها جميعاً في احتواء القوة المفكرة التي تساعد الإنسان على تبين الهداية إلى سواء السبيل ، في تحصيل العذاء الذى يصلح الحسم ، ويساعد على بقاء النفس ، ودوام النسل ، وكذلك الحصول على قدرات : الفهم والتخيل والتفكر ، ولهذا عبر القرآن على أن العقل هو المدرك لماهية الأشياء ونفعها ، كما عبر بالقلب والقلب أشمل فهو يحتوى على القوى المؤثرة في إدراكات العقل والبدن جميعاً قال تعالى : ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾^(١) .

قال في صفوة التفاسير : « وعبر عن العقل بالقلب لأنه موضعه »^(٢) .

كما قال تعالى : ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾^(٣) .

ذلك لأنه لو تعطل القلب - لتعطت كل القوى المدركة فى الإنسان . ولهذا رأى بعض أعلام فقهاء المسلمين كمالك والشافعى رحمهما الله ، أن العقل فى القلب^(٤) .

ولهذا قال ابن كثير رحمه الله فى تفسير قوله تعالى : ﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ أى لب يعى به ، وقال مجاهد : عقل ، أى استمع الكلام فوعاه ، ونعقله بعقله ، وتفهمه بلبه^(٥) .

لقد منح الله عز وحل هذه القوى المدركة نفسها للحيوان ، ولكن ليسخرها فقط فى الإدراكات الحسية ، كالقلب لتوزيع الدم على الحسم ، لا للفهم ، والأدنين للسمع فقط ، والعين لبصر الأشياء لا غير . وركب فيه غرائز حفظ النوع والنسل والهجوم والدفاع والفرار وغير ذلك .

(١) ق ٣٧ .

(٢) محمد على الصابونى صفوة التفاسير ٣ / ٢٤٧ ، دار القرآن بيروت ١٤٠٢ هـ - ١٩٨١ م .

(٣) الحج ٤٦

(٤) أبو اليزيد العمى هامس الدريرة ص ١٧٧ يقول : والقلب يؤدى وطائف العقل ويتموق عليه بالفقه والعطية - وفى اللسان العقل القلب ولملان قلب عقول ، أى فهم . مادة عقل ٤ / ٣٠٤٦ طبعة المعارف

(٥) اس كثير . تفسيره ٤ / ٢٢٩ مكتبة الدعوة الإسلامية ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

وهذه القوى ذاتها في الإنسان لها إدراكات تباين نظائرها عند الحيوان ، فمن استعملها في مواضعها الصحيحة ، حُمد على ذلك ، ومن قصرت عن ذلك همته ولم تبعه فأهملها كان مدموماً من الله والناس قال تعالى : ﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴾^(١) .

وقال تعالى في دم من لا ينتفع بها : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها وهم أعين لا يبصرون بها وهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾^(٢) .

فأهمية قوى الإدراكات هذه في الإنسان غيرها عند الحيوان ، ولهذا قال تعالى : ﴿ صم بكم عمى فهم لا يعقلون ﴾^(٣) .

قال الراغب الأصفهاني : « أى لا يفهمون المعنى ، لا أنهم لا يسمعون الأصوات ، أو لا يبصرون الدوات ، وجعلهم بكما من حيث إنهم لا يوردون معنى مستنبطاً بالفكر مدركاً بالعقل »^(٤) .

ولهذا بين الفرق بين استعمال الإنسان لأدوات الإدراكات ، واستعمال الحيوان لها . خاصة العقل .

وسواء كان منشأ العقل في القلب ، أو في الدماغ ، فهو أرفع الإدراكات التي سما بها الإنسان على الحيوان ، ولهذا قال الماوردي : « العقل أس الفضائل ، ويبوع الآداب ، جعله الله تعالى للدين أصلاً ، وللدنيا عماداً ، فأوجب التكليف بكماله ، وجعل الدنيا مدبرة بأحكامه ، وألف به بين خلقه ، مع اختلاف همهم ، ومآربهم ، وتباين أغراضهم ومقاصدهم ، وجعل ما تعبدهم به قسمين : قسماً وجب بالعقل فوكده الشرع ، وقسماً جاز في العقل ، فأوجبه الشرع ؛ فكان العقل لهما عماداً ، وروى عن النبي ﷺ أنه قال : « لكل شيء عمل دعامة ، ودعامة عمل المرء عقله » ، فبقدر عقله تكون عبادته لربه أما سمعتم قول الفجار : ﴿ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾^(٥) .

(٢) الأعراف : ١٧٩ .

(١) الحل : ٧٨

(٤) الراغب الأصفهاني : الدريرة ص ٨٠ .

(٣) القرة : ١٧١ .

(٥) الماوردي . أدب الدنيا والدين ص ١٩ . والآية ١٠ من سورة الملك

وبذلك فإن الناس - وإن تساووا في الخلق - يتفاضلون بالتقوى والعمل الصالح والقوة ، وصدق العزيمية ، قال الشاعر :

ولم أر مثل الرجال تفاوتت لدى المجد حتى عد ألف بواحد

بل قد ترى واحداً بعشرة آلاف ، وترى عشرة آلاف دون واحد ، كما قال عليه الصلاة والسلام وهو أصدق الناس قيلاً . عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنما الناس كالإبل المائة لا تكاد تجد فيها راحلة »^(١) « ولفظ الإبل في تعارفهم اسم لمائة بعير ، فمائة إبل هي عشرة آلاف ، بل لو قيل : قد ترى واحداً كعالم ، وعالمًا مثل واحد لجاز »^(٢) .

وكما قال ﷺ في حديث طويل : « فلما كنت عند الباب أتيت بكفة فوضعت فيها ، ووضعت أمتي في كفة فرجحت بها »^(٣) .

وقال تعالى في الذين لا يعقلون : ﴿ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ﴾^(٤) .

وقال عز من قائل : ﴿ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ﴾^(٥) .

والذين لا يعقلون هم شر الدواب . قال تعالى : ﴿ إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون ﴾^(٦) .

وقال تعالى : ﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فم لا يعقلون ﴾^(٧) .

فبدون العقل والتعقل يصير الإنسان كسائر الدواب ﴿ صم بكم عمى فهم لا يعقلون ﴾ « وبالعقل صار الإنسان خليفة الله ، ولو توهم مرتفعاً لارتفعت الفضائل عن العالم فضلاً عن الإنسان ، وبما غرسه الله تعالى منه في الإنسان اهتدى من وفقه

(١) رواه البخارى : اللؤلؤ والمرحان ٣ / ١٨٣ باب رفع الأمانة

(٢) الراعب الأصمهاى : الدريرة ص ٨٨ .

(٣) رواه أحمد فى مسنده ٥ / ٢٩٥ .

(٤) المرقان : ٤٤ (٥) الأنفال : ٢٢ .

(٦) الأنفال : ٥٥ . (٧) القرة : ١٧١ .

الله تعالى إلى تركية نفسه المذكورة في قوله تعالى : ﴿ قد أفلح من زكاهها * وقد خاب من دساها ﴾^(١) وحصل به حرث الآخرة المذكورة في قوله تعالى : ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ﴾^(٢) .

وثمره حرث الآخرة على التفضيل سبعة أشياء : بقاء بلا فناء ، وقدرة بلا عجز ، وعلم بلا جهل ، وغنى بلا فقر ، وأمن بلا خوف ، وراحة بلا شغل ، وعز بلا ذل^(٣) .

ولهذا فإن العلماء يرون أن الإنسان لكي يهتدى إلى الحق يحتاج إلى العقل ، كما يحتاج إلى الوحي ، وبالعقل تعرف صحة دعوة الرسل عليهم السلام ، ولولاه ما لزمتم الحجة على الناس . « ولهذا أحال الله من يشكك في وحدانية الله ، وصحة نبوة أنبيائه على العقل ، فأمره بأن يفرغ إليه في معرفة صحتها . فالعقل قائد والدين مدد ، ولو لم يكن العقل ، لم يكن الدين باقياً ، ولو لم يكن الدين لأصبح العقل حائراً ، واجتماعهما كما قال تعالى : ﴿ نور على نور ﴾^(٤) .

وهذا لا يناقض ما ذهب إليه ابن تيمية رحمه الله من أن الشرع المنزل من عند الله ثابت في نفسه سواء علمناه بعقولنا أم لم نعلمه ، فهو مستغن في نفسه عن علمنا وعقلنا ، ولكن نحن محتاجون إليه ، وإلى أن نعلمه بعقولنا ، فإن العقل إذا علم ما هو عليه الشرع في نفسه صار عالماً به ، وبما تضمنه من الأمور التي يحتاج إليها في دنياه وآخرته ، وانتفع بعلمه به وأعطاه ذلك صفة لم تكن له قبل ذلك ، ولو لم يعلمه لكان جاهلاً ناقصاً^(٥) .

وإذا كان الدين أقوى قاعدة في الأخذ بيد العباد إلى صلاح الدنيا واستقامتها وذلك بالتكاليف الشرعية ، حتى لا يسقطوا حتف أهوائهم ، فإن ذلك لا يكون إلا بكمال العقل . « لأنه بكمال العقل يستدل على صحة الشرع . وقد قال الله تعالى : ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾^(٦) وذلك لا يوجد منه إلا عند كمال عقله ،

(١) الشمس : ٩ ، ١٠ .

(٢) الشورى : ٢٠ .

(٣) الراغب الأصفهاني : الذريعة ص ١٦٨ .

(٤) نفسه ص ٢٠٧ .

(٥) ابن تيمية : تقريب درء تعارض العقل والنقل ص ٦٩ .

(٦) القيامة : ٣٦ .

فثبت أن الدين من أقوى القواعد في صلاح الدنيا ، وهو الفرد الأوحد في صلاح الآخرة ، وما كان به من صلاح الدنيا والآخرة ، فحقيق بالعاقل أن يكون به متمسكاً ، وعليه محافظاً»^(١) .

وعن عائشة رضی الله تعالى عنها : كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ : « اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار »^(٢) .

والإنسان العاقل نزاع إلى الكمال ، ولعل منبع هذا النزوع الدائم فيه من أشرف ما شرفه به خالقه عندما نفخ فيه من روحه . قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سُوِّيْتَهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾^(٣) .

ففي هذه الآيات :

١ - أصل الإنسان من صلصال من طين آسن كريه الرائحة . ولعل الإنسان إذا جنح بشهوته يتردد إليه .

٢ - أن فيه من روح الله ما يسمو به . ويرقى به إذا ارتفع بدينه وزكا بنفسه .

٣ - وفيه أن الله عز شأنه كرم الإنسان العالم العاقل ، فأسجد له الملائكة . فإذا جهل رد إلى أرذل العمر .

وهذا الإنسان الذي أسجد الله له الملائكة - سجود تحية - لا يسجد إلا لله ، وفي ذلك غاية التكريم ، وكال الحرية .

وبذلك « يجد المسلم في أساس كل تحاربه (أنا) يتعرف بنفسه على ذاته ، بوصفه كرامة صادرة عن الله . ويجيا وجوده بالتقاء مباشر مع ذاته ، ويكُون معرفة عنها في الذات تركيز الوعي بالذات ، إذ هي الكينونة الصحيحة للفكر ، وهو يمارس العبادات

(١) الماوردي . أدب الدنيا والدين ص ١٣٦

(٢) رواه البخاري ، كتاب الدعوات ، باب قول النبي ﷺ « ربنا آتنا في الدنيا حسنة . » ٨ / ١٠٣ ورواه مسلم ١٧ / ١٦ كتاب الذكر والدعاء ، باب فصل الدعاء .

(٣) المحرر : ٢٨ - ٣١

والمعاملات ، طبقاً لأصول التشريع الإسلامى»^(١) .

والمسلم الفرد ، وهو يمارس العبادات ، إنما يحمل مسئولية الأداء كاملة ، بلا واسطة من أى سلطان دينى كائناً ما كان ، فلا واسطة فى الإسلام بين المخلوق والخالق إلا عمله ، الذى يُسأل عنه ويجنى ثماره . ابتداءً من النية التى هى أول فروض العمل إلى تمام العمل ، وبذلك يكون كل عمل يعمله المسلم سواء فى العبادات أو المعاملات أو تزكية النفس يكون عبادة ويكون لله تعالى فيه حق ، كما لعامله فيه حق .

إن كل عمل أو قول إقرار يقر به المسلم ابتداءً من الإيمان بالله والإقرار له بالعبودية وحده . ثم أداء العبادات كالصلاة والزكاة والصوم والحج ، وكذا المعاملات فى التجارة ، والسائرَيات مع الآخرين من أفراد الجماعة المسلمة وغير ذلك ، إنما يكتسب صلاحية بالنية الخالصة لله تعالى ؛ روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » .

ذلك لأن المسلم ، وهو يؤدى العبادة ، ويؤدى العمل ، وكذلك وهو يتعامل مع الناس لا يصح عمله إلا بنية صادقة ، وهو يواجه به خالقه . لقوله تعالى : ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾^(٢) .

والمسلم فى كل أحواله يحافظ على دنياه وآخرته ، ويوازن بينهما . قال تعالى : ﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ﴾^(٣) .

وقال تعالى : ﴿ ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ﴾^(٤) . وجاء فى الأثر : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » وكل مسلم مسئول عن عمله سواء كان ظاهراً أو باطناً . وسواء كان مما ينظف النفس ويزكها ، أو مما ينظف البدن .

والمسلمون إنما يحاسبون بأعمالهم المثمرة فلا رهبانية فى الإسلام ، ولا اعتقاد بالخطيئة الأصلية - كما فى النصرانية . قال تعالى : ﴿ قل إن تخفوا ما فى صدوركم

(١) د . محمد عزيز الحبابى : الشخصية الإسلامية ص ٢٥ دار المعارف ١٩٨٣ م .

(٢) الحديد : ٤ . (٣) القصص : ٧٧ . (٤) القصص : ٧٧ .

أو تبدو يعلمه الله ويعلم ما في السموات وما في الأرض والله على كل شيء قدير *
يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها
وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد * قل إن كنتم تحبون الله
فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم * قل أطيعوا الله والرسول
فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين ﴿١﴾ .

قال تعالى : على لسان رسوله ﷺ : ﴿ قل لا أقول لكم عندي خزائن الله
ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي قل هل يستوى
الأعمى والبصير أفلا تتفكرون ﴾ (٢) .

ذلك لأن الرسول بشر يوحى إليه ، ورسول ككل الرسل عليهم السلام . قال
تعالى : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم
على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله
الشاكرين ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد
إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا
اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ (٤) .

وقال تعالى : ﴿ قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من
تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون ﴾ (٥) .

ومن هذه الآيات يستبين قيمة الالتزام الشخصي لكل فرد مسلم - من خلال
الجماعة - قبل خالقه في العبادات . وقبل خالقه في المعاملات .

وتحديد قيمة النفس إنما يكون على أساس أنها ككل ذات فاعلة ملتزمة أمام
خالقها ، بشرط أن تكون مسئولة عن أفعالها ، يقول رب العزة في حديث قدسي :
« يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد
الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » (٦) .

(١) آل عمران : ٢٩ - ٣٢ . (٢) الأنعام : ٥٠ . (٣) آل عمران : ١٤٤ .

(٤) آل عمران : ٦٤ . (٥) الأنعام : ١٣٥ .

(٦) الأحاديث القدسية ١ / ٢٦٤ - ٢٦٥ عن أبي ذر رضى الله عنه .

وفي صحيح مسلم : « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » .
فالمسلم ابتداء بالنية له مقصود من عمله ، يتحمل مسؤوليته كاملة ، ولا يطلب
من غيره أن يتحمل عنه أوزاره .

ومن ثم تتحدد المسؤولية الإسلامية إذ تدور بين طرفين واضحين من الحلال
والحرام . عن النعمان بن بشير رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : « الحلال بين والحرام
بين ، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد
استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعى حول الحمى
يوشك أن يقع فيه . ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن
في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ،
ألا وهى القلب »^(١) .

وكل مسلم راع فيما استرعاه الله لقوله ﷺ : « كلكم راع وكل راع مسئول
عن رعيته » .

والمسلم فى كل أحواله يعمل بوعى كامل ، بعيد عن كل ريبة . عن إبراهيم
ابن يزيد عن عطاء عن حابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « دع ما
يريبك إلى ما لا يريبك »^(٢) .

وترك ما يريب يجعل كل إنسان فاعل مسئول فى كل أحواله وأفعاله قال تعالى .
﴿ قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شىء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا
تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾^(٣) .

والمسلم كلى : العبادة والعمل والقصد ، لا يلعب منه تسيئا من أجل شىء ،
فهو أمام العبادات والمعاملات والقيم الإخلاقية ، التى تزكى النفس سواء . يتجلى
أمامها جميعاً كقوة متوارية ، فيتعلب على غرائزه بتعديلها ، دون الاستغناء عنها ، أو
نبذها ، ويحرر هواه من الجموح والهوى ، إلى السكينة ، والاطمئنان الداخلى .

(١) رواه البخارى ومسلم اللؤلؤ والمرحان ٢ / ١٥٣ - ١٥٤ .

(٢) الحافظ أبو الشيخ الأصفهاني : الأمثال فى الحديث النبوى ص ٧٢ وإسناده ضعيف لوجود إبراهيم بن
يريد ولكن الحديث روى من طرق كثيرة .

(٣) الأنعام . ١٦٤ .

وهو في كل الأحوال مسئول أمام خالقه ، تقوده أعماله إما إلى الجنة ، أو إلى النار ، في شهود ووعي كاملين .

الفصل الثالث

خلق الإنسان في مزاعم الطبيعيين والدهريين

خلق الإنسان في مزاعم الطبيعيين والدهريين

خلق الحياة وخلق الإنسان :

اهتم الإنسان من قديم بقصية الخلق ، وكانت أفكاره ، تدور - في الغالب - حول نشأة الحياة على كوكب الأرض ، الذي استخلف فيه الإنسان واستعمره .

كان السؤال المطروح دائماً : كيف بدأ الخلق ؟ قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها إلا مع الله بل هم قوم يعدلون * أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً إلا مع الله بل أكثرهم لا يعلمون * أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض إلا مع الله قليلاً ما تذكرون * أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته إلا مع الله تعالى عما يشركون * أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض إلا مع الله قل هااتوا برهانكم إن كنتم صادقين * قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يعثون ﴾^(١) .

وكانوا يتساءلون كذلك كيف تطور خلق الإنسان . قال تعالى : ﴿ وقد خلقكم أطواراً ﴾^(٢) .

هذا بيان من القرآن الكريم في خلق الحياة ، وخلق الإنسان . ولكن الطريق الذي سلكه العلماء الماديون ، يخالف تماماً ما جاء في بيان القرآن الكريم .

والإنسان الذي ظل آلاف السنين يبحث عن حقيقة خلقه ، لم يصل إلى أسرارها

(١) البمل : ٦٠ - ٦٥ .

(٢) نوح : ١٤ .

إلا عندما أعانه العلم بوسائله في العصر الحديث ، خاصة وأنه جعل القرآن الكريم حاكماً على كشفه في الخلق .

ولكن ماذا قال الطبيعيون من قديم وحتى العصور الحديثة في خلق الحياة ؟ عندما عجزوا عن معرفة أصل نشأة الإنسان ، ونشأة المخلوقات الأخرى ، اعتقدوا فيما أطلقوا عليه (بالتولد الذاتي للمخلوقات) معتقدين في أن كل الأحياء قد نشأت من تراب الأرض بمعجزة عجز العقل البشرى عن تفسيرها ، وقد وقع في هذا الخطأ من علماء الأمم القديمة في مصر والهند وبابل وغيرهم ، وظل هذا الاعتقاد مسيطراً على الإنسان حتى في أوروبا إلى القرن السابع عشر « ولقد سيطرت فكرة التولد الذاتي ، أو نشأة الحياة من مادة غير حية biogenesis على عقول الناس في بلاد ما بين النهرين ، ومصر القديمة وغيرها »^(١) .

وفي موسوعة (حضارة العراق) قالوا : « شغل العراقيون القدماء بخلق الإله والإنسان ، وناقشوا فكرة الإله والإنسان في ملاحمهم وأساطيرهم التي عدت الإله (أنليل) الخالق للكون والإنسان ، وعد البعض الآخر الإله (انكى) هو الخالق للإنسان ، وعدت مجموعة أخرى (مردوخ) هو الخالق للكون والإنسان والطبيعة التي يرومها حياته ومتطلباتها ، وتعكس كيفية تقديسه للطبيعة من جراء خوفه من عوامل الطبيعة التي سادت في الألف الرابع قبل الميلاد ، وعلى كل حال فإن الملحمة التي صورت طبيعة هذه المرحلة ، كما صورت فكرتهم عن خلق الإنسان تقول :

« عندما بدأ الإنسان يظهر ، ظهر مثل الحشيش من الأرض » .

« وهذه الملحمة تؤكد فكرة السومريين عن أن الإنسان قد ظهر مثلماً يظهر الحشيش من باطن الأرض بذاته »^(٢) .

وكذلك اعتقد المصريون القدماء بأن الضفادع والثعابين والجردان والتماسيح نشأت فجأة من طمى النيل ، كما اعتقد غيرهم بأن الديدان والذباب والخنافس تنشأ هي الأخرى من الأسمدة العضوية ، والقاذورات ، كما أن القمل ينشأ من عرق الإنسان »^(٣) .

(١) د أنور عبد العليم : نشأة الحياة على الأرض ، ص ١٧٢ تراث الإنسانية ، المجلد ٢ ، الجزء ٣

(٢) موسوعة حضارة العراق : ١ / ١٦٦ .

(٣) د . أنور عبد العليم : نشأة الحياة ص ١٧٢ ، المجلد ٢ ، الجزء ٣ .

واعتقد اليونانيون القدماء الاعتقاد نفسه ، فقد رأى أرسطو « أن الأحياء وحتى الفقاريات منها مثل ثعبان البحر مثلاً ، نشأت بالتولد الذاتي من الطين ومواد الأرض »^(١) .

ولقد حاول أرسطو أن يجد تعليلاً منطقياً لمقولته تلك فقال : « إن جميع الكائنات الحية قد خلقت باتحاد مصدرين : هما المادة وهي مصدر غير فعال ، والشكل أو الهيولى ، وعلى ذلك فالمادة في حد ذاتها لا تملك الحياة ، ولكنها قد تأويها وتعتبر لها مستقراً »^(٢) .

ومع هذا فثمة مقولة أخرى سومرية كانت في الألف الرابع قبل الميلاد أى قبل أرسطو بثلاثة آلاف سنة ، في القسم الجنوبي من بلاد ما بين النهرين (العراق) تقول : « إن الإنسان قد خلق من الطين كامل النمو والتطور مرة واحدة »^(٣) « وفيه من حكمة الإله الخالق »^(٤) .

وأيا كانت التفسيرات ، فهناك فرق كبير بين أن يكون تخلق الإنسان بالتولد الذاتي ، وبين أن يخلقه الإله (أنكى) من الطين ، كاملاً متطوراً ، وفيه من حكمة الإله الخالق ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على وجود التوحيد حنباً إلى جنب مع غيره من الديانات الوثنية ... ولهذا تقول الأسطورة : إن الإله (أنكى) خلق الإنسان ليعمل بدلاً من الآلهة . ومما تقول هذه الأسطورة :

« جلب الإله (أنكى) الأيدي وصاغ صدر الإنسان » .

« أنكى الخالق وضع داخل مخلوقه شيئاً من حكمة » .

« ثم نادى على أمه الإلهة (نمو) وقال لها :

« أُمى المخلوق الذى أوجدته اربطى به عمل الآلهة » .

« وبعد أن تخلطى الطين الذى تأخذينه من مياه الآبو » .

(١) د . محمد جمال الفدى ود . محمد يوسف حس : قصة الكون من السديم إلى الإنسان ص ٦٠ كتاب الشعب سنة ١٩٦٨ م .

(٢) د . أنور عبد العليم : المرجع السابق ص ١٧٢ ، المجلد ٢ ، الجزء ٣ .

(٣) حصاره العراق . ١ / ١٦٩ .

(٤) نفسه ١٠ / ١٧٠ .

« عليك أن تصوغى الأعضاء وتكونى الإنسان » .

« أمى قررى مصير الإنسان » .

« فأجابت الإلهة نباح :

« عسى أن يكون العمل مصيره »^(١) .

ماذا قال رجال الكنيسة فى العصور الوسطى فى أوربا :

لم تنج أوربا النصرانية فى العصور الوسطى من تأثير نظرية التولد الذاتى فى أصل الحياة ، وكان من بين الذين تواترت للناس أقوالهم من كبار رجال الكنيسة القديس بازل Sant Bazil والقديس أوغسطين Sant Augustine بأن الأرض قد أخرجت أعشابها وأشجارها وجرادها وحشراتنا وهوامها وطيورها عندما أذن الله لها ، ونهج على منهاجهم القديس توماس الأكوينى Sant Thomas Aquinas وغيره من رجال الكنيسة^(٢) .

ولقد ظلت فكرة التولد الذاتى هذه مسيطرة على العقلية الأوربية حتى القرن السابع عشر الميلادى عندما ظهر العالم الإيطالى فرنسيسكو روى Francesco Roi وكان أول عالم فى هذا الميدان يخضع أفكاره للتجربة ، فقد أجرى تجاربه على حالة نشوء ديدان اللحم من اللحم . وهى مثل ما نراه فى حالة نشوء (ديدان المش) التى منها أطلق المثل الشعبى المصرى (دود المش منه فيه) وقد استطاع هذا العالم أن يثبت بالتجربة أن الديدان لم تنشأ من اللحم ، ولكنها تنشأ من بويضات الذباب الدقيقة التى تقع فى اللحم ، نتيجة لوقوع الذباب عليه^(٣) .

ولكنه ووجه معارضية الذين واجهوه بحقيقة لم يستطع إنكارها ، وأوقع فى حيرة ، بل وكاد أن ينسف بنفسه النتيجة الحاسمة التى وصل إليها ، وذلك بأن ووجه بوجود ديدان فى مخ الأغنام لم تنشأ من بيض الذباب .

غير أن باستير سنة ١٨٢٢ م - ١٨٩٥ م « أثبت أن الميكروبات هى السبب

(١) موسوعة حضارة العراق : ١ / ١٧٣ .

(٢) د . أنور عبد العليم . المصدر السابق ص ١٧٢ .

(٣) د . العمدى ، و د . محمد يوسف حس : قصة الكون ، ص ٨٢ ، وقصة السموات والأرض ص ٦٠ ،

و د . أنور عبد العليم : المصدر السابق : ص ١٧٢ .

في التحلل والتعفن وليست نتيجة له»^(١) .

وعلى كل حال فقد كانت النتائج العلمية الباهرة التي وصل إليها كل من روى وباستير في هذا المجال بمثابة الدليل الذي اهتدى به العلماء في هذا الطريق نفسه .
ولكن في القرن التاسع عشر راج افتراض آخر عن نشأة الحياة على الأرض نتيجة انتقال بذور الحياة إلى الأرض من الكواكب الأخرى ، نادى بهذه الفكرة العالمان الألمانيان ريختر Richter وهيلم هولتز Helm Holtz من بعده فقالا : « إن بذور الحياة انتقلت إلى الأرض مع الشهب والنيازك ، أى مع الرماد الكوي الذي تساقط على سطحها »^(٢) .

ولكن هذا الافتراض قضى عليه بالفشل ، كالفرضيات السابقة عليه ؛ لأن جراثيم الحياة المزعومة في رحلتها الكونية المفترضة لن تسلم من الأشعة فوق البنفسجية القاتلة ، التي تنبعث من الشمس والنجوم الأخرى بغزارة « لوجود الإشعاعات النووية التي تقضى على الحياة في أحزمة طبقات الجو العليا ، ولاحتراق أغلب المواد عند ملامستها لجو الأرض بالاحتكاك »^(٣) .

ولقد جعل فشل هؤلاء العلماء في الاعتقاد الصحيح للأصل السماوي للحياة ، العودة إلى الاعتقاد بنظرية الأصل الأرضي للحياة ، وإن اختلفوا إلى وجهتين في طريقة إثبات صحة نظرياتهم .

كانت الواجهة الأولى : مادية .

والثانية : ميتافيزيقية .

ولم يفتن أولئك وهؤلاء إلى خلق الخالق للحياة .

ولقد رأى أصحاب الواجهة الأولى : أن الحياة عند ظهورها كانت خاضعة لقوانين فيزيقية وكيميائية بحتة .

(١) د . الفندى ، و د . محمد يوسف حسن : قصة الكون ٨٤ وقصة السموات والأرض ٦١ ، و د . أنور عبد العليم ص ١٧٢ .

(٢) د . أنور عبد العليم : تراث الإنسانية ٢ / ٣ / ١٩٧٣ م - و د . الفندى ، د . محمد يوسف حسن . قصة السموات والأرض ص ٦٢ .

(٣) د . أنور عبد العليم : المرجع السابق ٢ / ٣ / ١٩٧٣ م .

أما أصحاب الوجهة الثانية : فقد رأوا خضوع نشأة الحياة لهذه القوانين الفيزيائية والكيميائية . ولكنهم قالوا أيضاً بوجود قوة خالقة توأم بينها حتى يتم الخلق .

وعلى كل حال فالأصح التماس أصل الخالق من عقيدة التوحيد ، ذلك لأن العلم التجريبي وحده عاجز عن تفسير ظواهر كونية لا صلة لها بالمادة البحتة كالروح ، وحدث الحياة من الموات . ولهذا فإن الإيمان حتمي وضروري لمعرفة القوة العليا القادرة على إحداث أشياء تختلف في كنهها عن تراكيب المادة وخواصها .

قال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾^(١) .

وقال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾^(٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾^(٣) .

وعندما يعي الإنسان حقيقة المعاني في هذه الآيات ، سيصل إلى حقيقة كيف بدأ الخلق ، وكيف ارتقى بمشيئة الله وإذنه وقدرته .

ظن الماديين في تطور الخلق وارتقائه :

ظن الماديون أن بدء الخلق كان كائناً دقيقاً ، وحيد الخلية ، حيواناً أو نباتاً ، ثم أخذ في التطور حتى وصل إلى أرقى أنواع المخلوقات وهو الإنسان .

وهذا الاعتقاد اعتقاد قديم ، كان منتشرًا بين شعوب الشرق : بابل وآشور ومصر ، فقد تصوروا أن الإنسان لم يكن إلا كتلة لزجة من المادة لا شكل لها ، ولا صورة . ثم أثرت الطبيعة في تلك المادة ، فتقلبت في أطوار من النشوء والارتقاء ، بلغت في حدها الأخير الصورة البشرية^(٤) .

وثمة فكرة يونانية قديمة أعلنها انكسمندر اليوناني سنة ٦١٠ ق.م تقول : « إن نشأة المخلوقات الحية منسوبة إلى تأثير الشمس في الأرض ، وتمييز العناصر المتجانسة في الحركة الدائمة »^(٥) .

(١) العنكبوت : ٢٠ . (٢) الحج : ٤٦ . (٣) الأنبياء : ٣٠ .

(٤) مقدمة أصل الأنواع لدارون ؛ ص ٣ ترجمة إسماعيل مظهر - مراجعة عبد الحليم منتصر - المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والنشر . د . ت .

(٥) نفسه : ص ٤ .

ومثل هذه الفروض لا تقوم على أساس صحيح من نقل أو عقل ، ولكنه مجرد فروض ظنية من صنع خيال بشرى .

العلماء العرب والتطور :

أولاً : إخوان الصفا :

بينما كانت أوروبا تفكر بطريقة ساذجة فيما يتعلق بخلق الإنسان وتطوره ، كان علماء المسلمين قد قطعوا شوطاً كبيراً من البحث في هذا الميدان ، وقد مهد إخوان الصفا في رسائلهم ، وابن مسكويه في « تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق » ، والراغب الأصفهاني في « تفضيل النشأتين » وفي « الذريعة إلى مكارم الشريعة » . وغيرهم .

لقد سبق هؤلاء العلماء العرب العلماء الأوربيين ، وربما مهدوا لهم في البحث في النشوء والارتقاء ، مع الفارق بين منطلقات العلماء المسلمين في البحث ، والعلماء الغربيين ابتداء من بوفون Buffon الفرنسي (١٧٠٧ - ١٧٨٨ م) ثم مواطنه لامارك سنة ١٨٠٩ م ، الذي يعد أول من أرسى قواعد النظرية التي انتهت بوالاس ودارون عام ١٨٥٩ م ، فكان لظهور نظريتهما بدء الأبحاث التي أقرت مذهب الداروينية ، هذا بصرف النظر عن القيمة العلمية الصحيحة لأبحاث العلماء العرب ، أو العلماء الأوربيين على السواء .

ثم إنه يجب التنبيه إلى أن إخوان الصفا وإن لم تكن لهم القدرة على المعالجة العلمية ، التي ملكها نظراؤهم الغربيون من علماء العصر الحديث ، فإن مراتب الخلق عند إخوان الصفا تبدأ من المادة الجامدة التي لا حياة فيها ، ثم تبدأ الحياة من حيث تنتهى المرتبة العليا من الجماد ، فيبدأ أخس أنواع النبات ، وهى خضراء الدمن ، ويعتقد إخوان الصفا أن خضراء الدمن لا أصل لها ولا بذور ، فهى كما يقولون : « ليست بشيء سوى غبار تلبد على الأرض والصخور والأحجار ، ثم أصابها المطر فتصبح بالفدأة خضراء ، كأنه نبت وحشائش »^(١) .

وهذا القول الذى قال به إخوان الصفا يؤكد استمدادهم من أصحاب فكرة

(١) الرسالة العاشرة من رسائل إخوان الصفا .

التولد الداتي من السومريين والبابليين والآشوريين والمصريين القدماء واليونانيين وغيرهم من أصحاب ثقافات العصور القديمة .

وبعد أحس أنواع النبات - خضراء الدمن - يأخذ النبات في الارتقاء حتى يصل في مملكة النبات إلى أرقاها وأشرفها وهو النخيل ، ولأن النخيل ، أرقى مراتب النبات وأشرفها ، فقد اعتروه أول مراتب الحيوان بزعمهم ، فقالوا : « إن النخيل نبات وحيوان معاً ، لأن بعض أحواله وأفعاله مابين لأحوال النبات ، وإن كان جسماً نباتياً »^(١) .

وربما أوقع إخوان الصفا في هذا القول : الأثر الذي يقول : « أكرموا عمتمكم النخلة فإنها خلقت من فضلة طينة آدم . وليس من الشجر شجرة أكرم على الله من شجرة ولدت تحتها مريم ابنة عمران »^(٢) .

ولأن إخوان الصفا أرادوا وصل سلسلة الخلق ، فقد عدوا النخيل نباتاً حيواناً ، بعضه متصل بعالم النبات ، وبعضه متصل بعالم الحيوان . ثم عدوا أحسن عالم الحيوان وهي دودة الخبز كالنحلة ، بعضها نباتي من حيث ثبوته في الصخر ، وبعضها الخارج عنه حيواني . يقول إخوان الصفا : « فتلك الدودة تخرج نصف شخصها من جوف الصخر ، وتنسبط يمينه ويسرة ، تطلب مادة تغذى بها جسمها ، فإذا أحست رطوبة ولينا انبسطت إليه ، وإن أحست بخشونة أو صلابة انقبضت وغاصت في جوف تلك الأنبوبة حذراً من مؤذ لجسمها ، ومفسد لهيكلها ، وليس لها سمع ولا بصر ، ولا ذوق ولا شم ، إلا ذوق اللمس فحسب ؛ لأن الحكمة الإلهية لم تعط الحيوان عضواً لا يحتاج إليه ، فهذا النوع حيوان نباتي ؛ لأنه ينبت جسمه ، كما ينبت بعض النبات ، ومن أجل أنه لا يتحرك بجسمه حركة اختيارية فهو حيوان ، ومن حيث إنه ليس له إلا حاسة واحدة فهو أنقص الحيوانات رتبة ، وتلك الحاسة أيضاً التي يشاركها النبات فيها ، وذلك لأن النبات له حس اللمس فحسب »^(٣) .

(١) . نفسه

(٢) هذا الأثر ذكره السحاوي في المقاصد الحسنة برقم ١٥٦ صفحة ٧٩ ، وقال . ذكره أبو نعيم في الحلية واللفظ له والرامهرمري في الأمثال . وأبو يعلى في مسنده كلهم من حديث مسرور بن سعيد التميمي عن الأوراعي عن عروة بن رويم عن علي مرفوعاً بهذا ، ومن هذا الوجه أخرج أبو يعلى في مسنده لكن بلفظ . « فإنها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم ، وليس من الشجرة يلقح غيرها » و كذا أخرجه =

(٣) إخوان الصفا . الرسالة العاشرة

ويرى إخوان الصفا - بالطريقة نفسها - أن الارتقاء يسير من أحسن أنواع الحيوان إلى أشرفه .

وإخوان الصفا يتخبطون في وهم الخيال ، وهم يوصلون مراحل الحياة بعضها ببعض - بزعمهم - فأصل الحياة عندهم يأتي من ماء المطر الذي منه كل شيء قال تعالى : ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾^(١) .

ولعلمهم بهذا الحس راموا حقيقة علمية ، فبلغوا بعض الحق فيما ذهبوا إليه من وجود المشاركة بين النباتية والحيوانية في الكائن الواحد ، ويؤكد الدكتور عبد المحسن صالح أستاذ الكائنات الدقيقة هذه المشاركة في بعض الكائنات فيقول :

« لا تستطيع أن تؤكد إن كانت بعض الكائنات الدقيقة تتبع المملكة النباتية ، أو المملكة الحيوانية ؛ لأنها تجمع الصفتين معاً ، - إنها نبات وإها حيوان »^(٢) .

إن الذي اكتشفه عالم الكائنات الدقيقة في القرن العشرين ، يؤكد ما كان لإخوان الصفا من حس علمي . ولولا أن فروضهم يعوزها الدليل العلمي البرهاني لاعتبرت كشفاً علمياً فائقاً . إنهم أرادوا ببساطة أن يعرضوا للحياة على الأرض ، فتوصلوا إلى أن معرفة حياة كل الكائنات واحدة ، ولا يزال هذا الزعم معتبراً من كثير من العلماء يأخذون به حتى الآن فيقولون : « إنها حياة واحدة تحرى على أنماط واحدة ، وراءها مخطط واحد هو مدبر الكون وخالقه ومبدعه عز شأنه ، وملايين الخلايا الكونية كلها

= المستعفري في الطب النبوي وغيره ، وهو عند عثمان الدارمي في الأطحمة بريادة . وأطعموا نساءكم الرطب فإن لم يكن رطب فالتمر ، وهي الشجرة التي برلت مريم ابنة عمران تحتها وفي سده ضعف وانقطاع .

ورواه في كتاب الأمثال في الحديث النبوي وفيه . « وليس من الشجر شجرة أكرم على الله من شجرة نزلت تحتها مريم بنت عمران » حديث رقم ٢٦٢ ، ص ٣١٠ ، وقال محققه : إسناده ضعيف .

وذكره ابن الجوزي في الموضوعات ١ / ١٨٣ ، ١٨٤ ، وقال . هذا حديث لا يصح

وقال الشيخ محمد ناصر الدين الألباني : موضوع

راجع سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعات ١ / ٢٨٣ رقم ٢٦٣

(١) الأنبياء : ٣٠

(٢) د عبد المحسن صالح : هل لك في الكون نقيص ص ١٨٦ ، الهيئة العامة للتأليف والترجمة سنة ١٩٧٠ م .

تقتبس من حياة الجسم الإنساني درجات ، ويأتي النبات ولا تزال الخلية فيه هي الأصل ، وهي الفرد والشجرة والدولة ... إنها الوحدة الشاملة تلاحق الحياة حيثما وجدت على هذه الأرض « (١) .

على أن عملية التطور عند إخوان الصفا لا تقف عند افتراض التفاعل الذاتي في تطور المواد أو ارتقائها ، فهم لم ينكروا تدخل قوة عظمى مؤثرة في هذه العمليات وارتقائها .

وقد يخلو لبعض الماديين المعاصرين أن يجعل إخوان الصفا ماديين طبيعيين ، وهم يفترضون أن يسير التطور وفقاً « لعملية داخلية تسير بنظام مستقل . تتفاعل ذاتياً بآلياتها الداخلية » (٢) وفقاً للتولد الذاتي الارتقائي - المزعوم - من الأدنى إلى الأعلى ، كأن يتولد النبات من المعادن ، ثم الحيوان من النبات على افتراض حتمية حاجة الأعلى إلى الأدنى .

ولكنهم في الحقيقة لم يجردوا فرضيتهم من الأثر الإلهي الماعل فيها ، ذلك لأن كل حركة تحدث في العالم الحادث إنما تكون بقدره الله تعالى .

ولعل تصورهم للتطور خاضع لما يعتقد المسلمون في أن الله وحده كان ولم يكن شيء معه ، تم أحدث العالم ، وكل ما حوى بطن الملك يتحرك بقدرته تعالى .

ثانياً : الراغب الأصفهاني :

ويأتي الراغب الأصفهاني بعد إخوان الصفا ، ولكنه لا يعالج التطور لغاية سامية ، فهو يرى أن التطور والارتقاء لم يكن عبثاً ، أو بلا عاية ، وإنما هو ارتقاء الخلق ، ومن أجل خلق الإنسان ، فهو مقصود الخالق لخلافته في الأرض .

رأى الراغب الأصفهاني أن التطور الذي حدث لكل المخلوقات ، كانت غايته إيجاد مخلوق أسمى من كل المخلوقات ، ذلك هو الإنسان . يقول الراغب : « المقصود من العالم وإيجاده شيئاً بعد شيء ، هو أن يوجد الإنسان فالغرض من الأركان أن يحصل

(١) د أحمد ركي . بحث الخلية الوحدة الصعري التي بى مها كل حى كيانه ص ٥٠ ، مجلة العرى الكويتية عدد ١٨١ ، ديسمبر ١٩٧٣ م

(٢) حسين مروة . الرعات المادية في الفلسفة الإسلامية ٢٠ / ٤٢٣ - دار الفاراني بيروت سنة ١٩٨٥ م .

منها النبات ، ومن النبات أن يحصل الحيوانات ، ومن الحيوانات أن تحصل الأجسام البشرية ، ومن الأجسام البشرية ، أن يحصل منها الأرواح الناطقة ، ومن الأرواح الناطقة أن يحصل منها خلافة الله تعالى في أرضه ، فيتوصل بإيفاء حقها إلى النعيم الأبدى لقوله تعالى : ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾^(١) وجعل تعالى الإنسان سلالة العالم وزبدته ، وهو المخصوص بالكرامة^(٢) لقوله تعالى : ﴿ ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾^(٣) .

فكأن الراغب قال : إن تطوير المخلوقات وتحسينها ، إنما من أجل إعداد الكون لكي يسكنه المخلوق الأسمى ، صاحب المقام الأسنى من بين جميع المخلوقات ذلك هو الإنسان .

ومع هذا فلم ينج الراغب الأصفهاني من أسر الذين سبقوه كإخوان الصفا فقال : « أما الإنسان من حيث ما يتغذى وينسل فنبات ، ومن حيث ما يحس ويتحرك فحيوان ، ومن حيث الصورة التخطيطية فكصورة في جدار »^(٤) .

ولكن في مقالة الراغب على وجازتها تنبيه إلى أن دراسة الإنسان لا يجب أن تقتصر على الجانب الحيواني فيه ، وإن اشترك فيه مع جميع الأحياء ، وإن ما يجب النظر فيه ذلك الجانب الروحي القائم على أسس يستمدّها من عقيدته ، ولهذا فإن إخوان الصفا ، وهم يأخذون بكل أطراف العلوم ، قصروا في معالجتهم للإنسان ، فكانت أفكارهم في النشوء والارتقاء لا تزيد عن كونها درجة من درجات التفلسف ، أما هي عند الأصفهاني فغاية طيبة ؛ ذلك لأن ارتقاء المخلوقات برأيه ليست إلا وسيلة - وأطواراً يمر بها الخلق للوصول إلى حتمية خلق المخلوق صاحب المقام الأسنى بين المخلوقات - أي الإنسان - ذلك المخلوق الجدير بالخلافة والتكريم .

-
- (١) البقرة : ٣٠ .
(٢) الراغب الأصفهاني : تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين ص ٢٤ ، ٢٥ سلسلة الثقافة الإسلامية رقم ٢٨ أبريل ١٩٦١ م .
(٣) الإسراء : ٧٠ .
(٤) الراغب الأصفهاني : الدريرة إلى مكارم الشريعة ص ٨٦ .

ثالثاً : ابن مسكويه :

ويكاد ابن مسكويه يرى في تطور الإنسان وارتقائه في قصد الإنسان تحقيق الكمال، للنوع الإنساني كله بخبراته الإنسانية التي اختص بها من دون المخلوقات كلها ، بملكاتها الكثيرة التي لا يحوزها إنسان واحد؛ « فيتم للجميع بمعاونة الجميع الكمال الإنساني »^(١) « بالحكمة وهي معرفة الأمور الإلهية وتعلمها ، والأمور الإنسانية ، وأن يتعرف المفعولات أيها يجب أن يفعل ، وأيها يجب أن يفعل »^(٢) .

وإن أسمى ما يرمى إليه الإنسان - في رأى ابن مسكويه - هو تحقيق العدل بين الناس ، الذي لا يقدر على تحقيقه مخلوق من بين المخلوقات سوى الإنسان والعدل « فضيلة لا تتحقق للنفس إلا من حيازة الفضائل الثلاث التي لا تتحقق للإنسان وحده دون سائر المخلوقات وهي : الحكمة والعفة والشجاعة . فبالعدالة يحدث للإنسان سمة يختار بها أولاً الإنصاف من نفسه على نفسه أولاً ، ثم الإنصاف والانتصاف من غيره وله »^(٣) .

إذن فالارتقاء عند ابن مسكويه أساسه : « صناعة الأخلاق التي تعنى بتجويد أفعال الإنسان بحسب ما هو إنسان »^(٤) .

ولقد بنى ابن مسكويه أفكاره على فرض التسامى بين الأجسام الطبيعية حتى في النوع الواحد : « فإن الأجسام الطبيعية كلها تشترك في الحد الذي يعمها ، ثم تتفاضل بقبول الآثار الشريفة ، والصور التي تحدث فيها ، فإن الجماد منها إذا قبل صورة مقبولة عند الناس صار بها أفضل من الطينة الأولى التي لا تقبل تلك الصورة ، فإذا بلغ إلى أن يقبل صورة النبات ، صار بزيادة هذه الصورة أفضل من الجماد »^(٥) .

وكما يتفاضل الجماد يتفاضل النبات : « لأن كرام الشجر كالزيتون والرمان

(١) ابن مسكويه : تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ص ٢٣ .

(٢) نفسه : ص ٢٦ .

(٣) نفسه : ص ٢٧ .

(٤) ابن مسكويه المرجع السابق ص ٤٦ ويلاحظ أنه سابق للراغب الأصفهاني ، والراغب لاحق له .

(٥) نفسه : ص ٧٦ .

والكرم وأصناف الفواكه تفوق غيرها من النبات الذى ينبت من غير زرع ولا بذر ، ولا يحفظ نوعه بالثمر والبذر»^(١) .

« والنخل هو أكرم النبات لما يتميز عن غيره من النبات ، عندما يطل فى أفق الحيوان ، بما يتميز به من ذكورة وأنوثة ، ولا يرى بين النخل وبين الحيوان إلا مرتبة واحدة ، وهى الاطلاع من الأرض والسعى إلى الغذاء»^(٢) .

وكحال الجماد والنبات يكون حال الحيوان ، فهو يظل يتفاضل ويحوز الشرف حتى « يحاكي الإنسان من تلقاء نفسه ، ويتشبه به من غير علم كالقروود وما أشبهها ... وأول المراتب من الأفق الإنسانى المتصل بآخر ذلك الأفق الحيوانى ، مراتب الناس من الأعم التى لا تميز عن القروود إلا بمرتبة يسيرة ... وإلى هذا الموضع ينتهى فعل الطبيعة التى وكلها الله عز وجل بالمحسوسات ، ثم يستعد بهذا القبول لاكتساب الفضائل ، واقتنائها بالإرادة والسعى والاجتهاد ، حتى يصل إلى آخر أفقه ، فإذا صار إلى آخر أفقه ، اتصل بأول أفق الملائكة ، وهذا أعلى مراتب الإنسان»^(٣) .

إن التطور - كما استبان من كلامهم - ليس تطوراً عضوياً للأحياء ، أو ارتقاء فحسب ، وإنما هو ارتقاء متواصل للإنسان الذى يخضع لفعل الطبيعة ، والذى يقبل الفضائل باستمرار ، ولقد سار علماء المسلمين على هدى ثقافتهم وفكرهم الدينى ، فأسسوا أفكارهم وواءموا بينها وبين نشأة الكون والحياة عليه ، ولقد سيطر هذا التفكير على نظرهم للأشياء الكونية كلها ، حتى أخضعوا لها طرقاً كثيرة من طرق التعبير عندهم .

يقول الغزالي فى الإحياء : « إن الإنسان من حيث يتغذى وينسل فهو نبات ، ومن حيث يمشى ويتحرك بالاختيار فحيوان ، ولا تتحقق الإنسانية ، بل والملائكية فيه إلا بامتلاك خاصية ؛ وهى معرفة حقائق الأشياء باستعمال جميع أعضائه وقواه ، على وجه الاستعانة بها على العلم والعمل»^(٤) وبقدر عمله بما علم يكون ارتقاؤه غير محدود إلا بحدود ما يحصل عليه من علم مادام يحصل العلم ويعمل بما علم .

(١) نفسه : ص ٧٧ . (٢) نفسه : ص ٧٧ .

(٣) نفسه : ص ٧٩ - ٨٠ .

(٤) الإمام الغزالي الإحياء ٣ / ٩ وهذا الكلام مأخوذ من كلام الراغب فى الدررعة ص ٨٦

لو علمنا أن الإمام الغزالي كان يمهّد بهذا الكلام لاستنباط مسألة فقهية لعلمنا مبلغ اهتمام العلماء المسلمين في شتى المجالات بقيمة العلم والعمل في الارتقاء الإنساني ، وسيطرتهما على قيم الارتقاء في الإنسان .

وربما أعوز العلماء العرب المسلمون في ذلك الوقت أدوات البحوث التجريبية الدقيقة ، كما هو متاح لنظرائهم في العصر الحديث ، إلا أن ذلك لا يقلل من قيمة دورهم وأهميته في السعي للرقى الإنساني ، ومع هذا قد أسسوا قواعد نظرية بدأت ذهنية ؛ لتكون بمثابة خطة علمية دقيقة لنشوء الأحياء وتطورها وارتقائها ، كما جاء عند لامارك ووالاس ودارون ففكرة لامارك ١٨٠٩ م التي رأى فيها : « أن الحياة بدأت من مادة هلامية ، تشكلت وتطورت على مر الأزمنة البعيدة إلى مراتب وفصائل من الكائنات معقدة التركيب »^(١) توافق ما جاء عند إخوان الصفا في مقولتهم عن خضراء الدمن وهي أصل الحياة - بزعمهم - ولا أصل لها « فهي ليست بشيء سوى غبار تلبد على الأرض والصخور والأحجار ، ثم يصيبها المطر فتصبح بالفدأة خضراء كأنه نبت وحشائش »^(٢) .

كذلك يوجد شبه بين ما نادى به لامارك من « أن تطور الأعضاء يتم وفقاً لمقتضيات البيئة وحاجة الحيوان لها »^(٣) وأن الانتخاب الطبيعي في رأى (دارون) يعطى الحيوان صفات نافعة له بالذات ... أما إذا اعترى الحيوان أى تغيير من شأنه أن يضر بتكيفه بالبيئة ، كأن ينقل جسمه في بيئة تحتاج إلى الحركة السريعة والخفة ، أو رقق جلده في بيئة باردة تحتاج لجلد سميك ، فإن هذا الحيوان لا محالة هالك »^(٤) ، وبين ما قال به علماء المسلمين منذ قرون طويلة ، ففي كلام العلماء المسلمين وجوه شبه كبيرة بذلك يقول إخوان الصفا : « إن الحكمة الإلهية لم تعط الحيوان عضوا لا يحتاج إليه »^(٥) ، ويقول ابن مسكويه - في المعنى نفسه - : « فأما أنه لم يعط سلاحا لضعفه عن استعماله ، ولقلة شجاعته ، ونقصان قوته العصبية ، ولأن لو أعطيه

(١) د . أنور عبد العليم . قصة التطور ص ٤١ سلسلة كتب ثقافية .

(٢) الرسالة العاشرة من رسائل إخوان الصفا .

(٣) د . أنور عبد العليم : قصة التطور ص ٤١ .

(٤) د . السيد بدوى : أصل الأنواع لدارون ، تراث الإنسانية ، المجلد ٢ ص ٩٨٨ .

(٥) الرسالة العاشرة لإخوان الصفا

لصار كلا عليه ، فقد أعطى آلة الهرب «^(١) .

ولقد اعتقد كل من ابن مسكويه ، ودارون أن الإنسان لم ينحدر مباشرة من القرد ، ولكن من إنسان أدنى أقل مرتبة من الإنسان المتطور ثم اختار مرحلة تطور فائقة اكتسب فيها العقل «^(٢) .

ويظل الإنسان يرتقى بالعقل والفهم والمعرفة والتوسع فيها ، والتوسل منها ، إلى العلوم الإلهية ، وبذلك يتم ارتقاء الإنسان الذي عبر عنه ابن مسكويه فقال : « وحين إذن تستعد (أيها الإنسان) لقبول مواهب الله عز وجل ، وعطاياه فيأتيك الفيض الإلهي ، فتسكن عن قلق الطبيعة ، وحركاتها نحو الشهوات الحيوانية ، وتلاحظ المرتبة التي ترقيت فيها أولاً فأولاً من مراتب الموجودات » .

« وعلمت أن كل مرتبة منها محتاجة إلى ما قبلها في وجودها ، وعلمت أن الإنسان لا يتم له كماله إلا بعد أن يحصل له ما قبله » .

وإذا صار إنساناً كاملاً ، وبلغ غاية أفقه ، أشرق نور الأفق الأعلى عليه ، وصار إما حكيماً تأتيه الإلهامات ، فيما يتصرف فيه من المحاولات الحكيمة ، والتأييدات العلوية في التصويرات العقلية .

وإما نبياً مؤيداً يأتيه الوحي على ضروب المنازل التي تكون له عند الله تعالى ذكره فيكون حينئذ ، واسطة بين الملائ الأعلى والملائ الأسفل «^(٣) .

وليس في ذلك أدنى مبالغة ففي الحديث القدسي : « وما تقرب إليّ عبدي بتسبيء أحب إليّ مما افترضت عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني عبدي لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت ، وأنا أكره

(١) ابن مسكويه : تهذيب الأخلاق ص ٧٨ .

(٢) ابن مسكويه ص ٧٩ وأنور عبد العليم : قصة التطور ص ٦٩ وإسحق اسيموف . الحقيقة والخيال ص ٣٠٦ ترجمة د . جمال الصدي ، د . حابر عبد الحميد حابر ، دار المعارف مع مؤسسة فرانكلين سنة ١٩٦٢ م .

(٣) ابن مسكويه . تهذيب الأخلاق ص ٨٠ - ٨١ .

مساءته»^(١) .

ولكن ثمة فرقاً جوهرياً بين أصل الأفكار عند المسلمين ، وبينها عند غيرهم من التطوريين ، لقد كانت نقطة الانطلاق عند العلماء المسلمين طلب البرهان على تكريم الإنسان في خلقه وخلقته وارتقائه ، قاصدين في الوقت نفسه الوصول إلى أدلة العلم الاستدلالي ، ليزيد إيمانهم ويطبقون العلم الضروري ، أما الطبيعيون من علماء الأحياء الأوربيين ، فقد راموا العلم الاستدلالي ليقتفوا به باب العلم الضروري ، فشتان بين مقصود كل من الفريقين ، فالفريق الأول : سعى باليقين الإيماني ، أما الفريق الثاني : فإنه سعى لنبذه وتجاهله .

هناك مسافة مذهبية كبيرة بين هؤلاء وهؤلاء ، وهي أن مفكرى الإسلام إلهيون - وسواء وفقوا إلى نتائج علمية حاسمة ، أم لم يوفقوا ، وسواء تقبل أفكارهم أو ترفض من الإسلاميين أو غيرهم «فقد وضعوا نصب أعينهم الوحي ومعطيات الدين ، مع الاستعانة بالعقل والحس في فهم الكون والحياة ، أما مفكرو الغرب وعلماءه فقد انطلقوا في بحوثهم من الحس والمحسوس ولم يعولوا على الغيبي»^(٢) الإلهي .

هذا ولقد أرجع بعض العلماء جذور نظرية التطور الدارونية إلى منظومة طويلة من التطورات السياسية والاقتصادية بدحول العالم الغربي العصر الصناعي ، وما ترتب عليه من تطورات جذرية في بنية المجتمع الغربي حتى قضت سلسلة التطورات على البيئة الاجتماعية ذات الأصول الإقطاعية لكي تحل محلها البيئة الاجتماعية البرجوازية ، فالتطورية البيولوجية التي سبق إليها (سبنسر) و (بوفون) و (لامارك) وغيرهم حتى انتهت إلى (دارون) ، إنما هي حلقات في منظومة التطور العام في العالم الغربي ، وكانت بمثابة متواليات لأفكار سياسية واقتصادية عند (لوك) في القرن السابع عشر ، وتريره للثورة في إنجلترا سنة ١٦٨٨ م ، والتي تمخض عنها إعلان حقوق الإنسان ، الذي برر بعد ذلك قيام الثورة الفرنسية ، ثم كتابات الموسوعيين الفرنسيين أمثال : (ديدرو) و (روسو) و (مونتسكيو) و (فولتير) وغيرهم حتى إعلان الاستقلال الأمريكي .

(١) أحرجه الحارثي ح ٨ / ١٣١ كتاب الدعوات - باب التواضع .

(٢) د . كارم السيد عيم في نقده لكتاب نظرية التطور عند مفكرى الإسلام - دراسة مقارنة ص ٢٩٦ ، مجلة المسلم المعاصر السنة ١٣ العدد ٥١ ، ٥٢ .

وباختصار كان كل ذلك بمثابة « إضفاء الشرعية على اللامساواة »^(١) وإن نادى كلها في الظاهر بأن الناس كلهم متساوون ، وأن من حقهم التمتع بالحرية ، ذلك لأن الإنسان في المفهوم السياسي الغربي ابتداء من (لوك) ١٦٣٢ - ١٧٠٤ م خضع أولاً لقانون الطبيعة ، ثم حدث له تطور اجتماعي جذري وتطور إلى حال : « يفترض فيها على الإنسان أن يكون على بينة من القانون المدني ، ويتحتم عليه حينئذ أن يلتزم في كل تصرفاته حدود هذا القانون »^(٢) .

ثم كانت تطورية (دارون) حلقة كبرى في سلسلة التطور تلك ، لتبرز دور الأيديولوجيات التي تبين اختلاف الناس في أصل اللامساواة في مدرجاتهم الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية ، على أن يكون الدليل على إبراز هذا الدور قائماً على أساس الفروق البيولوجية الأصلية في تكوين الإنسان في حلقات تطوره .

لسنا - ههنا - في مجال الموازنة بين إنجاز علماء المسلمين القدامى ، وإنجاز الغرب في العصر الحديث في علم الارتقاء الحيواني للكائنات - فلكل من العرب المسلمين ، والغرب ظروفهم الخاصة ، وإمكاناتهم وملايسات حياتهم ، ومسار حضارتهم ومقصوده . ذلك بأن المسلمين قصدوا الارتقاء ، وكان مقصودهم من فهم قرآنهم الذي نشد تكريم الإنسان في قوله تعالى : ﴿ ولقد كرّمنا بني آدم ﴾^(٣) أما الآخرون فأنايون لا يرومون إلا مصالحهم الذاتية ، وإن أدى ذلك إلى تدمير غيرهم من بني البشر .

ولكن يبقى شيء هام ظل يؤكد سمو الهدف عند علماء المسلمين ، فارتقاء الإنسان وتطوره عند علماء المسلمين ، إنما هو نشدان تجويد أفعال الإنسان المؤمن بفطرته وحيازته لسائر الفضائل ، أما الهدف عند علماء الغرب فلا يزيد عن كونه رصد مسيرة حيوان نشأ وتطور وارتقى - بزعمهم - إلى مرتبة عليا من مراتب الثدييات أو الفقاريات ، فهم من بدايتهم حتى الدارونية ، لم يهتموا بالإنسان إلا من حيث كونه

(١) روز : علم الأحياء والأيديولوجيا الطبيعية الشرعية ، ص ٢٩١ عالم المعرفة رقم ١٤٨ رمضان سنة ١٤١٠ هـ

(٢) لوك : الحكومة المدنية ص ٥٣ ، سلسلة اخترنا لك رقم ٨١ .

(٣) الإسراء . ٧٠ .

مخلوقاً يعود بنسبه السلالي إلى عالم الحيوان ، دون ما اعتبار إلى الجانب الفكري أو الشعوري أو الخيالي ، لقد كان كل همهم أن يثبتوا نسب الإنسان السلالي إلى أسلافه الحيوانيين الغارقين في أغوار التاريخ .

وكانت النظرية التي صاغها المسلمون قد وضعت في القالب العلمي ، وهي في الثقافة الإسلامية تخضع لكثير من المقولات العقلية ، وللتصورات الدينية التي تتصل اتصالاً مباشراً بالصورة الكريمة للخلق في القرآن ، وعلى رأسها الإنسان ، ولهذا يقول بعض الباحثين : « إن مفكري الإسلام لم يقصدوا التطور الذي قصده (دارون) وإنما قصدوا تبين التدرج في خلق الكائنات بحيث وجدت المعادن أولاً ، ثم وحد النبات ، وبعده الحيوان ، ثم احتل الإنسان أرفع المراتب وأشرفها ، فالترتيب هنا قائم على مبدأ الأفضلية والشرف ، وحتى لو أنطقنا مفكري الإسلام بنظرية (دارون) سيبقى اختلاف آخر بينهم وبينه ، وهو أنه يعتبر الإنسان الديوي غاية مراحل التطور ، ولكنهم يعدون الموت الديوي في النهاية « طورا من أطوار التطور العام ومراحله إلى الحياة الدائمة »^(١) .

وهذا بالتأكيد يخالف العاية التي رامها (دارون) ومن جاء بعده من التطوريين البيولوجيين الاجتماعيين الذين أسسوا للدعاوى الثلاث لحتميتهم البيولوجية المرعومة لتدعيم مجتمع اللامساواة ، وأرجعوا ذلك إلى طبيعة تطور أفراد النوع الإنساني في ثلاث دعاوى وهي :

الأولى : أن أوجه اللامساواة في أي مجتمع هي نتيجة مباشرة لا يمكن تجنبها لوجود فروق بين الأفراد لما جبلوا عليه من جذراتهم وقدراتهم ، ويستطيع أي فرد أن ينجح في الوصول إلى القمة ، لكن وصوله أو عدمه أمر يترتب على القوة أو الضعف الفطريين للإرادة الشخصية .

الثانية : إنه بينما تترتب الأيديولوجية الليبرالية على حتمية ثقافية تؤكد على البيئة والتعليم ، فإن الحتمية البيولوجية تعيد ما يحققه المرء من نجاح وإحفاق في الإرادة والشخصية إلى الشفرة الموجودة في جينات الفرد ، فالحدارة والقدرة تمران من جيل إلى جيل من خلال العائلات .

(١) د كرم السيد عني : المرجع السابق ص ٢٩٨ .

الثالثة : إن وجود هذه الفروق البيولوجية بين الأفراد يؤدي بالضرورة إلى خلق المجتمعات الطبقيّة ؛ لأن تكوين طبقات في الوضع الاجتماعي ، والثروة والسلطة جزء من الطبيعة البشرية المجتمعة بيولوجيا .

وهذه العناصر الثلاثة كلها ضرورية للتبرير الكامل للتنظيمات الاجتماعية الحالية^(١) .

وهكذا أوجد البيولوجيون الاجتماعيون في نظرية دارون مبرراً من وجود الفروق البيولوجية التي زعموا أنها مجتمعة في أفراد الجنس الإنساني تؤدي بطريقة حتمية إلى خلق طبيعة بشرية غير متساوية في المواهب والقدرات ، ومن ثم تكون ذريعة لتبرير الفوارق السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين البشر ، وبين شعب وشعب ، بل بين أفراد المجتمع الواحد الذين تتاح لهم فرص متساوية ويتحركون في مجتمعهم كذرات اجتماعية ، فيرتفعون أو يسفلون كل بحسب قدراته الفطرية المركبة فيه بيولوجيا . وهكذا يزعمون وفقاً لنظريتهم التي هيأت لهم الاعتقاد بمزايا شعوب - كالشعوب البيضاء - وتفوقها على شعوب أخرى ، ومن ثم يتسنى لها طبقاً لهذا المفهوم أن تسود عليها وتسخرها ، وتسلب خيرات أرضها .

لم يكن (دارون) إلا الحلقة الأخيرة في نهاية الحلقات في هذه السلسلة المعقدة التي مهدت لحتمية الصراع التنافسي المعاصر ، اعتماداً على نظرية الانتخاب الطبيعي ، وحتمية الفور للأقوى ، سواء استند على شرعية ، أم استند على قانون الغاب بعد تزيينه وتزييفه .

السياسيون الاجتماعيون مثل (هوبز) وأتباعه ، والدارونيون الاجتماعيون ، يؤكدون على حتمية صراع الكائنات من أجل البقاء ، وأن التنافس بين الكائنات يكون نتيجة تكاثرهم الذاتي ، ومن ثم سعى الأقوى للبقاء ، وفي هذه الحالة يفترض أن تكون البيئة أحد طرفي الصراع « ودارون نفسه ومعظم أتباعه كانوا يؤكدون على الصراع التنافسي بين الكائنات الحية ، ويجب ألا ندهش لذلك فسيطرة مبدأ (الهوبزية) على فكر دارون دليل أيضاً على الأصول (المالتوسية) لكتابه (أصل الأنواع) وعلى انتشار

(١) استيم رور وليون كارم - وريتشارد ليوتس : علم الأحياء والأيدولوجيا الطبيعية البشرية ص ٩٧

٩٨ عالم المعرفة رقم ١٤٨ رمضان ١٤١٠ هـ - أبريل ١٩٩٠ م .

العلاقات التنافسية في المجتمعات ، فقد نقل (دارون) فكرة التنافس من المجتمع إلى البيولوجيا ، وكان (سبنسر) قد صاغ من قبل مصطلح البقاء للأصلح في مؤلفه « ثوابت اجتماعية » عام ١٨٦٢ م .

من الأفضل إذن أن نطلق على الدارونية الاجتماعية بشكلها الذي اتخذته في أواخر القرن التاسع عشر (المذهب السبنسرى) أما تبرير رأسمالية (دعه يعمل) على أساس من النظرية الدارونية ، فقد أكمل الحلقة التاريخية فقط ، وهكذا أصبحت الدارونية تستخدم في أواخر القرن التاسع عشر ، وبدايات القرن العشرين لتدعم عن طريق الاشتقاق الثانوى ، النظرية (الهوبزية - المالتوسية - السبنسرية) التى تقول : إن المجتمع يتقدم ببقاء الأصلح في صراع تنافسى ، والنشاط الذى يحسن استغلال الفرص ، وإخضاع جماعة لأخرى ، وإخضاع الأعراق الدنيا كلها (للأعراق الأعلى) لأنها كلها جزء من الطبيعة البشرية ، يخضع لقانون كلى للبقاء ، ولكن أليس من الغريب أن يصر الدارونيون على ثمة عملية من الارتداد (الاشتقاق اللغوى) والتنظير البيولوجى ، حتى تنطبق الأعراف البشرية الاجتماعية على الحيوانات بصورة استعارية مجازية ، ثم يعاد استقاء السلوك البشرى من الحيوانات ، كما لو أن الأمر حالة خاصة من ظاهرة عامة تم اكتشافها على نحو مستقل فى الأنواع الأخرى «^(١) .

« إن انبعاث الدارونية الاجتماعية فى عصرنا يقوم على قاعدة أن المعتدى الناجح هو الذى يهيمن على المجتمع ، وأن هذه السمة الموروثة لا بد أن ترسخ من يملكها ، فيما يترتب على الضعيف أن يتعلم الرضوح ويعتاده ويتقبله .

إن هذه النظرية تطرح بوصفها دعماً بيولوجياً للمذهب الفردى التنافسى إلا أنها يمكن أن تكون أيضاً نظرية مستندة إليه ، ومشتقة منه ؛ لأن (دارون) اقتبس الفكرة من (مالتوس) الذى ذكر أن الحرب والمرض والمجاعة عملت باستمرار على تقليص فائض السكان ، كما لقي المذهب الفردى التنافسى دعماً اقتصادياً من (آدم سميث) وهكذا كان يوجد مناخ أيديولوجى كان فيه الصراع ، وبقاء الأصلح وظهوره بمثابة مفاهيم تحظى بدرجة كبيرة من القبول ، وأصبحت النظرية بدورها مبرراً للنظام

(١) رور وآخريين : مرجع سابق ص ٣٣٧ - ٣٣٨ - ٣٤٨ .

الاجتماعى ، وشجعت على توسعه وتطوره «^(١) .

وعلى كل حال فإن حقيقة الحلق كما تصوره العلماء والفلاسفة فى الشرق والغرب منذ العصور القديمة حتى عصر العلم الحديث ، لم تكتمل بالصورة التى يقبلها العقل دون أن يتداعى إليه الشك ، ودون أن تنتابه الحيرة ، فالمشكلة الكبرى تتمثل فى أنه لم يوجد عالم استطاع أن يسطر أو يتسنى تفسيراً يوضح سبب التطور ، ونظرية (دارون) لا تسلم من النقد الموجه إليها من الداروينيين أنفسهم ، وإن الآراء الكثيرة التى تحاول أن تصور نشأة الحياة والأحياء على الأرض لا تزيد عن كونها « فروضاً عامة قابلة للتصور ، كما أنها قابلة للنقض ، والمطلوب قلب هذه الآراء إلى فروض عامة ممترة ، تنتج من النتائج الفكرية ما يمكن تحقيقه فى حقل أو معمل ، فهذا هو الإثمار »^(٢) .

العلماء ينظرون إلى نظرية (دارون) بوصفها مجرد افتراض علمى ، لم ترق أبداً إلى مستوى الحقيقة العلمية ، وإن النشويين قد تبنا موقفاً غير علمى فى قبولهم لها ، وهو رفض الإيمان بوجود الخالق لهذا الكون ، وبقدرته وصفاته . ثم هى قد صادفت هوى وقبولاً لدى كثير من الناس لما تنطوى عليه من إيماءات قوية بحيوانية الإنسان «^(٣) وغاب عن هؤلاء وأولئك جميعاً أن الخلق كله لله عز شأنه ، وأن كل ما خلا ذاته سبحانه وتعالى من صنعه ، وقد بين القرآن الكريم ذلك وفصله ، كما بينته السنة الشريفة ، وهو ما يجب أن يلتزم به المؤمن .

الإنسان فى ضوء نظرية دارون :

الإنسان طبقاً لهذه النظرية لا يزيد عن كونه حيواناً ، بل قد يتفوق أى حيوان عليه ، إذا ما حقق نجاحاً تطورياً يفوق تطوره ، أو على حد تعبير البيولوجى الدارونى (جوليان هكسلى) : « إن كل الكائنات الحية الموجودة فى الكون متساوية القيمة ،

(١) حون لويس : الإنسان ذلك الكائن الفريد ص ١٢٢ ، ترجمة د . صالح حواد الكاظم ، سلسلة الألف

كتاب الثانى ، رقم ١٨ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٦ م .

(٢) جيمس كونانت : مواقف حاسمة فى تاريخ العلم ص ٤٠٧ ترجمة د . أحمد زكى - المعارف سنة

١٩٦٣ م .

(٣) د . كارم السيد عيم . المرجع السابق ص ٢٩٧ .

وليست فكرة التقدم إلا فكرة إنسانية ، ومن المسلم به أن الإنسان بمفهوم الدارونية - في الوقت الحاضر فقط - هو سيد المخلوقات ، ولكن قد تحل محله النملة أو الفأر « إذا تجاوز بطورها تطوره وفاقه يوماً ما .

وهكسلي عالم بيولوجي مادي مغرق في المادية ، وداروني أكثر من دارون نفسه ، فهو يرى أن نظرية دارون لم تكتمل بعد ، ولهذا يلتمس لدارون العذر فيزعم أن دارون « كان قادراً على إدراك التطور ، ولكنه لم يستطع رسم الخطة التي يتبعها التطور في مسيرته ، ولقد ترك ذلك لعلماء الأحياء من الأجيال العديدة المقبلة »^(١) .

إن هكسلي يرى الإنسان في إطار هذه النظرية عاجزاً عن تجنب كونه حيواناً فقد « رأى نفسه حيواناً غريباً جداً »^(٢) ومن جهة أخرى فهو لا يرى في القيمة البيولوجية أي تفاضل للإنسان على أي حيوان آخر ، فالإنسان قد نصب نفسه سيداً على هذا الكون ، وقد يكون ثمة تسليم من قبل المخلوقات بذلك ، ولكن إلى متى تستمر هذه السيادة ؟ ذلك هو السؤال الذي أرق هكسلي ، فقد ينتهي التطور على مر الأزمان بنقل هذه السيادة ، وعند ذلك تسلب منه فتحل محله النملة أو الفأر .

ولأن هكسلي مادي مغرق في ماديته ، يرفض الأديان ومعطياتها الطيبة بخلق الإنسان ، ولا يعبأ بالسيادة « التي أنعم بها الله تعالى على الإنسان من قبل الأديان » فقد أراد أن يخلخلها ليضع مكانها ولي نعم آخر ، هو التطور ، فهو الذي منح الإنسان تلك السيادة ، فالجسم الإنساني هو المخلوق الوحيد الذي منحه التطور ، بزعمه مخاً قادراً على التفكير التصويري والتعبير ، وامتلاك قدرة التجميع لعمليات العقل ، ومنها القدرة على التجريد والتحليل ، وتمسكه بتقاليد وموروثات اجتماعية وعقائدية ونحو ذلك .

والفكرة التي أفلقت (جوليان هكسلي) هي : ماذا سوف يحدث للإنسان سيد المخلوقات في المليون سنة القادمة ؟ وهي الفكرة التي أفلقت إخوان الصفا منذ أكثر من ألف عام ، ولكن بتصور آخر ، ولغاية أخرى ، فأفردوا لها أكبر رسائلهم ، وهي الرسالة الحادية والخمسون التي ختموا بها رسائلهم (رسالة الإنسان والحيوان)

(١) جوليان هكسلي . الإنسان في العالم الحديث ص ٢ سلسلة الألف كتاب الأولى د ت .

(٢) نفسه ص ٢٨١ .

ودلّوا بها على جماع فكرهم ، وغاية أهدافهم وهي : أن الحيوان لم يخلق لكي يستعبده الإنسان - على الأقل - من جهة نظر علم الحيوان - ولكن شتان ما بين مقصودهم منه عند (جوليان هكسلي) فقد كان هدفهم أسمى ؛ لأنهم راموا دعوة الإنسان كي يكف عن الاستبداد ، فلا يكون جبلة فيه ، يظلم به البشر أو الحيوان ، ولما لم يقدرُوا على التصريح ، لجأوا إلى الرمز والتلميح ، فسرّدوا كل أفكارهم عن استئناس الإنسان للحيوان والطير ثم استعباده وتسخيرِه بعد استئناسه ، وإذاقته صنوف العذاب ، في محاكمة هي غاية في الرمز والدقة ، والدلالة على المقصود «^(١)» .

أما هكسلي وإن اتخذ الوسيلة نفسها ، وتذرع بنفس الذريعة ، إلا أن غايته كانت بيولوجية صرفة . وإن قال : « إن الحيوانات لم تخلق لخدمة الإنسان ، ولكن الإنسان تطور بصورة مكنته من التخلص من بعض الأنواع المنافسة ، ومن استعباد أنواع أخرى بالاستئناس »^(٢) وهو بذلك لم يفرق بين الإنسان ونملة ودودة .

إدب فآين الإنسان الفذ الذي يُفاضل بينه ، وبين إنسان فرد آخر في النوع الإنساني نفسه ، وإن التفاضل يكون بين إنسان وإنسان بمدى إيمانه وعلمه وعمله بما علم . ومدى الالتزام بأخلاق الجماعة ، وما يؤديه لبنى جنسه في العالم الإنساني كله من خير ومنفعة .

ومهما يكن من أمر ، ومهما قيل ، فإن نظرية التطور ، سواء عند العلماء المسلمين ، أو عند علماء الغرب حتى الداروينيين ، ومحاولة إيجاد التفاسير العلمية لها ، أو التبرير أو الأخذ بها كمسلمة أمر في غاية الصعوبة ، فالمسألة عند هؤلاء جميعاً لا تزيد عن كونها كما من الملاحظات الدقيقة للأنواع وأصولها ، وبعض الافتراضات التصورية التي لا تؤيدها الأدلة القاطعة ، ولا تؤيدها قوانين علمية دقيقة كتلك التي استقرت عليها القوانين الطبيعية والرياضية ، إنها فقط فروض أرسلت بطريقة مقبولة عقلاً ، ولكنها لا يمكن التسليم بها ، وإن ظلت فروضاً تصورية في كل الأحوال ، و (دارون) نفسه لم يقل أكثر من ذلك عندما أعلن نظريته إذ انحصر دوره كما أقر في « جمع المعلومات وترتيبها ، للاستفادة منها في الوقت المناسب »^(٣) وسيظل ما قدمه

(١) الرسالة ٥١ من رسائل إخوان الصفا .

(٢) هكسلي : الإنسان في العالم الحديث ص ٦

(٣) السيد بدوى . أصل الإنسان لدارون ، تراث الإنسانية ، ٢ / ٩٧٧ .

دارون غير كافٍ للثبوت من كل تطورات الحياة منذ آلاف الملايين من السنين . ولهذا رأى العالم البيولوجي (روز) ورفاقه في العمل : « أن مزاعم نظرية دارون تبدو ظاهرياً كأنها نظرية علمية ، ولكنها لا تزيد عن كونها اختباراً منهجياً ، أو سوء تمثيل ، أو استقراء غير سليم للأدلة ، وأنها محملة بالانحياز ، ومنسوجة في نظرية يائسة »^(١) .

وتكاد تكون رؤية (روز) لهذه النظرية كأنها أقرب إلى الأيدولوجيات منها إلى العلم البيولوجي في تفسير التقسيمات »^(٢) لتبرر فوارق طبيعية بين الأعراق والطبقات الاجتماعية ، والشعوب أيضاً .

إن أحداً لا يقلل من قيمة الدور العلمي الذي قام به التطوريون ، ولكن هناك أشياء كثيرة لا يقدرّون على إرغامنا على تصديقها أو قبولها ، ومن ثم فإن الأمر نفسه يضعف موقفهم العلمي ، وعلى سبيل المثال ، قولهم : « لم يطرأ أي تحسن على أعضاء الطيران في الطيور منذ ١٥ مليون سنة (خمسة عشر مليوناً من السنين) أو ٣٠ مليوناً من السنين »^(٣) . فهل تستطيع أدوات العلم مهما تفوقت ، وعقول العلماء مهما تقدمت ، أن تحقق أشياء كهذه بدون سند علمي يرصد تطورها في خلال الثلاثين مليوناً من السنين ، إنها أشياء لا يمكن تصورها ، إلا من حيث هي دات ساجحة في هذا الكون لمخلوقات انقضت دورها منذ عشرات الملايين من السنين !

لقد انتهى الأمر بالتطوريين أنفسهم ، وهم يهتمون نظرياتهم بالتصورات ، خاصة فيما يتعلق بالإنسان ، ووضع اللائق به بين الكائنات ، ومن بين القائلين بهذا القول (نشارلز دارون) الحفيد - حفيد تشارلز دارون صاحب النظرية - « فهو لا يأخذ بقول القائلين : بأن الإنسان حيوان خاضع لقانون تنوع الأنواع ، الذي يحكم على الإنسان بالبقاء بغير تبديل يذكر إلى مدى مليون سنة ، ولو أخذنا بقول القائلين : بأن الإنسان حيوان يسرى عليه ما يسرى على الحيوانات المدجنة ، وهو قول مقرر في شعون الحيوان ، غير أنه لا يؤبه به في الشؤون الإنسانية ، لقضينا على فكرة امتياز الإنسان عن سائر المخلوقات »^(٤) وتفسير وجوده الاجتماعي والبيولوجي .

(١) روز وآخرون . مرجع : سبق ص ١٨٧ .

(٢) نفسه : الصفحة نفسها .

(٣) هكسلي : الإنسان في العالم الحديث ص ٢٨٤

(٤) العقاد . القرن العشرون ، ص ٧١ .

لقد عجز دارون والتطوريون بعده عن تفسير سلوك الأفراد رغم صلاحية نظريتهم لتفسير بعض الجوانب في سلوك البشر ، ولعل أهم ما يوضح ذلك بحث البروفسور إدوارد نلسون الأستاذ بجامعة هارفارد الذي صدر عام ١٩٧٨م والذي يؤكد فيه أن الإنسان نوع متميز منذ بدء الخليقة ، وأن امتيازه متطور في خلاياه ، التي تتضمن صفات خاصة به وحده ، ينقلها إلى أبنائه وأجياله ، وتتطور هذه الخلايا حاملة خصائصه الوراثية تطوراً خاصاً ... ولقد أكد العلم أن الإنسان له صفات خاصة ثابتة لا يلحقها أى تغيير ؛ لأنها صفات تحملها خلاياه الوراثية ، كأنها بصمات أصابع شخص واحد لا تتغير طوال عمره ، وأن المكتشفات الجديدة تضاف إلى تلك الصفات الثابتة ولا تمحوها ^(١) .

وقول الدكتور (إدوارد نلسون) أقرب إلى الصواب ، من أقوال التطوريين ، ولا يتعارض مع البيان القرآني لخلق الإنسان .

ومن نافلة القول فإنه يجمل توضيح أننا لسنا في مجال عمل موازنة بين آيات القرآن التي ذكر فيها خلق الإنسان ، ونظرية التطور ، فلا يستوى الطيب والخبيث .

ومنذ زمن استفتى بعض المسلمين فضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر عن خلق الإنسان في القرآن ، وهل له علاقة بالتطور كما ورد في نظرية (دارون) فقال رحمه الله : « ونظرية التطور التي هي موضوع السؤال ، أو التي يراد بها تطور الإنسان من نوع آخر من أنواع الحيوانات ، بطريق النشوء والارتقاء لم يرفضها علماء الدين تزمناً أو تعسفاً ، وإنما رفضوها على أساس من الدين ونصوصه الواضحة ، وعلى أساس مما قرره الدين في رفض ما لم يدل عليه برهان أو يشهد بصحته حس أو تجربة .

ولقد جاء صريحاً في القرآن الكريم عن خلق الإنسان [آدم أبو البشر عليه السلام] فقال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون ﴾ ^(٢) .
وقال تعالى : ﴿ وإذا قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ ^(٣) .

(١) ورد ضمن مقال على القاضي : الإنسان في ميزان التربية الإسلامية ، ص ١٢٧ مجلة مدار الإسلام - دولة الإمارات السنة ٥ عدد ١ محرم ١٤٠٠ هـ .

(٢) المحرر : ٢٦ . (٣) الحجر : ٢٨ ، ٢٩ .

وفي خلق الإنسان [بنى آدم] قال تعالى : ﴿ إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾ (١)
 وفي تطور خلق الإنسان يقول تعالى : ﴿ يأياها الناس إن كنتم في ريب من البعث
 فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين
 لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا
 أشدكم ﴾ (٢) .

فهذا ونحوه خبر الله الصادق الذي قامت على صدقه المعجزات ، يحدث بأن
 الإنسان خلق نوعاً مستقلاً ، ليس متطوراً عن نوع آخر من أنواع الحيوانات ، أيا كان ذلك
 النوع ، وكيفما كان التشابه بينه وبين الإنسان بطريق الارتقاء عن نوع آخر ، لكان
 الحديث الذي ساقه القرآن عن خلقه حديثاً لا يطابق الحقيقة ، ولا يتفق والواقع ،
 وهو حديث صريح لا يحتمل غير مدلوله المفهوم من عباراته وألفاظه - الوحي وحده
 مصدر العلم بالمسائل الغيبية .

والمسألة بعد مسألة غيبية لا يتناولها الحس ، ولا محل فيها للتجربة ، وليس ثمة
 مقدمات عقلية يصل بها العقل إلى معرفة واقعها ، ومثل هذه المسألة من المسائل التي
 ينحصر مصدر العلم بها في خصوص الخبر الصادق المؤيد بالمعجزات ، الواصل إلى
 الناس من عالم الغيب ، ومكون الأنواع والمخلوقات .

وقد نفى القرآن الكريم أن يكون مبدأ الخلق عامة مما يعلمه الإنسان بنفسه ،
 وما منح من قوى الإدراك قال تعالى : ﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا
 خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً ﴾ (٣) « (٤) .

وخلق الإنسان مركب من حسم مدرك بالبصر ، ونفس مدركة
 بالبصيرة ، وإليهما أشار تعالى بقوله : ﴿ إلى خالق بشراً من طين * فإذا سويته
 ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ (٥) ؛ لأنه بحصول النفس في الجسم
 تحصل الحياة والحركة والعلم والتفكير ، والإدراك والتمييز والإرادة ونحو ذلك من القوى

(١) الحجرات : ١٣ (٢) الحج : ٥٠ (٣) الكهف : ٥١ .
 (٤) الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت . الفتاوى ص ٤٠٢ - ٤٠٤ ، دار الشروق ، الطبعة الثانية عشرة
 . ١٤٠٣ هـ .
 (٥) ص ٧١ - ٧٢ .

المركبة في جسم الإنسان ، وهي الآيات التي تكون معرفتها مقرونة بقدره الله تعالى على الخلق والتكوين .

قال تعالى : ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين * وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾^(١) .

وقال عز من قائل : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾^(٢) .

(١) الذاريات ٢٠ ، ٢١ .

(٢) فصلت : ٥٣ . الراغب الأصفهاني . الدررمة إلى مكارم الشريعة ص ٧٥

الفصل الرابع

خلق الإنسان في القرآن ومقصوده

خلق الإنسان في القرآن ومقصوده

يقول ابن القيم رحمه الله : « الله سبحانه بداته وصفاته الخالق ، وما سواه مخلوق ، وكان الله ولا شيء معه ، فخلق الخلق - أي العالم - ثم صار كل ما سوى الله عالماً ، وكل ما وجوده ليس من ذاته يسبح بحمده »^(١) .

وأخرج البخاري من حديث عمران به حصين أن أهل اليمس قالوا : يا رسول الله جئناك لسفاهة الدين ، ونسألك عن أول هذا الأمر فقال ﷺ : كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء »^(٢) .

وكتب في الذكر كل شيء فلم يكن مع الله أرواح ، ولا نفوس فديمة يساوي وجودها وجوده تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، بل هو الأول وحده لا يشاركه غيره في أوليته بوجه قال تعالى : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾^(٣) وقال تعالى : ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾^(٤) .

صور الله الحسد ، ثم نفخ فيه الروح بعد أن صوره ، فلما دخلت الروح فيه صار لحمًا ودمًا حباً ناطقاً .

وقال ابن القيم كذلك : « والقرآن والحديث والآثار تدل على أنه سبحانه ونعالى نفخ فيه من روحه بعد خلق حسده ، فمن تلك النفخة حدثت فيه الروح ، ولو كانت روحه مخلوقة قل بدنه ، مع حملة أرواح ذريته لما عجت الملائكة من خلقه ، ولما تعجبت من خلق النار ، وقال : لأى سىء حلفها ؟ وهى ترى أرواح بنى آدم ، وفيهم المؤمن والكافر ، والطيب والخبيث »^(٥) بعد أن أخذ عليهم ربهم الحجة والميثاق قال عز من قائل : ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ﴾^(٦) .

(١) ابن القيم : الروح ص ١٤٦ ، مكتبة المتسى بالقاهرة د ت

(٢) صحيح البخارى . كتاب بدء الخلق ٤ / ١٢٨ ، ١٢٩

(٣) الأعراف . ١١ .

(٤) الصافات : ٩٦ (٥) ابن القيم . الروح ص ١٧٣ (٦) الأعراف ١٧٢

« وزاد على من بلغ مهم الحجة بالآيات والدلائل التي نصبها في نفسه ، وفي العالم ، وبالرسل المنفذة إليهم مبشرين ومنذرين ، بالمواعظ المنقولة إليهم أخبارها ، غير أنه عز وجل لا يطالب أحداً منهم من الطاعة إلا بقدر ما لزمه من الحجة ، وركب فيهم من القدرة ، وآتاهم من الأدلة »^(١) .

كذلك بين القرآن الكريم أن القاعدة الجلييلة التي كان عليها الخلق هي تكريم الإنسان قال تعالى : ﴿ ولقد كرّمنا بني آدم وحمّلناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾^(٢) .

والتكريم بصيغة الدوام أي جعلنا لهم دوام الكرامة والفضل أولاً في الخلق ، فقد خلقهم الخالق سبحانه في أحسن تقويم ، أي في الأسفامة وحسن الصورة وسخر لهم البر والبحر والحو ، والحصول على طيبات الرزق ، وهياهم لأن يعملوا بإرادتهم وقصدتهم ، وحسن تدبيرهم ، ثم فصلهم على خلقه بالعقل الذي هو عماد التكليف ، الذي به يعرفون ربهم ، ويصدقون رسلهم ، ويميرون بين الطيب والخبيث ، والكسب وتدبير الكون وحفظه .

كان الخلق من نفس واحدة قال تعالى . ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ﴾^(٣) أي بت تعالى منها سي آدم ففرقهم في الأرض كلها .

وقال تعالى : ﴿ وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفتقرون ﴾^(٤) .

وقال تعالى : ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً * إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً * إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾^(٥) .

إن هذه الآيات الكريمة تين أن قصة خلق الإنسان في القرآن الكريم تخالف متيلتها

(١) اس القيم : الروح ص ١٦٤

(٢) الإسراء : ٧٠ (٣) النساء . ١

(٥) الإنسان ١ - ٣

(٤) الأعمام . ٩٨

عد التطوريين . فبينما يذكر القرآن الكريم أن الله خلق الإنسان مستقلاً من مادة جامدة هي الطين ، ونفخ فيه من روحه فصار بشراً سوياً ، بنى التطوريون نظريتهم على فرض أن الإنسان أصله كائن صدر عن حيوان ثديي لا يختلف عن سائر الثدييات في عالم الحيوان ، ثم تطور فاكسب بعض الصفات التي ميزته عن الحيوانات الأخرى في أزمان طويلة . من خلال تطوره كاستقامة الجسم ، والتمشي على قدمين ، واتساع فراغ الحمجمة ، وغير ذلك من الصفات التي ميزته على غيره من المخلوقات وسودته عليها . إن أكبر وجوه الخلاف بين ما ذكره القرآن الكريم ، ومارعته التطوريون : أنهم رأوا أن الإنسان طور أعلى في تطور الثدييات .

ولكن القرآن الكريم أكد أن الإنسان نوع مخصوص بذاته من الخلق ، ونهى القرآن الكريم أن يكون الإنسان نوعاً منتقى ، أو ارتقى عن نوع آخر من المخلوقات غير نوع الإنسان نفسه ، وهذا ما توضحه الآية الكريمة : ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ .

ولهذا يؤكد القرطبي رحمه الله في تفسيره المعنى المقصود من هذه الآية فيقول : « إن الإنسان لم يكن شيئاً مذكوراً في الخلق ، وإن كان عند الله مذكوراً »^(١) لأنه كان مقصود العالم وعماره « فما يعلم خليفة لله جل ثناؤه خلق بعد الإنسان »^(٢) قال تعالى : ﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ﴾^(٣) وهذا هو خلق آدم أسي السمر ، أما سوه فقد خلقوا أطواراً كما قال تعالى : ﴿ وقد خلقكم أطواراً ﴾^(٤) ﴿ خلقاً من بعد خلق ﴾^(٥) .

أول خلق الإنسان من ماء :

الإنسان متله كمتل كل المخلوقات ، أصله الماء ، وليس الماء المقصود هنا هو (الماء المهين) الذي ورد ذكره في قوله تعالى : ﴿ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴾^(٦) كذلك ليس في قوله تعالى : ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين ﴾^(٧) .

(١) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ص ٦٩١٠ طبعة الشعب

(٢) نفسه الصفحة نفسها (٣) السجدة ٧ (٤) سوح ١٤

(٥) الرمر ٦ (٦) السجدة ٨ (٧) المرسلات ٢٠

كذلك ليس من الماء الدافق الذى ورد فى قوله تعالى : ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ﴾ خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ (١) .

فالماء الدافق ههنا كان طوراً آخراً تالياً من أطوار الخلق ، ولكن الماء المقصود هو ذلك الماء الذى هو أصل الحياة ، الذى جعله الله أصل كل شئ فى قوله تعالى : ﴿ وجعلنا من الماء كل شئ حى ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ وهو الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً ﴾ (٤) .

خلق الإنسان من طين :

وجاء طور خلق الإنسان من طين ، بعد طور خلقه من الماء ، ويفرق القرآن الكريم بين طورين من أطوار الخلق فى الإنسان : طور الخلق من الطين ، وطور الخلق من الماء المهين . فالأول : حاص بالإنسان أبى البشر آدم عليه السلام ، أما الآخر : فهو حاص بالإنسان من سلالة آدم ، فآدم كما صورته القرآن الكريم بدأ خلقه من الطين ، ولو كان للطين درجات بين الليونة واليبوسة فهو طين فى كل الأحوال ، وسواء رمز له بالأرض أو التراب ، أو الطين أو الصلصال أو الفحار ، فكلها مادة واحدة فى حالات مختلفة . قال تعالى : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ (٥) .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ﴾ (٦) .

وقال تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ (٧) .

(٣) البور ٤٥

(٢) الأسياء : ٣٠

(١) الطارق . ٥ - ٧

(٦) الحج . ٥

(٥) طه . ٥٥

(٤) المرقا . ٥٤ .

(٧) الروم ٣٠

- ﴿ والله خلقكم من تراب ﴾^(١) .
- ﴿ هو الذى خلقكم من تراب ﴾^(٢) .
- ﴿ هو الذى خلقكم من طين ﴾^(٣) .
- ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾^(٤) .
- ﴿ فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا إنا خلقناكم من طين لازب ﴾^(٥) .
- ﴿ إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين ﴾^(٦) .
- ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون ﴾^(٧) .
- ﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار ﴾^(٨) .
- ولقد رأى المفسرون أن الإنسان المذكور في هذه الآيات ، هو آدم عليه السلام ، أول مخلوق من البشر ، قال القرطبي رحمه الله: « يعنى خلق أباكم آدم من الطين ، وخرج اللفظ على الجمع »^(٩) .
- والغالب على كلام المفسرين في ذلك ، أنه سبحانه وتعالى أشأ آدم من كل طين الأرض ، على اختلاف هيئتها ، فكان بعضهم أنور من بعض ، وبعضهم أشد سواداً من بعض »^(١٠) .
- وهذا ما نص عليه الإمام القرطبي رحمه الله في تفسيره إذ قال : « خلقهم من سلالة سلب من كل بقعة ، ولذلك اخلفت أخلاقهم »^(١١) وألواهم .
- ولعل اختلاف درجات اللونة والبيوسة في الطين ، يعنى أن الطين ذاته مر بأطوار ، فسلالة الطين نفسه كما رأى بعض المفسرين : « أبها الطين نفسه إذا عصره

(١) فاطر . ١١ (٢) عافر ٦٧ (٣) الأنعام ٢ (٤) المؤمنون . ١٢ (٥) الصافات ١١ (٦) ص ٧١ . (٧) الحجر ٢٦ (٨) الرحمن . ١٤ (٩) القرطبي . الجامع لأحكام القرآن ص ٦٢٧٩ ، طبعة الشعب (١٠) القشيري - تفسير لطائف الإشارات ٤ / ٢٤١ تحقيق د إبراهيم سيوى - دار الكاتب العربى للطباعة والنشر - الطبعة الأولى د ت . (١١) القرطبي - الجامع لأحكام القرآن ص ٤٥٠١ طبعة الشعب

انسبل من بين أصابعك ، فالدى يجرح هو السلالة»^(١) .

إذن فهذا هو الطين الرطب ، ثم كان الطور الثاني ، الصلصال من حمأ مسون قبل أن يسوى بالنار فبصير كالفخار .

كان هذا شأنه عر وحل في حلق آدم من طين . أعد سبحانه مادة الطين ليكون أصل مادة الإنسان ، تم صورته ربه عز وجل في أحسن صورة ، وبث فيه الحياة . قال تعالى : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ﴾ أى صور آدم الذى عسى به الإنسان وأكرمه بالسجود ، وقد اخلف المسرون في تفسير قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ﴾ فقال بعضهم معناه : خلق آدم تم صور بنيه في طهره .

ولكن الطبرى - الذى عُرف بحودة النظر في كتاب الله - رأى أن الخلق والتصوير كانا لآدم عليه السلام فقال قوله : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ﴾ معناه . ولقد خلقنا أباكم آدم تم صورناه ، وإما قلنا هذا القول أولى الأقوال في ذلك بالصواب ؛ لأن الذى سلو ذلك قوله : ﴿ ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ ، ومعلوم أن الله تبارك وتعالى قد أمر الملائكة بالسجود لآدم قل أن تصور دريته في بطون أمهاتهم ، بل قل أن يخلق أمهاتهم»^(٢) تم ورت الأساء صورة أيهم آدم وهو بنسلهم فربط الشكل بالشكل^(٣) .

ويجنهد الطبرى رحمه الله في تعليل أسباب خلق الإنسان من الطين فيقول : « وكان معلوماً أن جوهر الطين . الررانه والأناة ، والحلم والحياء ، والتنت «^(٤) وفوق ذلك الفوة فهو أقوى مواد الأرض . وكذلك قابلية للنت ، أى التفرق والانتشار في كل أركان الأرض .

ولكن الإمام القسبرى رحمه الله ينحى باحنااره من التراب محى تربوياً محاب معناه المادى الحيوى فيقول « خلقهم من سلالة من طين ، والقدر للتربية لا للتربة»^(٥) . وهذا الكلام لا يعارض ما جاء على لسان الطبرى . ولعل القسبرى

(١) نفسه ص ٢٦٠٤

(٢) الطبرى تفسيره بتحقيق محمود شاكر ١٢ / ٣٢١

(٣) نفسه الصفحة نفسها

(٥) القسبرى لطائف الإشارات ٤ / ٢٤١

أبرز لنا القيم الإنسانية السامية في خلق الإنسان ، الذي خلقه ربه ورباه أحسن تربية . كذلك أبرز القشيري إرحمه الله بهذه العبارة استعداد الإنسان للتعلم بفطرته ، وهي قيمة تعلق تكوينه السلالي الذي أشير إلى أنه من الطين فقال : « خلقهم من سلاله من طين . ولكن معدن المعرفة ، ومرقع المحبة ، ومتعلق العناية مه لهم ، قال تعالى : ﴿ يَجِبُ عَلَيْهِمْ وَيَجِبُونَ ﴾^(١) أى أنه سبحانه وتعالى « خلقهم ثم من حال إلى حال نقلهم يغير بهم ما شاء تغييره »^(٢) في الأرض فهم خلفاؤه تعالى فيها .

كانت غاية المفسرين بأقوالهم هذه : أن يبينوا - وهم يفسرون آيات خلق آدم على هذه الصورة - تخطئة إبليس في قياسه الخاطيء ، بتفضيله النار على الطين باستثناء بعضهم مثل القشيري الذي كانت عايته التدليل على أن الإنسان مخلوق كريم على الله لا تجوز موازنته بمخلوق آخر ، وكان على حق فيما ذهب إليه ، ذلك لأن الإنسان هو المخلوق الأمثل الذي صنعه الله بيده ، ومسحه العقل ، وأسند إليه الرسالات ، وحمله الأمانة ، وسخر له الكون بما فيه وجعله عليه سيذا ، ليرتقى به إلى أحسن صورة وأرقاها وأزكاها .

وبعد أن خلق الله سبحانه آدم من تراب ، خلق منه زوجه حواء ليسكن إليها ، وليسل منها ذريته التي هي مقصود العالم وعماره . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾^(٣) وحلقه سبحانه من تراب ؛ لأنه أكثر مواد الأرض فولا للبت ، أى التفرقة والانتشار في الأرض . ومواءمة لكل ما خلق الله ، وقبولاً له .

وهذه الآية تؤكد أن السوع الإنساني نوع مستقل بداهه ، لم يصرع من نوع آخر ، أو ينسل منه ، فهو نوع متميز عن بقية الأنواع ، منذ بدء الخليقة ، وأن امتيازها متطور في خلاياها التي تتضمن صفات خاصة به وحده ينقلها إلى أبنائه وأجياله^(٤) المتعاقبة ، وهو ما قال به علماء العرب المصنفون بعد خمسة عشر قرناً من نزول القرآن الكريم ، وهو ما فهمه علماء السلف مثل القشيري رحمه الله قال : « فيه حكم الحق

(١) المائدة ٥٤ .

(٢) القشيري : لطائف الإشارات ٤ / ٢٤١ .

(٣) النساء : ١ .

(٤) د عبد المحسن صالح لماذا يموت ؟ ص ١٦ ، سلسلة المكتبة الثقافية رقم ١٧٤

سبحانه وتعالى ممساكة الخلق مع الخلق لقاء النسل ، ولرد المثل إلى المثل ، فربط الشكل بالشكل ، فخلق جميع هذا الخلق من سل شخص واحد على اختلاف هيئتهم ، وتفاوت صورهم ، وتباين أخلاقهم»^(١) .

هذا ولما تقدمت العلوم قال العلماء في أسباب خلق الإنسان من طين أقوالاً تنحصر في آيات ثلاث :

الأولى : في قوله تعالى : ﴿ وهو الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً ﴾^(٢) .

الثانية : في قوله تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾^(٣) .

الثالثة : في قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾^(٤) .

ففى الآية الأولى : خلق الإنسان من ماء ، ومن الماء كل شيء حى .
وفى الثانية : خلقه من تراب لستشر فى الأرض . لأن من حواصل التراب الانتشار والتفرق .

وفى الثالثة : خلقه من طين ، والطين مزيج من التراب والماء .

وفى الآيات الثلاث إشاره إلى معدن الأرض الأساسى الذى منه الإنسان ، أى أن أصل الإنسان من خلاصة هذه الأرض ، ومعدنها من سلالة من طين .
ولو أن حسم الإنسان حُلل إلى عناصره الأولية المكونة له ، لوجد أن هذه العناصر هى ذاتها المكونة للطين^(٥) .

(٢) الفرقان : ٥٤

(١) القشيري . لطائف الإشارات ٧ / ٢

(٤) المؤمنون : ١٢

(٣) الروم ٢٠

(٥) قام بعض العلماء بتحليل حسم الإنسان إلى عناصره الأولية فوجدوا فى تركيبه اثنين وعشرين عنصراً تم اكتشافها حتى الآن ، وتتوزع كالاتى

١ - أوكسجين وأيدروجين ، وهما يكوئان الماء ، والماء يؤلف ٦٥ - ٧٠ / من حسم الإنسان

٢ - الكربون والهيدروجين والأوكسجين ، وتؤلف هذه العناصر الثلاثة أساس المركبات العنوية من سكريات ودسم ، وبروتينات ، وفيتامينات ، وهرمونات وأرعمات

٣ - سبع مواد حافة هى الكلور والكبريت والفسفور ، والمغنسيوم والكالسيوم والنوتاسيوم ، والصوديوم وهى =

وكلام المفسرين القدماء لا يتعارض مع كلام العلماء ، ويمكن القول بأن الله تعالى خلق الإنسان من الطين ليتواءم مع البيئة والأرض المستتملة على العناصر المكونة له - وهذا ما يساعد الإنسان دائماً على التأقلم السريع مع جميع بيئات الأرض .
 وثمة قول آخر ، « وهو أن الله سبحانه خلقه من الطين ، لأن الطين معدن القوة والبراعة والحكمة والثبوت »^(١) .

الطور الثاني من خلق الإنسان :

وهذا الطور بدأ في ظهر آدم عليه السلام ، وبصورته انتقل إلى ظهور بنيه من الذكور ، وهو ما بينه الإمام الطبري رحمه الله إذ قال : « خلقهم في ظهر آدم » وأخذ عليهم الميثاق . وقرأ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾^(٢) فكسبهم العقل ، وأخذ عليهم الميثاق .

الطور الثالث من خلق الإنسان :

وهذا الطور هو طور الماء الدافق ، والماء المهين ، ذلك هو الإنسان الذي نسله آدم عليه السلام . قال تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾^(٣) .
 و ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾^(٤) .

وقال تعالى : ﴿ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾^(٥) .
 وقال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجِينَ الذَّكَرَ وَالتَّأُنثَىٰ * مِنْ نَظْفَةٍ إِذَا تَمْنَىٰ ﴾^(٦) .

⁼ تؤولف ٦٠ - ٨٠ / من المواد الحافة في الجسم

٤ - سع مواد أخرى حافة سستها أقل وهي الحديد والسحاس واليود ، والمحير ، والكوبالت والبرك ، والموليدوم

٥ - عناصر أخرى نادرة وعددها ستة . وهذه العناصر داتها ، وهي المكونة للطين

ارجع إلى بحث د عصام حمدي . « القرآن والإعجاز العلمي في خلق الإنسان » ص ٣٤ مشور بمحلة

الجهاد الليبية العدد ٨٤ حمادى الآخرة ١٤١٠ هـ - يناير ١٩٩٠ م

(١) الطبري . تفسيره ١٢ / ٣١٧ بتحقيق محمود شاكر

(٢) الأعراف ١٧٢ . (٣) السجدة ٨

(٤) المرسلات ٢٠ . (٥) الطارق ٦ ، ٧ . (٦) الحم ٤٥ ، ٤٦ .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ
ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ﴾^(١) .

وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾^(٢) .

وقال تعالى . ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ﴾^(٣) .

وقال تعالى : ﴿ أَيْحَسِبِ الْإِنْسَانُ أَن يَتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكْ نَظْفَةً مِّن مَّنًى
يَمْنَى ﴾^(٤) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِّن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا
بَصِيرًا ﴾^(٥) .

وكل هذه الآيات تصور كيف تُسبَل الإنسان في أطوار حلقه حتى جاء إلى الدنيا
بلقاء الذكر والأنثى من مسى الرجل ، الذي يصب ويراق في رحم المرأة . قال
تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * مِّن نُّطْفَةٍ إِذَا تَمْنَى ﴾^(٦) . و ﴿ أَلَمْ
يَكْ نَظْفَةً مِّن مَّنًى يَمْنَى ﴾^(٧) .

القرآن الكريم يصور كيفية اتصال الرجل بالمرأة ليصب في رحمها منه حيث
يهاجم حيوان الرجل الموى ، بويضة الأنثى ، لبسئى حياة جديدة لإنسان جديد .
« وفي الرحم تستقر البويضة الملقحة ، وتصح في هذه الحالة بمثابة كائن طفيلي يسحب
الغذاء من الأم ، كما يسحبه أى طفيلي آحر يسكن الأمعاء ، أو بعض أعضاء خاصة
من الجسم »^(٨) قال تعالى : ﴿ وَنَقَرَ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ
نَخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾^(٩) .

والرحم هو القرار المكين الذي يقر فيه الحين مرة الحمل ، حتى يكتمل فيخرج
إلى الدنيا . قال تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾^(١٠) .

وتصور آيات سورة « المؤمنون » أطوار قصة الخلق كاملة قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ

-
- | | |
|----------------|--|
| (١) الحج ٥ | (٢) المؤمنون ١٣٠ . |
| (٣) فاطر ١١٠ | (٤) القيامة ٣٦ ، ٣٧ . |
| (٥) الإنسان ٩ | (٦) الحم ٤٥ - ٤٦ . |
| (٧) القيامة ٣٧ | (٨) د عبد المحسن صالح لمادا عموت ٩ ص ١٦ سلسلة المكتبة الثقافية رقم ١٧٤ . |
| (٩) الحج ٥ | (١٠) المؤمنون ١٣ |

خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة
علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً
آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴿١﴾ .

والآيات مفصلة لا نحتاج إلى تفسير ، وليس في مقدور المفسرين أن يقدموا لنا
تفصيلات أكثر من ذلك الذي بيّنه القرآن الكريم منذ خمسة عشر قرناً ، وذلك الذي
لم يعرفه الغرب إلا مد عهد قريب ، وكانت معرفة العرب به مرتبطة بتقدم علم
التشريح ، واكتشاف المجاهر ، والخبرة في استعمالها ، كذلك ارتبط بتقدم علم الأحياء
الدقيقة ، وعلم الوراثة ، وعلم الأجنة ، ووظائف الأعضاء ونحوها .

وإذا أضيف إلى الآيات السابقة من سورة « المؤمنون » قوله تعالى : ﴿ ولقد
خلقناكم ثم صورناكم ﴾^(٢) لاستبان للناس أن التصوير يتم بعد تمام الخلق قال تعالى :
﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ﴾ فرتب سبحانه مراتب الخلق بالمرور بأطوار النطفة ،
ثم العلقة فالمضغة ، فرتب حل شأنه هدا كلة أطوار الحين في فرار مكين حريز إلى
وفت الولادة . قال تعالى : ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين * فجعلناه في قرار مكين *
إلى قدر معلوم * فقدركم فنعم القادرون ﴾^(٣) .

كيف يتناسل الإنسان :

لم يكن في مقدور المفسرين أن يقدموا في هذا السبيل فوق ما فهموه من ظاهر
الآيات الكريمة ، فلم يكن لهم من الأدوات ؛ إلا إيمان بالكتاب الكريم ، وفهم
للعربية ، ووعى بما وصلت إليه العلوم الاستدلالية في عصورهم المختلفة .

والآن في عصر العلم ، قدم لنا العلم شروحاً دقيقة لأطوار التناسل موافقة لما
جاء في القرآن الكريم . فأصاف فوائد علمية إلى تلك الفوائد التي جاءت في كتب
المفسرين في العصور السابقة .

تنص الآيات الكريمة ، ويشرح المفسرون ، ويقول العلماء : « يهيئ الله سبحانه

(١) المؤمنون ١٢ - ١٤

(٢) الأعراف ١١٠

(٣) المرسلات ٢٠ - ٢٣

وتعالى الزوجين : الذكر والأنثى للإسنان « فتبدأ فتيات المبيض [البويضات] بالاستعداد ليكون عروس الشهر ، فتكبر في الحجم بشكل ملحوظ وتتكاثر الخلايا المحيطة بها ، وتفرر هرمونا معيناً هو (oestrogen) جزء منه يتبقى داخل البويضة ، والجزء الآخر يمتص ، ويحمله الدم لبقية أحرار الجهاز التناسلي ، خاصة المهبل والرحم والبوقه ، فيحدث فيها تغيرات استعداداً للحفل الموعود^(١) (استقبال الحيوان المنوى) .

ويغزو الحيوان المنوى للذكر بويضة الأنثى التي تكبره آلاف المرات ، وكلاهما لا يسمع ولا يرى ، ولكنه يحس فقط بما يوافق هواه ، فأحاسيس كل من الحيوان المنوى مع البويضة لا يكون إلا لما كان من حسه ، يسعى الحيوان المنوى إلى أنتاه البويضة قبل أن يطمسها أحد قلبه ، ويدخل في غشائها كي يعيش فيه ، فلا يخرج منه أبداً ، ومع هذا فلا يتم هذا إلا بعد تعارف يتم بينهما ، فكل منهما لن يقبل ولوج كائن لا يجانسه ولا يستحيب له ، ولا يبادل له حياً بحب « والواقع أن التفاهم يتم عن طريق الجدار أو الغشاء الرقيق غاية الرقة الذي يحيط بهذه الخلية الجنسية أو تلك ، فكما يعرف الناس بصمات أصابعهم ، أو اختلاف أصواتهم - حتى قبل أن نراهم - كذلك فلكل نوع من أنواع الكائنات الحية بصماته الكيميائية التي جاءت بها جدر حلويات الجنسية أو الجسدية ، بحيث لا تتشابه هذه البصمة بنوع ونوع من ملايين الأنواع التي ظهرت على هذا الكوكب . لكن العلماء يقفون أمام هذه البصمات ، وكأنهم بمثابة أطفال يتعلمون ألف باء شفرة الحياة^(٢) .

وبهذه البصمات الكيميائية تتحالف الكائنات الحية الذكرية ، وتتآلف مع إناث جنسها ، وتختلف مع نظائرها من غير جنسها وتتنافر ، فلو أن الرياح أو النحل متلاً حملت نوعاً من أنواع اللقاح الذكرية ، وهبطت به في مزرعه متنوعه النبات والأرهار لما سمح جسم زهرة لحة لقاح ليست من نوعها بالدخول ، فهي ليست من حسه ، ولا تحمل لغة بصماته وأحاسيسه ، وهكذا يبدأ سريان الحياة ، فالحياة تبدأ من حبة حية واحدة ، هي امتداد للخلية الأولى للحياة ، تلك التي كانت عارقة في بحر العماء .

(١) د عصام حمدي القرآن والإعجاز العلمي ص ٣٤

(٢) د عبد المحسن صالح . لغة الخلايا الحسية - مجلة العربي ص ٩٦ العدد ٢٤٥ أبريل ١٩٧٩ م

إذن فقد نشأت بإذن رها الخلية الأولى المحصبة ، التي ستنشأ منها أول خلايا التكوين في الإنسان ذكراً أو أنثى .

هذا ولقد تبه بعض المفسرين إلى حقيقة هامة يجدر دكرها : وهي أن تحديد نوع الذكورة أو الأنوثة في الجنين إنما يأتي من نطفة الرجل وحده . قال تعالى : ﴿ **وأنه خلق الذكر والأنثى * من نطفة إذا تمنى** ﴾^(١) .

قال القرطبي رحمه الله : « أى من أولاد آدم ، ولم يرد آدم وحواء بأنيهما خلقا من نطفة »^(٢) و ﴿ **إذا تمنى** ﴾ « تصب في الرحم وتراق »^(٣) .

أى فإذا كان أصل الجنين ذكراً أم أنثى فذلك من منى الرجل .

إذن فما دور الأنثى وقد بين القرآن الكريم أن لها دوراً لا يمكن تجاهله قال تعالى : ﴿ **فلينظر الإنسان مما خلق * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب** ﴾ أى من المني المصبوب في الرحم . و ﴿ **يخرج من بين الصلب** ﴾ وهو ظهر الرجل ﴿ **والترائب** ﴾ وهو ما بين تديبي المرأة ، أى من ماء دافق ، هو ماء الرجل وماء المرأة ، لأن الإنسان مخلوق مهما ، لكن جعلهما ماء واحدا لامتزاجهما^(٤) .

والقرطبي رحمه الله لم نقل إلا الصحيح ؛ لأن من أخلاط المائين ، كانت الأمتاج ، فالأصل : الذكورة أو الأنوثة ، ماء الرجل ، ولكن الجنين يرت من أخلاطهما جميعاً ، أى يرت من أخلاط المائين . وإن الذى توصل إليه المفسر القديم إنما هو من فهم أوتيه لكتاب الله الكريم ، الذى بين أن النطفة للرجل فقط ، ذلك بأن المرأة لا تمنى ، وأن نطفة الرجل تحتوى على الزوجين الذكر والأنثى ، ولهذا بين القرآن الكريم أن الزوجين من النطفة ، أى من منى الرجل . قال تعالى : ﴿ **وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى * من نطفة إذا تمنى** ﴾ .

وهذا ما فهمه العرب ورددوه في شعرهم ، قالت شاعرتهم امرأة أبي حمزة الضبي^(٥) :

(١) اللحم ٤٥٠ ، ٤٦

(٢) تفسير القرطبي ٦٢٧٨ - الشع

(٣) نفسه ص ٦٢٨٨

(٤) نفسه ص ٧٠٩٤

(٥) المحاظ البيان والبيان ١ / ١٠٤ - ١٠٥ ، عسى الخلى سنة ١٣٣٢ هـ

ما لأبي حمزة لا يأتينا يظل في البيت الذي يليها
غصبا أن لا بلد البنينا تالله ما ذلك في أيدينا
وإمما نأحد ما أعطينا ونحن كالأرض لزارعينا
نبت ما قد زرعه فينا

إذن فطفة الرجل تحوى على خلايا لها صفة الذكورة ، ومثيلات لها تحمل صفة الأنوثة ، فإذا سقى الحيوان المنوى الذكرى إلى البويضة الكامنة في الرحم كان المولود ذكراً ، وإذا سقى الحيوان المنوى الأنثوى ، كان المولود أنثى .

والتصنيف النوعى ذكراً أو أنثى ، يبدأ من النطفة ، أما التصوير أو تحويل الحلة الواحدة المخصبة إلى ملايين الخلايا التي تشكل الإنسان فهي تبدأ من العلقة ، تلك القطنة الدموية الجامدة العالقة بالرحم قال تعالى : ﴿ ألم يك نطفة من منى يمى * ثم كان علقة فخلق فسوى ﴾^(١) وقال تعالى : ﴿ وهو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء ﴾^(٢) .

قال الطبرى في تفسير هذه الآية : « عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ في قوله ﴿ هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء ﴾ قال : « إذا وقعت النطفة في الأرحام طارت في الجسد أربعين يوماً ، ثم تكون علقة أربعين يوماً . ثم تكون مضغة أربعين يوماً ، فإذا بلغ أن يخلق (يصور) بعن الله ملكاً يصورها ، فيأتى الملك بتراب بين إصبعيه فيخلطه في المضغة يعجنه بها ، ثم يصورها كما يؤمر فيقول . أذكر أو أنثى ؟ أتقى أو سعيد ؟ وما رزقه ؟ وما عمره ؟ وما أثره ؟ وما مصائبه ؟ فيقول الله ، ويكتب الملك فإذا مات ذلك الجسد ، دفن حيث أخذ ذلك التراب . »

« وعن قتادة قوله : ﴿ هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء ﴾ قادر والله ربنا أن يصور عباده في الأرحام كيف يشاء من ذكر أو أنثى ، أو أسود أو أحمر تام خلقه أو غير تام »^(٣) .

(١) القيامة . ٣٧ ، ٣٨ .

(٢) آل عمران : ٦ .

(٣) الطبرى تفسيره ٦ / ١٦٧ ، ١٦٨ بتحقيق محمود شاکر

وهكذا تسير أطوار الخلق كما بينتها الآيات الكريمة . قال تعالى : ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقاراً ﴾ وقد خلقكم أطواراً^(١) وهذه الأطوار هي التي أشار إليها التنزيل الحكيم في سورة (المؤمنون) يقول تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين^(٢) .

وهنا يمكن طرح السؤال التالي : هل مادة الأرض أو التراب أو الطين ، أو الصلصال الذي بدأ الله منها خلق آدم عليه السلام تخص آدم وحده ، أم تخص آدم ودربته .

لقد رأى معظم المفسرين أن آدم خلق من طين خالص ، أما سلالته فهي من قطعة ، أي من منى الرجل ، غير أن بعض المفسرين ومهم الإمامان الطبري والقرطبي ، فقد قالوا « إن آدم خلق من طين خالص ، فأما ولده فمس طين ومسى^(٣) كما هو مبين في قوله تعالى : ﴿ هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء ﴾^(٤) وكذلك في قوله تعالى : ﴿ هو الذي خلقكم من طين ﴾^(٥) .

يقول الطبري رحمه الله : « إذا وقعت النطفة في الأرحام طارت في الجسد أربعين يوماً ، ثم تكون علقة أربعين يوماً ، ثم تكون مضغة أربعين يوماً ، فإذا بلع أن يخلق بع الله ملكاً يصورها ، فيأتي الملك بتراب بن أصبعه فيحلظه في المضغة ثم يعجنه بها ، ثم يصورها كما يؤمر^(٦) .

وهذا الذي رواه الطبري ، قبس منه القرطبي فقال رحمه الله : « هو مبين في قوله تعالى في أول سورة الأنعام ﴿ هو الذي خلقكم من طين ﴾ أي أن تكون النطفة

(١) نوح ١٣ - ١٤ .

(٢) المؤمنون ١٢ - ١٤

(٣) الطبري : تفسيره ٦ / ١٦٧ ، وتفسير القرطبي ٤٥٠١ ، الشعب .

(٤) آل عمران ٦

(٥) الأنعام : ٢ .

(٦) الطبري : تفسيره ٦ / ١٦٧ تحقيق محمود شاكر .

حلفها الله من طين على الحقيقة ، ثم قلبها حتى كان الإنسان منها»^(١) « وعلى هذا يكون كل إنسان مخلوقاً من طين ، وماء مهين»^(٢) .

ليس من قبيل الصدفة البحتة أن تكون الإشارات العلمية في القرآن موافقة لما وصل إليه العلم الحديث . وأن يكون القرآن الكريم حاكماً عليها . قال تعالى : ﴿ هو الذي خلقكم من طين ﴾ أي أن تكون عناصر الطين مكونة للطفة ، أي أن تكون الطففة قد خلقها الله من الطين على الحقيقة ، تم حولها سبحانه وصار حس الإنسان منها . ولا يمكن أن يقال إن المقصود بضمير الجمع هنا آدم ، أو أبناؤه مصورين فيه . وقال تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ﴾^(٣) .

إن الجمع في كل هذه الآيات لا يقتصر على الواحد [آدم] وفي ذلك قال الإمام القشيري رحمه الله : « أثبت الأصل من الطين ، وأودعها عجائب السر ، وأظهر عليها ما لم يظهر على مخلوق ، فالعرة بالوصل لا بالأصل ، فالوصل قرينة ، والأصل تربة»^(٤) .

وحبر ما قيل في هذا الباب ما ورد في كلام ابن حزم الظاهري رحمه الله إذ قال : « والطين هو التراب والماء ، وإما خلق تعالى منه أجسامنا فصح أن منه عنصر أحسامنا»^(٥) .

هذا ما فهمه علماء السلف الكرام من بيان الكتاب المبين ، حتى كانت بداية النصف الثاني من القرن العشرين ففي عام ١٩٥١ م كانت بداية مرحلة حاسمة في تاريخ علم الأجنة ، ففي هذا العام أعلن هارفي Harvy عالم الأجنة المشهور : « أن كل شيء حتى يأتي أولاً من بويضة ، وأن الجنين يتحلق تدريجياً جزءاً من بعد جزء في هذا العصر . في هذا الوقت كان العلم قد أفاد من اختراع المجهر الإلكتروني ، فقد اكتشف العلماء بواسطته : « أن خلايا الإنسان تحتوي على أشرطة دقيقة عاية في الدقة] عرض الشريط يساوي عشرين جزءاً من عشرة ملايين جزء من المليمتر .

(١) القرطبي الجامع لأحكام القرآن ص ٢٣٨٤ الشعب

(٢) نسه ص ٢٣٨٥ (٣) الروم ٦

(٤) القشيري لطائف الإشارات ٢ / ١٥٥ .

(٥) ابن حزم الفصل في الملل والنحل ٣ / ١٣٢

تحتوى على ملايين الأزواج ... أصلها من تراب الأرض]» (١) .

وهذا يوافق قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً ﴾ (٢)

وقال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَظْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ (٣)

وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ ﴾ (٤)

وهذه الخيوط الدقيقة ، أو الأشرطة الدقيقة من وحدات الوراثة جاءت من أمشاج ، أى أخلاط من بين الرجل والمرأة ، تحتوى على صنوف منراصة من وحدات وراثية ، يوجد منها فى الخلية الواحدة آلاف ، بل وعشرات الآلاف من هذه الوحدات الوراثةية ، وكل وحدة وراثية مها تكون بمثابة معلومة مستقلة تورث الكائن صفة محددة ، ومن مجموعها يتكون كل إنسان سوى ويشكل ويصور ، من خلق المدع العظيم» (٥) . وبها يتفق الإنسان فى الجنس والنوع من حيث هو إنسان متميز ، وبها أيضاً يختلف كل إنسان عن بقية بنى جنسه ، فيكون متفرداً فى ملكاته وقدراته ، ونزوعه وميوله ، وإرادته بما يوافق ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً * إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ (٦) .

وهذه الوحدات ، وإن لم تكن كل شىء فى تكوين الخلية ، فهى أهم شىء فيه فهى : « إحدى الجزئيات الوراثةية والبروتينية التى أهمها جراثيمهما أئمن ما فى الحياة وأعقد ما فيها :

أولهما : حامض نووى (نسبة إلى النواة التى يسكنها) اسمه الكيمياى : « حامض دى أوكس ريبو بيوكليك » . واختصاره الاصطلاحى هو : ح.د.ن .

(١) د . عبد المحسن صالح . بحث سبحان من خلق الأرواح كلها ص ٣٢ ، ٣٣ الوعى الإسلامى الكويتية ، عدد فبراير ١٩٧٩ م

(٢) نوح : ١٧

(٣) فاطر : ١١ .

(٤) الروم : ٢٠ .

(٥) د . عبد المحسن صالح . بحث سبحان من خلق الأرواح كلها ص ٣٢ ، ٣٣ الوعى الإسلامى عدد فبراير ١٩٧٩ م

(٦) الإنسان . ٢ ، ٣

وثانيهما : حامض نووى آخر هو : حامض ريبو نيوكليك . واختصاره الاصطلاحى : ح.ر.ن .

ومعنى (دى أو كس) : (ينقص أو كسلجين) أى أن الثانى يحتوى على أو كسلجين ، لا يحتوى علىه الجرىء الأول . فكان لهذه الإضافة سياسة كيميائية حكيمة ، جعلت لهذين الحريئين فى عالمهما الدقيق نظاماً رائعاً بديعاً ، فأصبح (ح.د.ن) بمثابة الباعث ، أو صاحب السلطة العليا فى عالم الخلية ، وهو يمثل الحياة على الأرض ، لأنه يستطيع أن يضاعف نفسه ، أو أن يصنع من ذاته نسخة طبق الأصل تنقل من حلية إلى حلية ، عبر ملايين السنين^(١) .

وهذه الحقائق العلمية الدامغة تهدم كلام النطوربين من أساسه .

الجنين فى ظلمات ثلاث :

بين القرآن الكريم ماذا يحدث لمادة الخلق حتى تصير حياً يتخلق بإذن الله ، وتُصور فى بطن أمه - بصنع الله أحسن الخالقين - فى ظلمات ثلاث ثم يولد ، ثم تتواصل شئون حياته حتى يودع الدنيا .

والذى يعرفه الناس - بواسطة العلماء - أن الرجل يقذف فى رحم أنثاه بملايين من الحيوانات الموية فى دفقة واحدة . قال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجِينَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ * مِنْ نَظْفَةٍ إِذَا تَمْنَىٰ ﴾^(٢) .

وندخل تلك الحيوانات الموية المنبثة من النطفة فى سباق محموم كما تغزو بويضة المرأة وتلتحم بها . وفى نهاية هذا السباق المحموم لا يفوز بهذا الغزو إلا حيوان واحد فقط ، يخترق جدار البويضة ويعشش فى داخلها . قال تعالى : ﴿ وَنَقَرَ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾^(٣) . ثم يصير هذا الحيوان مع البويضة نطفه . قال تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾^(٤) .

(١) موريس بوكاي القرآن والتوراة والإنجيل والعلم ص ٢٣٠ دار المعارف ١٩٧٩ م

(٢) اللحم - ٤٥ ، ٤٦ .

(٣) المحج - ٥ .

(٤) المؤمنون ١٣

وأصل النطفة - بويضة مخصبة - خلية واحدة بنواة واحدة ، ويتحقق استقرار البويضة بالرحم بواسطة امتدادات حقيقية ، كما لو كانت بذوراً تضرب مجدورها في الأرض ، وتهل من جدار الرحم ما يلزم لثوبها ، وهذه الامتدادات هي التي تجعل البويضة تتعلق بالرحم^(١) وتحتوى هذه البويضة المخصبة على صبيبات بعضها من الأب ، وبعضها من الأم . قال تعالى : ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب ﴾^(٢) ومن بين هذه الأجسام الصبعية يوكل اثنان فقط لتحديد جس الجنين ، أما الباقيات فتحمل ميراث البلايين من صفات الجسم غير تحديد الجنس ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج ﴾^(٣) والصبغان الجسيان من نواة الخلية ، إن كانا سيصيران أنتى كانا متشابهين (س س) وإن كانا سيصيران ذكراً كانا مختلفين أحدهما (س) والآخر (ي) .

ثم بعد ذلك تبدأ الخلية في الانقسام ، حتى تصل إلى مئات الآلاف من الخلايا ، تحمل كل خلية في نواتها ما كانت تحمل الخلية الأولى ، وهكذا تكون العلقة ، أى نقطة الدم الجامدة ، العالقة بالرحم ، ثم تصير مضغعة معلقة ، أى بعض أعضائها متناسب نسب الخلق مع ما سيكون عليه الفرد ، ثم تتحول المضغعة إلى عظام ﴿ فجعلنا المضغعة عظماً ﴾ ثم تكسى العظام لحماً : ﴿ فكسونا العظام لحماً ﴾ ثم لا يحدث بعد ذلك إلا النماء في الحجم ، والنضج في الأعضاء ، مع الانتقال إلى حالة جديدة هي السباحة في سائل هين له وهذه التهيئة تشمل تهيئة القرار كى يكون ملائماً لهذا الساكن ، وموائماً لتطور تكوينه داخله ، كما أنه هين كعامل استمرار وبقاء ، حتى يخرج من بطن أمه إلى الحياة الوسيعة ، وكلما ازداد حجم الجنين يأخذ السائل يضيق حول الجنين سبياً ، وذلك في الشهر الرابع ، فتبدأ الحركة والصدام برحم الأم ، ويغتنى من الأم عن طريق المتئيمة حتى الأشهر الأخيرة . قال تعالى : ﴿ ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ﴾^(٤) حيث يولد في الألب عند تمام الشهر التاسع^(٥) .

(١) موريس بوكاى القرآن والتوراة والإنجيل والعلم مرجع سابق

(٢) الطارق ٥ - ٧

(٣) الإسنا ٣

(٤) الحج ٥

(٥) د . حسان حتاحوت مذكرات حين بحث نشر بمجلة العربى الكويتية ص ٧٢ وما بعدها العدد ٢٠٨

مارس ١٩٧٦ م

وهذا ما قرره الآيه الكريمة : ﴿ يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ﴾^(١) أى يصوركم ويركب أحوالكم في ظلمات ثلاث : هى ظلمة الطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة ... من أمشاج متشاكله مختلفه الصور فى الأعضاء ، سحر بعضها محالاً للصفات الحميدة : كالإيمان والعلم والقدرة والإرادة والعمل ، وغير ذلك من أحوال القلوب ، وسحر بعضها محالاً للحواس : كالسمع والبصر والشم وغير ذلك .

ثم برسل الله تعالى إليها الملك فينفخ فيه الروح ففى الصحيحين : من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : « إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون فى ذلك علقه مثل ذلك ، ثم يكون فى ذلك مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الله الملك ، فينفخ فيه الروح ، ويؤمر ربيع كلمات : بكتب رزفه ، وأجله ، وعمله وشقى أو سعيد . فوالله الذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسقى عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى لا يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسقى عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فبدخلها »^(٢) .

قال ابن القيم رحمه الله : « والذى دل عليه الوحي الصادق عن حلو الشر ، أن الخلق ينتقل فى كل أربعين يوماً إلى طور آخر ، فيكون أولاً نطفة أربعين يوماً ، ثم علقه كذلك ، ثم مضغة كذلك ، ثم ينفخ فيه الروح بعد مائة وعشرين يوماً ، كأنك تشاهده عياناً »^(٣) .

(١) الرمر ٦

(٢) الحديث أحرجه الحارثى . كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى . ﴿ ولقد سقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ﴾ ٩ / ١٦٥ - ١٦٦ - طبعة الشعب . ومسند الإمام أحمد عن ابن مسعود رضى الله عنه ١ / ٣٧٤ ، ٣٨٢ . ومسلم فى كتاب القدر ، باب (كيفية خلق آدمى فى بطن أمه) . عن ابن مسعود ١٦ / ١٨٩ كما رواه مسلم عن وكيع وعن حديفة بن أسيد وأبى مالك وجمهرة من الصحابة رضوان الله عليهم ١٦ / ١٨٩ - ١٩٩ واللمط له . وابن ماجة باب فى القدر ١ / ٢٩ من المقدمة وفى الأحاديث القدسية جمعت هذه الأحاديث فى باب ما حاء فى خلق ابن آدم فى بطن أمه عن ابن مسعود وجمع من الصحابة رضوان الله عليهم والأحاديث القدسية ١ / ١٠٧ - ١١٥ طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

(٣) ابن القيم الروح ص ١٧٤ - ١٧٥

ويقول اس الفيم أيضاً : « فالملك وحده يرسل إليه فينمخ فيه الروح ، فإذا نفخ فيه كان ذلك سبب حدوث الروح فيه ، ولم يقل يرسل إليه الملك بالروح فبدخلها في بدنه ، وإنما أرسل إليه الملك فأحرت فيه الروح بنفخه فيه ، لا أن الله سبحانه أرسل إليه الروح التي كانت موحودة قبل ذلك .

أو يرسل إليه بروح مخلوقة قائمه بنفسها مع الملك »^(١) .

والإنسان المخلوق الكامل الذي نفخ فيه الروح ، هو الإنسان الذي أسجد له الملائكة . قال تعالى : ﴿ إِذ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾^(٢) .

ماذا بعد الميلاد ؟ .

إن أطوار خلق الإنسان كما بينها القرآن الكريم لا تتوقف عند هابة الحياة الدنيا للإنسان ، ولكنها تتواصل حتى تتصل بأطوار حياة أبدية فيما بعد الموت في الدنيا . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نَخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَنْ يَرُدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾^(٣)

إن سلسلة التطور في القرآن ممتدة عند الإنسان ابتداءً من النطفة حتى يسير للسرى ، أو يسر للعسرى . قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنِيسِرُهُ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنِيسِرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾^(٤) .

والتطور الإنساني من النطفة إلى الميلاد ، تطور حيوي محض ، لا دخل لإرادة الإنسان فيه ، فهو يسير دائماً إلى الأمام وفق طريق مرسوم . أما تطور الإنسان بعد الميلاد فهو تطور حيوي ، وفكري على السواء . والوجهة الحوية فيه تبيينها الآيات :

(٢) ص ٧١ ، ٧٢ .

(٤) الليل ٥ - ١٠ .

(١) نفسه .

(٣) الحج . ٥ .

١ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مَّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنَبِّئَنَّ لَكُمْ وَنَقُرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يَمُوتُ وَمِنْكُمْ مَّن يَرُدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مَن بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾ (١) .

٢ - ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُمْ مَّن يَمُوتُ مِن قَبْلِ وَلِتَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى وَلِعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٢) .

٣ - ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مَن بَعْدَ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مَن بَعْدَ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ (٣) .

وفي هذه الأطوار لا تتغير صورة الإنسان ، وشكله من مولده حتى مماته ، اللهم إلا ما تحدثه السنون في مراحل العمر السنية المختلفة ، من ضعف ثم قوة ثم ضعف « إن صورة جسد آدم الجسمانية باقية في ذريته إلى يوم الدين عليها يتساوون ، وبها يسمون ، وبها بيعتون ، وبها يؤاحذون ، وإلها يرجعون ، وبها يقومون يوم القيامة ، وبها يعنون ، وبها يدخلون الجنة إن شاء الله » (٤) .

أما الطور غير الحيوي فلإنسان فيه شأن واختيار ، وبه يؤكد كونه حراً مبرداً مختاراً ، وأنه مقصود العالم وعماره ، خلقه ربه في أحسن تقويم ، فهو أكمل المخلوقات هيئة وأجملها ، وأحورهم للصفات الحميدة ، والقدرة الآخذة بأسباب العلم والمعرفة والحياة ، والمالك للملكات التفكير والتمثيل والتعبير ، سحر الكون كله بامتلاكه الآلة وتطويعها لأمره ، فطوع بها المرئى وغير المرئى ، وعالج بها الواضح والغامض ، والسهل والصعب ، وحلل الكل إلى أدق جزئياته ، حتى توصل إلى الجزء الذى لا يتجزأ ولا ينقسم .

وهذا الإنسان الذى سُخر له الكون بإذن الله - إن سار على فطرته التى فطره

(١) الحج . ٥

(٢) عامر ٦٧

(٣) الروم : ٥٤

(٤) رسائل إخوان الصفا : رسالة الإنسان والحيوان ص ١٣٩ مطبعة التقدم بمصر ١٣٣١ هـ - ١٩١٣ م

الله عليها من الاسقامة بالقول والعمل ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والسعى إلى العمل النافع وإلى كل أنواع البر - كان جديراً بقوامته على هذا الكون ، وخلافته لخالقه . وإلا رُدَّ إلى أسفل سافلين ، ليسارك الحيوان في صفات الشهوة والغضب ، وسائر الصفات الحسية ، واللذات البدنية ، فيكون كالأنعام ، فنحط إلى أفق البهائم ، أو إلى أفق التسطان المربد .

لقد كرم الله الإنسان في خلقه ، وأنشأه بعد أن لم يكن قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾^(١) وَبَثَّ فِيهِ جِلَّ شَأْنَهُ مِنْ رُوحِهِ لِيَكُونَ أَعْظَمَ الْمَخْلُوقَاتِ شَأْنًا ، فليُنظَرِ الْإِنْسَانَ « إلى نعمة الله عليه كيف نقله من الذلة والقلّة ، والخسة والقذارة ، إلى هذه الرفعة والكرامة ، فصار موجوداً بعد العدم ، وحيّاً بعد الموت ، وناطقاً بعد الكم ، وبصيراً بعد العمى ، وقوياً بعد الضعف ، وعالماً بعد الجهل ، ومهدياً بعد الضلال ، وقادراً بعد العجز ، وغنياً بعد الفقر ، فكان في ذاته لا شيء ، وأى شيء أحسن من لا شيء ، وأى قلة أقل من العدم . ثم صار بالله شيئاً »^(٢) .

قال تعالى : ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً * إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً * إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾^(٣) .

وحعل منه تعالى شأنه وكأله : الذكر والأنثى فال تعالى : ﴿ فخلق فسوى * فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾^(٤) لينسل ويدوم وجود جنسه ، ليحلف الله في الأرض ويعمرها . وجعل منه مجمع القوى بجملتها ، وجعل عز شأنه « التركيب الإنساني أشرف التراكيب ، ففيه جميع آثار العالم الجسماني والروحاني ، وجعل تراكيب القوى فيه أكمل التراكيب ، فهو مجمع آثار الكونين والعالمين »^(٥) .

(١) الروم ٢٠

(٢) الإمام الغزالي . إحياء علوم الدين ٣ / ٣٤٩ تقديم د . ندوى طابانة ، مصطفى الحلبي ١٩٥٧

(٣) الإنسان ١ ، ٣

(٤) القيامة ٣٨ ، ٣٩

(٥) الشهرستاني . الملل والنحل ٢٠ / ١١٣ ، ١١٤

ولهذا فقد فرض الله سبحانه وتعالى على جميع النوع الإنساني المحافظة على بوعه وإكتاره ، والعمل على إسعاده ورقه ، حتى برقى إلى الكمال الإنساني الذى خلق من أحله ، ويخلف الله عر سأنه فى أرضه .

الخلافة غاية خلق الإنسان :

قال تعالى : ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾^(١) . وقال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾^(٢) إن الغاية هى الخلافة ، والعبادة ، وعمل البر .

نلك هى الفانة من خلق الإنسان ، نوحه إلى الله ، وإحسان إلى خلقه . والعبادة فى هذه الصورة لا نتحقق إلا لسوع واحد من المحلوفات ، ذلك هو الإنسان ؛ لأن الحق عز شأنه خصه بالعقل الراجح ، والفكر الصائب ، والإدراك السليم ، الذى نال به شرف القرى والخلافة ، فقد خلق السموات والأرض وما بينهما ، وكل ما حواه بطس الفلك ومنه الإنسان فى نظام كوني متناسق ، يخضع لقانون الموازنة ، تم خص الإنسان بأن جعله السبد الخليل المسبتر على الكون كله بإذن الله تعالى ؛ وبالععمل الصالح . وبالتفوى وتقدرهما فه يكون فضله على الآحري من ننى جنسه .

قال الراغب الأصفهاني : « الإنسان من حيث هو إنسان كل واحد كالأحر . وإنما شرفه بأنه يوجد كاملاً فى المعنى الذى أوجد لأجله ، وبيان ذلك أن كل نوع أوحده الله تعالى فى هذا العالم ، أو هدى بعض الخلق إلى إيجاد وصعه ، فإنه أوجد لفعل محص به ، ولولاه لما وحد ، وله غرض لأحله خص بما حصّ به . والفعل المختص بالإنسان تلاته أشياء^(٣) :

١ - عمارة الأرض المذكوره فى قوله تعالى : ﴿ واستعمركم فيها ﴾^(٤) وذلك تحصيل ما به تزحبة المعاش لنفسه ولغيره .

(١) القرة ٣٠

(٢) الداريات ٥٦ .

(٣) الراعب الأصفهاني . الدريرة إلى مكارم الشريعة ص ٩٠ ، ٩١ ، ٩٤ .

(٤) هود ٦١

٢ - عبادته المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾^(١) وذلك هو الامتثال للبارى عز وجل في أوامره وبواهيه .

٣ - خلافة المذكورة في قوله تعالى : ﴿ ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون ﴾^(٢) .

والخلافة تسملها جميعاً ، فلا خلافة للإنسان إذا لم يقدر على عمارة الأرض لتوفير معاشه وطعامه الذى يحافظ به على نفسه ، وعلى دوام سبله .

والعبادة التى بها يحرقى مكارم السريعة ، والتفقه قبل العمل ، ولن يستكمل الإنسان مكارم الشرع ، ما لم يقم بوظائف العبادات .

قال تعالى : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾^(٣) .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ﴾^(٤)

أما عماره الأرض ففى قوله تعالى : ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً * الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾^(٥) .

أما من سعى سعيه وهو مؤمن أكرمه الله فى الدنيا والآخرة ، ولأن الله تعالى استحلف الإنسان ، فقد زوده البارى جل شأنه بالعقل والصيرة . حتى لقد علا قدره على قدر الملائكة الذين اعترضوا أول الأمر على هذا الاختصاص ، وقالوا بأن الإنسان قد سزع إلى الفساد فقالوا : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾^(٦) فأجابهم سبحانه وتعالى كما قال الرارى رحمه الله فى تفسيره : « بكونه عالماً ، فلم يجعل سائر صفات الجلال مع القدرة والإرادة والسمع والبصر ، والوجود والعدم ، والاستغناء عن المكان والجهة جواً لهم ، وموجباً لسكوتهم ، وإنما جعل صفة العلم جواباً لهم ، وذلك يدل على أن صفات الجلال والكمال ، وإن كانت بأسرها فى نهاية الشرف ، إلا أن صفة العلم أشرف من غيرها ،

(١) الداريات ٥٦ .

(٢) الأعراف ١٢٩

(٣) الحج . ٧٧ .

(٤) الحل ٩٠

(٥) البقرة ٣٠ .

(٦) الكهف ١٠٣ ، ١٠٤

ثم إنه سبحانه أظهر فضل آدم عليه السلام بالعلم^(١) قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾^(٢) .

وهذا العلم هو الذى أورثه آدم بيه ، وصار ينمو ويتطور ويتقدم حتى اكتشف به الخوارق الطبيعية ، وصنع به المعجزات « حتى صار مستعداً لإدراك حقائق الأشياء ، والاطلاع عليها ، والاشتغال بعبادة الله »^(٣) .

ولولا تلك الفضيلة التى تفوق بها آدم عليه السلام على سائر المخلوقات لما سوّده الله عليها .

إن الله عز شأنه كرم الإنسان بالعلم ، وسخر البر والبحر والجو ، وفضله على سائر خلقه ، ومنحه أكبر نعمة إذ جعله خليفة فى الأرض . وجعله عز شأنه مسجود الملائكة وخليفة العالم . قال الراوى : « فأكبر النعم سجود الملائكة لآدم ، وذلك لأنه تعالى ذكر تخصيص آدم بالخلافة أولاً . ثم تخصيصه بالعلم الكثير ثانياً ، ثم بلوغه فى العلم إلى أن صارت الملائكة عاجزين عن بلوغ درجته فيه »^(٤) وقدرته على حمل الأمانة ، قال تعالى : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ﴾^(٥) .

وفى ذلك عهد وميثاق « فامتناع السموات والأرض والجبال من حمل الأمانة لأجل خلوها من العقل ، الذى يكون به الفهم والإفهام ، وحمل الإنسان إياها لمكان العقل فيه »^(٦) .

إن العقل هو المقبة الكبرى لآدم ، فيه أمكن حيازة العلم ، وهى منقبة تفوق سجود الملائكة - سجود تحية - له ، ذلك لأنه بالعقل والعلم صار خليفة الله فى الأرض ، شريطة أن يعمل بهما الصالحات . قال تعالى : ﴿ ثم جعلناكم خلائف فى

(١) فخر الدين الراوى التفسير الكبير ١ / ٢٨٨ الطبعة الأولى ، المطبعة العامرة الشرقية ١٣٠٨ هـ .

(٢) النقرة ٣١ ، ٣٢ .

(٣) الراوى التفسير الكبير ١ / ٢٨٧ .

(٤) نفسه ١٠ / ٢٩٦ ، وانظر ١ / ٢٨٨ .

(٥) الأحزاب ٧٢ .

(٦) اس القيم . الروح ص ١٦٥ .

الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴿١﴾ .

ولهذا قال الطبرى : « فلما رأى الملائكة ما أعطى الله لآدم من العلم أقروا له بالفضل » ﴿٢﴾ .

وليعلم الإنسان المسلم أن ما كان لآدم كان لبنيه في كل الأجيال ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وفي كرامة آدم أبي البشر ، كرامة كل إنسان بعد آدم عليه السلام إلى يوم الدين . لقوله عز من قائل : ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ ﴿٣﴾ .

وفي الآيات التي بينت فضيلة الإنسان على سائر الخلق دونه ، فقد بينت فوق ذلك قدرة الله على الخلق ، وصلة الخالقية بالخلوقية . وما تحتمه من حب الخالق وتوحيده .

وتبين كذلك حرص الإسلام على الأخذ بالعلم وتزكية النفس والعقل ، وإعلاء شأنه بالعمل بما علم .

أما الذين يذهبون إلى القول بأن الدين مختص بالعبادة دون غيرها من الأعمال ، إنما هم ضالون ، أعماهم سوء الفهم ، أو سوء القصد . هم الضالون المضلون الذين يدفعون الناس إلى سوء فهم مبتور نحو واجباتهم الدينية العملية والتعبدية ، ويوهمونهم - بالباطل - أن الدين لا مكان له إلا في ساحات المساجد .

إن من الدين أن نسعى إلى التقدم ، بواسطة العلم الضرورى الذى مصدره الوحي ، وبالعلم الاستدلالي الذى مصدره العقل ، وعلى المسلم أن يستعين بهما جميعاً فى التعامل مع الوجود الكونى - ليحقق النفع بوجهيه الروحى والمادى .

الدين يروى جذور الإيمان الفطرى فى الإنسان . ويربط فى الوقت نفسه بين إيمان الإنسان وواقعه ، وما يتحتم عليه من مسلك يحقق العمل ويوصل تبادل النفع المطلق بينهما .

(١) يونس : ١٤ .

(٢) الطبرى . تفسيره ١ / ٤٩٦ تحقيق محمود شاكر

(٣) لقمان : ٢٨

إن العلم الذى قطع الإنسان بينه وبين الإيمان ، جعل الإنسان يتعامل مع واقع مادي تحت ، فلا يتعامل مع غايات الحياة ومقاصدها كما رسمها الدين . وإن الإنسان عندما باعد بين الدين ومقاصد الحياة ، وقع في شرك المادية ، وأغرق الشر في ويلات حروب الاعتداء والسلب والنهب واغصاب الأوطان والحريات .

إن الدين في حوهره يجمع بين الإيمان وحب الناس ، وتحقيق الذات والإبداع ، والتمكين من العلم بوسائله المتمكنة في عالم المحسوسات .

تلك هى مقاصد الدين العليا . وعندما يقطع الإنسان ما بين الدين والعلم ، والقيم الروحية والمعاني الأخلاقية ، والبحث والتجربة ، يكون الإنسان قد خسر نفسه ، وجهل الغاية من خلقه ، كما حدث في الحضارة الأوربية ، لما صار العلم فيها بدون إرشاد ديبى أفرر أزماتهم . كما أناح لهم بفوته الغائمة تسخير غيرهم من الشعوب الضعيفة - بالسلح الغشوم تاره ، وبالتجويع تارة أخرى . أو تمكين القوى الناعمة من أولاد الأفاسى الصهاينه - على الآمنين فى أرضهم .

إن المسلمين إذا عادوا لفهم دينهم الصحيح لعلموا علم البقين أن الإسلام دعا إلى العلم ، المشمول بالطاقات الروحية . وهذا ما فهمه المسلمون فى عصور الازدهار ، فطبعوا الحضارة الإنسانية بطابع إسلامى « دون أن يحسوا بأى تناقض بين صرف جهودهم فى بناء الكيان الحضارى المادى ، وبين تطلعاتهم الروحية ، بفضل طبيعة الإسلام التى تجعل هذه الجهود المادية من عبادة الله ، مادمت عايتها إعلاء شأن العقيدة ، ونشر التوحيد فى الأرض »^(١) .

إن المسلم بفطرته يعى أن دبه لا يفصل بين العقيدة ، ومقاصد الحباه ، وكل ما كان وسيلته القلب الذاكر ، والعقل المتدبر ، ومن تم فدينه يوجهه إلى اكتشاف نفسه ، واكتشاف الآفاق فى ذات الوقت . قال تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾^(٢) بمدركات القلب والعقل والسمع والبصر ، وهى أدوات الإدرا . الإنسانى التى تتوافق ولا تتحالف ، وفها تتلافى أدلة الوحى

(١) اعطر مقال د أكرم صياء العمرى - دور التعليم الإسلامى فى

٣ السه الأولى ربيع أول سنة ١٤٠١ هـ

(٢) فصلت - ٥٣

والعقل . قال ابن تيمية رحمه الله « إن الأدلة العقلية الصريحة ، توافق ما جاء به الرسل ، وإن صريح المنقول لا يناقض صحيح المعقول ، وإنما يقع التناقض بين ما يدخل السمع وليس منه ، وما يدخل في العقل وليس منه »^(١) .

إن الحقيقة العظمى التى يجب أن يعيها المسلم : أن الدين هو منبع العلم ومصبه ، وبه يتفوق الإنسان على كليات الكون الأساسية : الزمان والمكان والحدوث . وأن البحوث العلمية التى تقوم على ركائز الإيمان هى الكفيلة بضمان الرقى الإنسانى والتقدم البشرى ، وهى القادرة على أن تؤدى للبحوث العلمية فوائد كثيرة ، تكون بمثابة الاستنارة الروحية ، التى تصل الذات الإنسانية برحابة الكون الفسيح ، وتساعد الإنسان على استكشاف أعماقه ، كما تساعد الإنسان المؤمن على استيعاب قدرات الفهم ، وتحمل تعات التكليف المنوط به عن رب العزة .

إن الإسلام يرى فى كل طلب للمعرفة عبادة ، وفى كل عمل بدنى عبادة ، وفى كل بة خالصة لله عبادة ، كما أن الإحسان عبادة ، وكل ذلك يتضمنه التوحيد ، ولكنها عبادة لا تقنع بالتصور فحسب ، بل بالتصور والتفكر وإعمال النظر ، والعمل للوصول إلى المقصود ، وهذا ما فهمه السلف الصالح بفكرهم التائب .

رأى القرطبي رحمه الله فى تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُمَّ إِلَهَ وَاحِدٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾^(٢) رأى القرطبي فى هاتين الآيتين إظهاراً لأمر التوحيد ، موصولاً بذكر البرهان ، وعلم طريق النظر ، وهو الفكر فى عجائب الصنع فقال رحمه الله : « لقد طلبوا آية كونية فبين لهم سبحانه دليل التوحيد »^(٣) فعرفوا ربهم « بمقتضى النصوص الإلهية ، وفطرة الله التى فطر عباده عليها ، والدلائل العقلية السليمة من المعارض »^(٤) ولعل هذا ما عبر عنه محمد إقبال

(١) ابن تيمية . موافقة صريح المنقول لصحيح المعقول ٢ / ١٨٢

(٢) القرية ٠ ١٦٣ ، ١٦٤ .

(٣) القرطبي . تفسيره ص ٥٧٢ - الشعب

(٤) ابن تيمية . موافقة صريح المنقول لصحيح المعقول ٤ / ١٣٧ - المطبعة الأميرية

رحمه الله فقال : « إن العبادة وسيلة إلى استنارة روحية ، تعرف بها الذات الإنسانية أنها موصولة بحياة أوسع وكون فسيح »^(١) .

على أن العبادة تحقق مقصودها إذا ما تعاون العابدون ، على العمل الدؤوب والسعى المشترك لجنى ثمار علمهم وعملهم مما ينفع الناس ، فالعبادة الحقة هي صلة الإنسان بربه ، كما تكون محققة في الوقت نفسه لخير الإنسان وبره ، عند ذلك يصل المسلم بالمجتمع الإنساني إلى كماله ، استجابة لأمر الله سبحانه وتعالى ، وتحقيقاً لمقصوده عز شأنه ، في خلقهم واستخلافهم ويكون الإيمان بالله وتوحيده وحبه خير العمل وأفضله ، كما ورد في حديث أبي ذر وأبي هريرة رضی الله عنهما أن رسول الله ﷺ سمي الإيمان عملاً . قال أبو ذر وأبو هريرة سئل النبي ﷺ : أى الأعمال أفضل ؟ قال : « إيمان بالله وجهاد في سبيله » . قال : جزاءً بما كانوا يعملون . وقال وفد عبد القيس للنبي ﷺ : مرنا بجمل من الأمر إن عملنا بها دخلنا الجنة . فأمرهم بالإيمان والشهادة وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة فجعل ذلك كله عملاً^(٢) .

ولهذا أخذ ابن حجر رحمه الله « بدفع الإشكال عن تفسير الإيمان بالأعمال البدنية ، مع أنه فعل القلب »^(٣) ذلك لأن الإيمان أصل كل عمل يعمله ابن آدم سواء كان من فعل القلب ، أو من فعل البدن .

(١) عبد الوهاب عرام - محمد إقبال ص ١٦١ ، الألف كتاب الأولى رقم ٢٧٣ ، مايو سنة ١٩٦٠ م .
(٢) صحيح البخارى كتاب التوحيد - باب وُسْمَى الإيمان عملاً ٨ / ١٩٦ الشعب .
(٣) فتح البارى ١٣ / ٤٥٨ .

الفصل الخامس

ميل الإنسان الفطري إلى الدين

ميل الإنسان الفطري إلى الدين

خلق الإنسان بفطرته ميالاً إلى الدنس ، فالدنس هو الفوه الروحاني التي يصل إليها الإنسان بخالو القوى الغيبية المسبطة على الكون وبطام الحياة ، وتلك الفوه الروحانية هي التي تجعل الإنسان يدعى لسلطان الله الأعلى ، ويؤمن به ويحبه ، ويداوم على تقواه وطاعته حل شأنه ، وذلك هو التدين ، وهو الميل الفطري إلى تقبل الدين ، أي إفراغ القلب من كل علائق الدنيا لله عز وجل ، والنزول من الشرك والرياء بإفراغ القلب ليسع الله وحده ، لسابع نعمه على عبده ، قال تعالى :

﴿ الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتنابذوا بالله رب العالمين - هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين - قل إني نهيته أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاء في البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين - هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلاً مسمى ولعلكم تعقلون - هو الذي يحيي ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾^(١) .

وحب الله يسندعى استعداداً من العبد لحب خالقه ، والرحوع دائماً إليه لينال المطلب الأسى ، والمقام الأعلى ، قال تعالى : ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾^(٢) .

وفيما أحرجه مسلم رحمه الله من حديث جبريل عليه السلام عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : حدثني أبي عمر .. وروى الحديث بطوله وفيه : قال : فأخبرني عن الإحسان . قال . « أن بعد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »^(٣) .

قال النووي رحمه الله : « وهذا من جوامع الكلم التي أوتيتها ﷺ ، لأننا لو قدرنا

(١) عامر ٦٤ - ٦٨ .

(٢) الحديد ٤ .

(٣) من حديث طويل رواه مسلم في صحيحه ١ / ١٥٦ - ١٦٠ ، كتاب الإيمان ، باب تعريف الإسلام والإيمان

أن أحدنا قام في عبادة ، وهو يعاين ربه سبحانه وتعالى لم يترك شيئاً بما يقدر عليه من الخضوع والخشوع ، وحسن السمات واجتماعه وباطنه وظاهره ... ومقصوده الحث على الإخلاص في العبادة ، ومراقبة العبد ربه تبارك وتعالى في إتمام الخضوع والخشوع»^(١) .

فعلى العبد المؤمن إدامة التيقن باطلاع الحق سبحانه وتعالى على أعماله الظاهرة والباطنة ، وعند ذلك يذوق العبد طعم الإيمان ، فهو ثمرة تطلعه الدائم إلى الله ، وأن يحب الله تعالى ورسوله ﷺ ، وفي صحيح البخارى ومسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه ، كما يكره أن يقذف به في النار»^(٢) .

والدين الذى يؤمن به المؤمن ، ويميل إليه بفطرته هو نظام حياته وآخريته ، هو المعاش والمعاد ، والحكم والسياسة ، والعبادة ، مع تسليم العبد نفسه لله عز شأنه في كل الأحوال لقوله تعالى : ﴿ ونحن له مسلمون ﴾^(٣) مع اتباع الرسل عليهم السلام فيما بعثهم الله تعالى به في كل حين ، ابتداء من رسالة آدم عليه السلام ، حتى رسالة محمد ﷺ ، الذى سد جميع الطرق إليه إلا من جهته ، يقول تعالى : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم * ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين * إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين * ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون * أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم

(١) النووى . شرح صحيح مسلم ١ / ١٥٧ ، ١٥٨ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى : ٢ / ١٣ كتاب الإيمان ، باب حصال الإيمان ، وأخرجه البخارى . فى كتاب الإيمان ، باب حلاوة الإيمان ١ / ١٠ - ١١ - الشعب واللؤلؤ والمرجان : ١ / ٩ باب بيان حصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان .

(٣) البقرة . ١٣٣ .

وإسماعيل وإسحق إليها واحداً ونحن له مسلمون ﴿١﴾ .

فالدين عند الله الإسلام قال تعالى : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم * إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب * فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأمين أسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾ (٢) .

والآيات تدل على أن الدين عند الله الإسلام ، وعلى وحدانية الله سبحانه وتعالى ، وأنه فرض على العباد الإقرار له بالتوحيد والعبودية ، كما دلت على وحدانية أفعاله سبحانه التي لا يقدر عليها غيره ، وقدرته التي أحاطت بالكون كله ، وبوحية الناطق بعلمه وعزته ، وباقرار الملائكة وأولى العلم ، واحتجاجهم عليه سبحانه وأنه مقيم للعدل فيما يقسم من الأرزاق والآجال ، وفي تقدير الثواب والعقاب . قال الزمخشري : « دخل قيامه بالقسط في حكم شهادة الله والملائكة وأولى العلم ، كما دخلت الوحدانية . كأنه قيل : شهد الله والملائكة وأولو العلم أنه لا إله إلا هو ، وأنه قائم بالقسط ، لا يغالبه إله آخر عزيز حكيم لا يعدل عن العدل في أحكامه ... أرفده بقوله تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ ذلك لأن دين الإسلام دين العدل والتوحيد وهو الدين عند الله ، وما عداه فليس عنده في شيء من الدين » (٣) لقوله تعالى : ﴿ قل آما بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون : ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من

الخناسرين ﴾ (٤) .

(١) البقرة : ١٢٧ - ١٣٣ .

(٢) آل عمران : ١٨ - ٢٠ .

(٣) الرمنشري : الكشاف : ١ / ٣١٤ .

(٤) آل عمران : ٨٤ ، ٨٥ .

فالمسلم يؤمن بجميع الرسل ، وبكل كتاب أنزل من عند الله « ومن سلك طريقاً غير هذا الطريق أدى شرعه الله للناس من دين الإسلام ، هل يفبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين »^(١) .

نزوع الإنسان إلى الدين في نظر العلماء من غير المسلمين :

لقد رأى الباحثون والدارسون أن الإنسان أحسنّ دائماً بحاجة إلى الدين ، مند أن أحسن أن قوى غسية تسانده وتعصده صد قوى الطبيعة المحيطة به ، ولا يقدر على تسحبرها، وقد بدأ هذا الإحساس لدى الإنسان مند فحر التاريخ حينما انحصر تفكير الإنسان الروحي في التطلع إلى قوى العيوب يسنعينها ، وربما لهذا السبب رأى مالك ابن نبي أن : الإنسان حيوان ديبى بشكل فطرى بسبب اسعداد أصيل في طبيعته^(٢)، وربما بسسه قال هري برجسون : « نرى في السائق أو في الحاضر مجتمعات إنسانية لا حظ لها من علم ، أو فن ، أو فلسفة ، ولكما لا نعرف مجتمعاً لا دين له »^(٣) إذن « فلا صحة لما ذهب إليه بعض الباحثين أمثال (لوبوك) في كتابه (أصل الحضارة) وغيره من الزعم بوجود جماعة إنسانية أولى نعدم فيها كل اعتقاد ديني ، فجميع ما قدمه الدين اتفقوا معه من العلماء من شواهد وأمتلة وأدلة لم يوافق عليها الباحثون ، ولم تقف أمام النقد العلمى النزيه »^(٤) .

والدين في عرف هذه الجماعات هو : التوجه إلى المعبود بالعبادة والطاعة ، سواء كان الدين من الأديان السماوية التي حاءها الأنبياء استناداً إلى الوحي السماوى ، والتي تدعو إلى عبادة الله وحده بلا شريك في الملك ، أو تلك التي قامت على الحرافات والخيالات والأوهام كعبادة الأصنام ، والأجرام السماوية ، والطبيعة والنبات والحيوان ، أو التي تقوم على التسلط والاسناد كعبادة الطاغوت ، ومنه الذي حاء

(١) اس كثير تفسير القرآن العظيم ١ / ٣٧٩ .

(٢) مالك بن سبي الطاهرة القرآنية ص ٧٤ ترجمة د . عد الصور شاهين - دار العروة الطبعة الثانية سنة ١٩٦١ م .

(٣) هري برجسون مسعا الأخلاق والدين ص ١١٣ ترجمة د سامى الدرولى - الهيئة المصرية للكتاب سنة ١٩٧١ م .

(٤) د . فورية رمصاك أبوب علم الإنسان ص ١٦٩ - الهيئة العامة لقصور الثقافة - الجماهيرية سلسلة مكتبة الشباب رقم ١٥ سنة ١٩٩٠ م

به القرآن على لسان فرعون في قوله تعالى : ﴿ وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد ﴾^(١) وينسحب ذلك على كل أديان الشرك ، فقد سماها القرآن الكريم أديانا في قوله تعالى : ﴿ ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لكم دينكم ولي دين ﴾ وقد نزلت في رهط من قريش كانوا مشركين قالوا : يا محمد هلم اتع ديسا وتتبع ديك ، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، فإن كان الذي حئت به خيراً مما بأيدينا فقد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما في يدك فقد شركت في أمرنا وأخذت بحظك ، فقال : « معاذ الله أن أشرك به غيره » فأنزل الله تعالى : ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ حتى آخر السورة^(٢) .

وقد يشتمل الدين على عنصر العبادة أو لا يشمل ، وفرق بين أن يكون الدين مشتملاً على عنصر العبادة ، وبين أن يكون غير صحيح ، كما أن هناك ديانات بالمعنى الاصطلاحي فقط ، وكما يقول الشيخ عبد الله دراز : « لا مانع من أن بصطلح مصطلح على هذه التسمية ، ولكنه يكون اصطلاحاً نابياً عن معهود الناس ، محافياً لذوق اللغات ، ولا سيما لعتا العربية التي لا تفهم عن اسم الدين إلا اعتقاداً بالشيء يدين له المرء ، أي يخضع له ويتوجه إليه بالربة والتقديس »^(٣) .

على أن الدين السماوي الذي جاء من عند الله ، يوحد بين أهداف الجماعة التي تدين به ، ويحقق لها كرامتها الإنسانية ، إذ جاء ليحقق كرامة الإنسان لقوله تعالى : ﴿ ولقد كرّمنا بني آدم ﴾ ويسوى بينهم جميعاً ، ولا يفاضل بينهم إلا بالقوى ، وعمدى التزامهم بتطبيق تعاليمه وأوامره وبواهبه التي لا تمز بين خاصة وعمامة ، ولا بلاء أو دهماء ، ويقوى أصرة ارتباط المتدينين بأرضهم ، وبوائم بينهم وبين حياتهم الاجتماعية بكل نظمها وقواعدها مادامت في مصلحة جماعتهم ، ومادامت لا تتعارض مع أصول الدين .

وأساس الدين مد آدم عليه السلام هو التوحيد .

(١) عامر ٢٦

(٢) عبد الله دراز . الدين ص ٣٥ ، دار الفكر العربي د ت

(٣) مجلة من الباحثين العراقيين . موسوعة حضارة العراق ١ / ١٤٠ العراق ١٩٨٥ م

ولكن كثيراً ما كان يحدث أن تحل بعض الردة عند بعض الموحدين ، وفي كل الأحوال ليس غلوا القول : بأن الجماعات التي حدث فيها ذلك لم تعدم التطلع إلى دين ، وقد تستمد معرفة ذلك من آثار الأمم الباقية ، التي حفظت لنا تطلع هذه الأمم إلى التدين ، وبيئت كيف كان هذا التطلع مطلباً جماعياً لكل أفراد هذه الجماعات ، وعلى سبيل المثال تؤكد لنا آثار قرية (أور . ur) بالعراق وهي كما يقال : « من آثار الطوفان المذكور في الكتب المقدسة ، والتي قيل إنها كانت مأهولة بالناس قبل حدوث الطوفان ، وأنها استمرت مأهولة أيضاً بعده في العصور التالية »^(١) .

وكما هو معلوم فإن بوحاً عليه السلام بعث إلى من دب فيهم الشرك من قومه إلى دين التوحيد ، وأن الله عز شأنه أمده بالطوفان ليصحح به مسار الشريعة ، وإقرار دينه ، إلا أن ذلك لم يحل دون انتكاسة أخرى إلى الشرك بعد الطوفان ، في الفترة التي يحددها الآثاريون العراقيون « بسنة ٨٠٠٠ قبل الميلاد »^(٢) .

وأيا ما كان دافع سكان ما بين الرافدين بعد الطوفان إلى ترك التوحيد إلى الشرك ، فإنهم عبدوا آلهة من دون الله الواحد الأحد عز شأنه : « وعلى رأسها الآلهة الرئيسية التي عبدوها السومريون ، والتي كانت تتمثل بالإله (آو) إله السماء ، والإله (أنليل) إله الهواء ، والإله (أنكى) إله الأرض ، والإله (أوتو) = الشمس أى إله الشمس - فيما زعموا . ولعل الإله الأخير هو نفسه الذي صار الإله (آتون) إله الآلهة عند المصريين في عصر إخناتون . وتلك الآلهة ، هي التي عظمها الملاحم والأساطير السومرية والبابلية »^(٣) .

« ومما يجدر ذكره في هذا الخصوص ، هو أن الملاحم المذكورة قد بينت لنا أن سكان بلاد وادي الرافدين ، لم يتشككوا على الإطلاق عن نوعية القوة التي قامت بخلق الآلهة الرئيسية ، بل اعتبروا وجودها من الأمور الأزلية التي لا تحتاج إلى نقاش ، وأن هذه الآلهة هي التي قامت بخلق الكون والإنسان »^(٤) .

وعلى كل حال « فإن الدين مطلقاً : هو سلك النظام الاجتماعي ، ولن يستحكم

(١) بحثة من الباحثين العراقيين : موسوعة حصاره العراق ١ / ١٤٠ العراق ١٩٨٥ م

(٢) حصاره العراق ١ / ١٤٥ .

(٣) نفسه ١٠ / ١٤٩

(٤) جمال الدين الأعمى . الأعمال الكاملة ص ١٣٠ تحقيق محمد عمارة ، القاهرة ١٩٦٨

نظام للتمدن بدون الدين البتة»^(١) فالدين يقوى الإنسان وينظم سلوكه ، ويكون صميم بنیان حياته ، وعلى حد قول الأستاذ العقاد : « إن الدين لازمة من لوازم الجماعات البشرية ، قبل مصالح الوطنية ، وقبل الحاجة النوعية التي تضمن له حياته وبقائه ، فالإنسان يتجه من الدين إلى غاية تقرير مكانه في هذا الكون ، أو في هذه الحياة ، فالإنسان يتعلق من النوع بالحياة ، ولكنه يتعلق من الدين بمضى الحياة»^(٢) .

ولهذا فإن الأمم والجماعات الإنسانية البدائية التي نشأت منذ فجر التاريخ وانقطعت صلتها بالأديان السماوية لسبب ما ، شعلها التفكير في أصل الإنسان ومصيره ، وصلته بالطواهر الكونية حوله ، وربما استطاعت أن تعزل وحودها وصلتها بالكون أو عجزت عن ذلك ، إلا أنها في كل الحالات لا تكف عن محاولة التعرف على القوة التي تخضع لها كل الكائنات الموحودة في الكون ، ويكاد يجمع علماء الاجتماع الباحثون في الديانات القديمة غير السماوية أن الباعث الذي حرك الإنسان للتطلع إليها يرجع إلى بواعث خمسة هي :

« خوف الإنسان وقلقه ، وإلى الغريزة ، وإلى العقل والتفكير ، والملكة الخاصة ، وإلى الحاجة الاجتماعية»^(٣) .

وإن هذه البواعث قوامها « ذلك الشعور بالحاجة المطلقة لقوة قاهرة ، فلا ريب أن هذا الشعور ركن أصيل لا بد منه في تحقيق ماهية الدين من حيث هو دين»^(٤) ، ومن حيث بواعثه عند كثير من الأمم البدائية التي انقطعت صلتها بالشرائع السماوية من لدن آدم عليه السلام .

وإن أول البواعث التي حركت الإنسان للتطلع إلى التدين هي :

أولاً : خوف الإنسان وقلقه :

والذين قالوا بذلك كان مدار بحثهم حول كون الإنسان - محكم حلقه - المخلوق

(١) العقاد . الفلسفة القرآنية ، ص ٧ ، كتاب الهلال سنة ١٩٧٠ م

(٢) د عمارة محب : الإنسان بين الأديان ، ص ٢٥ وانظر العقاد في مؤلفه الله ص ١٨ كتاب الهلال

(٣) د عمارة محب . الإنسان بين الأديان ، ص ٢٥

(٤) عد الله درار الدين ، ص ٣٥

الوحيد الممير بالعقل ، والوحيد بن جمع مخلوقات المدرك بأن الموت هو مصيره المحتوم ، فأحد يبحث عن قوة تساعده ضد أهوال الطبيعة التي تخافه بكل أخطارها وبعده ، ومن هنا سأت فكره الدين عند هؤلاء « كرد فعل دفاعي تقاوم به الطبيعة قول العقل باسئحاله احناب الموت »^(١) ومهما قل من أن الملك حو هو اللى سى هرمه الأكبر ساء على بءاء ناطى برىكر على عصبدة دنه نحق له الخلود ، قد استخدم كل أنواع القمع ، ووسائل الظلم التى ساء لملك هو فى العصر المدم ؛ لكى يسحر بها رعيه فى بءاء الهرم ، فإن فنامهم مءاء العمل الشاق لللى على الرغه الكامة فهم ، النى استءفء مواهءة الموت والانتصار علىه ، وءحقق الخلود لملكهم الإله

ءانىاً : عباءة الأرواح والأسلاف :

ولأن الإنسان بعريزته بحاف المهور من الطسعة فقد حلع علىها الحفاء ، ولما كان لكل كائن حى روح عامضة ترافقه - كما بعقء البءائى الوئى - فقد صار لكل سىء فى الطبيعة روح ، فلما آمن مءءه الأرواح عبءاءها^(٢) .

وعبءاءة الأرواح مءءه الصورة ارتطت بعاءة الأءءاء ، فالأءءاء اللى ماتوا ، لا ترال أرواحهم - باعءقاء البءائى - ءحبء بأنائهم ، ءم يحبء هؤلاء الأناء سيره الأءءاء والأسلاف بالخرافات والأساطر ، فسرعرع ، وبعحول إيمانهم بالأرواح التى لم ءفارقهم إلى آله محلىة فى بءاءى الأمر ، ءرمز إلى قءاسة الأسلاف ، ءم ما يزال هءا الإله يمو وىكبء حتى بصبر إلهاً للجماعة فى بعص الأءاء ، وقد ذكر القرآن الكرم هءه العبءاءة قال ءعالى : ﴿ وقالوا لا ءءرون آهءكم ولا ءءرون وءاً ولا سواعاً ولا يفوء وبعوق ونسراً ﴾^(٣) وهؤلاء كما ورد فى كءب السنة كانوا من أسلاف قوم نوح^(٤) ، وكانوا يحلو بهم إحلالاً عظمياً ، ءم ءحول هءا الإءلال إلى عبءاءة .

ءالءاً : ءور الغريزة المركبة فى الإنسان البءائى فى ءفعه إلى الشرك بعبءاءة هءه الآهءة .

(١) هرى برحسون : مسعا الأحلاق والءى ص ١٤٣ وانظر أيضاً حولىان هكسلى . الإنسان فى العالم الءءء ، ص ٢١٨ سلسلة الألف كءاب الأولى

(٢) هرى برحسون مسعا الأحلاق والءى ص ١٨٨

(٣) نوح ٢٣

(٤) صءىء الءارى ٦ / ١٩٩ كءاب ءءسفر ، طعة الشعب ، والملى والءل للشهرسءانى ٤ / ١٠٩ على هامش الفصل لانس حرم الأءلسى .

فقد رأى بعض الباحثين الاجتماعيين أن عرائر الإنسان وتسلطها عليه ، تتوقف على مدى تقدمه العقلي أو تخلفه ، وفي فجر التاريخ عندما كانت سبطه العرائر تفوق سيطرة العقل على الإنسان ، وقت أن كانت ابتكارات الإنسانيّة نادرة ، وحينما كانت أسلحته وأدواته التي يرود بها عن نفسه ، لا نصمد أمام أسلحة الحيوان ، وأدواته الماصية التي رُود بها لحكم خلفه ، فاعترف للحيوان بفضوقه ، تم ما فسئ أن ألّله ، وفجرت له العريرة في حضن العقل ذاته هذا الضرب من الخيال الذي يسمى بالوظيفة الخرافة ، ثم أرحت هذه الوظيفة الخيالية لنفسها العنان « فإذا هي بصنع من سحسبات أوله ترتسم ارتساماً مبدئياً آلهة تسمو فتكون إلهاب الأساطير » (١)

ولقد قال العلماء في قوة تأثير الممارع الديني بالعريره ، حتى لقد على فرويد Fried فرأى أن العريزة في هذه الحالة غريزة جسية مسامية ، ففسر حب الإله الوثني بحالة النسامي في الحب الجسي ، معتمداً على حالات مرصية لا تصلح للتعمم « (٢) « فصلاً عما يعترها من غموص » (٣)

رابعاً : الدين حاجة اجتماعية :

فقد رأى بعض الوضعيين الاجتماعيين وفي مقدمهم ماكس مولر ، ودور كام على خلاف بينهما أن الدين من صنع الخنمع ، وأداته العقل الإنساني ، فمولر كما يذكر العقاد يرى : « أن الإنسان قد تدين ؛ لأنه أحس بروعة المجهول ، وحلال الأبد الذي ليس له انتهاء » (٤) مما مُح من عقل سليم ، وبصيرة نافذة مد أول عهد الإنسان بالحياه .

ولهذا يرى دور كايم أن النظام الديني (يعنى الطوطمي) قد اسعت من تلقاء نفسه من العقل الجمعي ، وأنه حقق فوائد اجتماعية ، فكان وسيلة لتمدن الأفراد ، وترويضهم على التقديس والإجلال لتقوية أصرة ارتباطهم بمجتمعهم ، ويسلس فيادهم للحياة الاجتماعية وما تفرضه من نظم ، وتضعه من قواعد تنعارض في كتر من

(١) هري برحسون مسعا الأخلاق والدين ص ١٧٧

(٢) د عمارة بحب الإنسان بين الأديان ص ٢٨

(٣) العقاد في مؤله الله ص ١٣

(٤) نفسه : الصفحة نفسها

مظاهرها مع أهواء الأفراد ورغباتهم»^(١) ويؤكد هذا ما نقله العقاد عن برجسون الذى أرجع العقيدة الدينية إلى مصدر جماعى نَحْمه الفائدة التى تعود على المجتمع ، رغم وحود العباقرة الأفراد داخل المجتمع ، الذين يملكون القدرة على توحيه ، ولكنه يؤكد أن هؤلاء الأفراد من « دوى البصيرة والعفوية الموهوبة » .

ويرى أصحاب هذا الرأى أهمية الملكات الإيسابية الفردية ، وكيف أنها مقيدة لصالح الجماعة ، وحرية بأن نمك الأفراد من التفوق والسير بالمجتمع الإنسانى إلى الأمام .

وأصحاب هذا الرأى يحسون إلى القول بأن الدين يمك أن يكون من صنع الحياة الاجتماعية للأفراد ، أو على الأقل يمك أن يكون الدين ضروره تحتمها الحياة الاجتماعية للإنسان ، ومن ثم فقد رأى برجسون « أن الدين رد فعل دفاعى تقاوم به الطبيعة قوة العقل الهدامه »^(٢) على أن العقل إذا لم يعد بالاعتدال ، صار آلة دافعة إلى الأنانية ، ولأن الإنسان لو استرشد عقله وحده ، حدى نفسه فى كثير من الحالات ، وأطاع لدته ، وقتل الحاجة الديسة فى نفسه ، تلك التى تولد السحيل والإلهام ، والكشف الذى يصع الإبداع ، وسوق الحياة إلى الأمام ، وبحسب تصور بعضهم « فإن عوائد السعوب وتقاليدهم تنتكل بصورة بمليها اهتمام (ميسافزبقى) يدفع أدنى القوى الهمحية إلى تسييد كوح سيط فى مركزها تنحه نحو الحياة الروحية للجماعة ، وهى حياة تتفاوت فى بدائنها إلى حد كبير . وما التوتمة والأساطير واللاهوت ، إلا حلول مقترحه لمس المشكلة التى تساور الضمير الإنسانى كلما وحد نفسه مأحوداً بلعر الأشياء وعاباتها الهائية »^(٣) .

خامساً . الاستحياء وأصل الاعتقاد بالأرباب .

وهو ما ذكره العقاد فى مؤلفه عن « الله » نقلاً عن تايلور وهربرت سسسر وغيرهما فاستحياء أصل الاعتقاد بالأرباب عند تايلور Tylor . هو إصفاء الحياة على الجماعات والأموات ، وقد وافق تفسير تايلور ، نفسير هربرت سسسر الذى كان

(١) د على عد الواحد واى الطوطمية ص ١٠٦ سلسلة اقرأ

(٢) هرى برحسون السائق ص ١٣٤

(٣) مالك بن سى الظاهرة القرآنية ص ٧٣

باعتقد في أن عبادة الأسلاف باعتبارها أقدم العبادات الناتجة عن رؤية أطياف الأحداد في المنام ، فيحسب أمها باقية ترجى وتخشى ، وأما تتقاضى فروضا كفروض الآباء على الأبناء ، وهم على قيد الحياة»^(١) .

وهذا يؤكد أن هناك قوى يقدسها المتدين لهذا الدين ، يلتمس منها الحاجات والرعبات ، وهي ليست فكرة مجردة ، أو صورة عقلية خالصة ، وإنما هي فكرة خارجة ، وليس عادة تقع عليها الحس ، ويعتقد فيها أنها قوة عاقلة لها قدرة على تدبير العالم ، وأن لها تجاوباً نفسياً مع معتنفيها المتدينين لها .

على أن التدين ههنا يكون رغبة في مناجاة ذات سامية حديرة بالعبادة ، وهي في كل الحالات تخضع لحالات نفسية من قتل العائد ، ترسم له طريقة عبادته ، ويبدو أن ربط الاعنفاد (بالطوطم) قريب من هذا التفسير « خاصة الطواطم الساتبة والطبيعية»^(٢) أي عبر الحيوانات .

إن هذا الرأي قريب من رأي (ماكس فير) الذي يعتقد بوجود أصل واحد مشترك لكل عمليات التطور البدائي للدين عند الأمم البدائية ، وإن كان يصعب في هذا النمط البدائي التمييز على أساس عقلائي بين ما يدخل في دائره السحر ، وما يدخل في دائره الدين ، والتبرير العقلائي الواحد لحدوث هذه الديانات يقوم « على أساس وجود قوى أو ملكات استثنائية أو فائقة للطبيعة ، ومتميزة عما هو مألوف أو عادي ، يختص بها بعض الكائنات الشريفة ، أو حتى بعض الحيوانات والنباتات ، بل والحمادات أحياناً ، بحيث يقف المرء منها موقفاً معبياً لتمييزها بتلك القوى الخاصة . وهذا بتطابق مع ما جاء في كتابات (اميل دور كام) في تحليله للدين البدائي في كتابه التمهير « الصورة الأولية للحياة الدينية » les Formes Elementaires de la vie Religieuse حيث ميز المقدس ، وهو غير المألوف ، أو غير العادي ، أو الاستثنائي ، أو الفائق للطبيعة ، عن غير المقدس»^(٣) pzoane .

(١) العقاد في مؤلفه : الله ص ١٠ ، ١١

(٢) د عمارة بحب . الإنسان بين الأديان ص ٣٢

(٣) عالم الفكر الكويتية م ١٣ ع ٣ ص ٢٠٨ ، أكتوبر نوفمبر ديسمبر ١٩٨٢ م

على أن هذه الأفكار مع قابليتها للتصور ، من حث إليها أقيمت على ركائز العلم واستقرائه وبراهينه في مجالات : علوم اللغة والاحتماع والنفس ، لم تصم على اليقين الديني ، الذي يقوم عليه الديانات السماوية ، الأمر الذي دفع العقاد إلى القول « بأننا لا نجد فيها سبوع أسباب العقيدة ، نعتسا عن الطلوع إلى غيره »^(١)

كذلك فإن هذه الآراء لا تنحصر في دائرة العقل والنفس ، وتعالج ما يقع عليه الحس ، أو تحلل ما يدور في أعماق النفس ، ولكنها تبحث عما وراء المادة ، وسحت عن علل تواجد الأتياء ونصريفها ، وهي أنشياء لا تلتبس لدى العالم أو الفيلسوف ولا في داخل النفس ، أو الإطار المادي للدوات ، وإنما هي ممتابة البحث عن الدات الغيبية القادرة التي يقف إراءها العابد بخصوع وحشوع ، ونقبل لكل ما يصدر منها ، ولكنه خضوع طالب الأصل ، لا خضوع النائس الذي فقد الأمل والرجاء .

على أن إحساس العابد من هذه الديانات ، وإن حمل معنى تنزيه العابد لمعبوده عن العيوب والنقائص ، فلا يعنى هذا دليل قدسية المعبود ؛ لأنه عار من الوحيد الذي يفنى كل تصور لمشاركة الخالق ملكونه « فقد سنا الدين البدائي في أول صورة في عبادة الطبيعة بأشكالها من حيوان وسجر ونجوم وعبر ذلك »^(٢) ولهذا فإن القول المسدد « أنه لم يكن هدف واحد من عبادة هذه الآلهة في عبادتها ، وعباده هاكلها الملموسة ، ولا رأى في مادنها من العظمة الذاتية ما يستوحى مهم هذا التقديس اللينغ »^(٣) ولهذا لم يوحدها ، ولم بقروا لها بالعودية ؛ لأنها نسبت جذرة بذلك ، فأشركوا بها في العبادة .

تهافت فكرة تصور الإله عند هؤلاء :

يزعم هؤلاء الدارسون أن أطواراً عامة مرت بها الأمم البدائية في اعتفادها بالآلهة والأرباب ، ويمكن سرد هذه الآراء من وجهة نظر أصحابها ، الذين يرون أن الأطوار التي مرت بها عقيدة الألوهية بدأت بطور التعدد - كما رعموا - polytheism وانتهت إلى التوحيد Monotheism . وهذا باطل ؛ لأن القرآن الكريم يؤكد أن

(١) العقاد في مؤله الله ص ١٦

(٢) نفسه ص ١٢ .

(٣) عد الله درار . الدين ص ٣٨

الإسنان بدأ بعبادة الوحد ، مد خلق آدم عليه السلام ، وإن ما جاء به القرآن واجب التصديق ، ويفارق الملة من يكره

الإسلام هو دس النوحبد الذي اررضاه الله لخلقه، منذ أن خلق آدم عليه السلام قال تعالى : ﴿ ومن يتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾^(١) .

وهذا معنى أن الله سبحانه وتعالى اختار الإسلام ديناً للبسر منذ أن خلق آدم ، وسخر له كل نبيء في الكون لبسر له خلافة ، وعلم الله سبحانه آدم أن الإسلام هو النظام الرباني الشامل الذي ينظم حركة الكون والحياة ، ويعد الإسنان للدينا ، كما بعده للآخرة قال تعالى : ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾^(٢) وعلمها آدم سبه ، كما علمهم كيف يتمسكون بهذا الدس العم ، ولكن اعرفت بعض أحيال من نبي آدم عن الصراط المسعم ، فكان الله يرسل الرسل عليهم السلام لتصحيح المسار ، وكانت سكر الدعوه إلى التوحيد ، كلما تكررت الاعرافات الدينية لدى بعض أحيال البسر ، قال تعالى : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا ﴾^(٣) وهذا يؤكد أن الأنساء جميعاً عنوا على الإسلام وهو ما أكده الطرى رحمه الله في تفسير فوله تعالى . ﴿ النبيون الذين أسلموا ﴾ فقال : « هم مسلمو الأساء »^(٤) حتى بع محمد ﷺ بالرسالة العامة الخاتمة ، وهي الرسالة التي أخذ الله على نفسه عهداً بأن يعفظها من الاعراف الكلى يقول تعالى . ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾^(٥) ولهذا فبالرعم من اعراف بعض المسلمين ، فإن الله حلب قدره هدى آحرين فلم سحرفوا عن الحق . قال تعالى : ﴿ والعصر إن الإسنان لفى خسر : إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾^(٦) إلى يوم الدين .

وقال تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب

(١) آل عمران ٨٥

(٢) البقرة ٣٠

(٣) المائدة ٤٤

(٤) الطرى تفسيره ٦ / ١٦٢ طعة الرنا .

(٥) المحر ٩

(٦) العصر ١ ٣

إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإنه سريع الحساب ﴿١﴾ .

وإن الذى نقره أن الباحث فى أصول هذه الديانات غير السماوية ، يجد نفسه أمام افتراضات متباينة لأديان متعددة متباينة ، هذا فضلاً عن أن الباحثين فى هذه الابحاث لا يتمون إلى مذهب اجتماعى أو فلسفى أو طبيعى واحد ، وإنما يتمون ، إلى مذاهب مختلفة متضادة « لا تقوم على أساس من العلم ، وإنما تقوم على افتراضات تحتة تخضع لآراء الفلاسفة والباحث الذين حاولوا تفسير نشأة الدين وفق المذاهب التى يسلمون بها »^(٢) ومن تم فلم تعد الصعوبة فقط فى تصور صحة هذه المعتقدات ، أو تصور تطورها ، ولكن الصعوبة أيضاً فى تصور وجود سلسلة متصلة الأطوار لمتل هذه المعتقدات التى بيت على أساس افتراضى فى الغالب ، فلا توجد دراسة واحدة من بين هذه الدراسات تربط بين أطوار هذه الديانات وتطورها من البداية ، لتحل الباحث يحس بالتواصل الطبيعى بين الطور والطور الذى يليه ، مما دفع بعض الباحثين إلى التأكيد على أن مذاهب الباحثين الذين بحثوا فى هذه الديانات « قد تعرضت لكثير من النقد ، وكل النظريات التى حاولت تحديد الديانة الأولى بتطبيقها على المجتمعات البدائية ، إنما هى افتراضات تبدو غير سليمة ، وتبدو أحياناً أخرى تليفقية وهى نظريات فلسفية احتمالية خيالية ، ولا يمكن أن تعد نظريات بالمعنى الصحيح »^(٣) .

الشيء الوحيد الذى يكاد يتفق عليه أن هذه الديانات ظهرت فى الشرق أولاً ، وإن لم يتفق العلماء على المكان الذى ظهرت فيه هذه الأفكار الدينية قبل غيره . هناك أبحاث كثيرة حول هذه المسائل قام بها علماء انثروبولوجيين ، وعلماء اللغة ، ولكن ما يؤخذ مما كتبه تغليب رأى على آخر ، دون أن يكون ذلك التغليب مؤكداً ، وإن غلب مما ذكره ، أن تكون الديانات قد نشأت فى شتى صورها « ببلاد ما بين النهرين ومصر والهند ، وبلاد فارس ، ومن هذه البلاد انتقلت إلى بقاع الأرض ، وهم يؤرخون لذلك فى أغلب الفروض فى الفترة مند سنة ٨٠٠٠ قبل

(١) آل عمران ١٩ .

(٢) د هورية رمصان أيوب . علم الإنسان ص ١٧٨

(٣) د . هورية رمصان أيوب . علم الإنسان ص ١٧٨

الميلاد»^(١) وربطوا بين الأحداث التاريخية وبين حضارات هذه البلاد وبين دباناتها ، وإن رأى بعضهم أن الحركة الدينية الكبرى بدأت في قبائل عرفت بعد باسم القبائل الهندوأوربية ، قامت بعملية عرو خطيرة للهند والعراق وآسيا الصغرى وسوريا وفلسطين ومصر ، وكان من آثار ذلك أن قامت حركة دينية تتبادل التأثير الديني فيما بينها ، وبين هذه البلاد^(٢) .

ومع هذا فإن هذه الدراسات تقوم على الصروض الواهية ، وتقصصها الوثائق الدامغة .

وعلى كل حال فقد حدث امتزاج حضارى بين هذه الأمم ، ذلك لأن حضارات هذه الأمم كانت تقوم على أساس من التفكير الدبى ، كذلك حدث تأثير دينى كبير شمل المعتقدات وتصور الآلهة داتها ، بل وساهمها عندهم ، وإن اختلفت مسمياتها ، ودرجة التأثير فيها ، وكذا القوه والضعف .

على أن الأركان التى قامت عليها هذه الأديان سواء الموعلة فى القدم ، أو المتأخرة سبباً لا تمثل إلا النظرة القاصرة المنحصرة فى حدود الإحساس بمدى أهمية هذه المعبودات ؛ لأن المعبود منها، إذا لم يحقق غاية معوده محول عنه وربما جاء هذا التحول بعد عدوان نفع على المعبود ذاته ، كما « حدث فى بعض الديانات الونية بين زنوج إفريقيا ، فقد قامت إحدى القبائل الوثنية بعبادة رجل منها رعموا أنه فيه قدره عجيبة على علم الغيب ، وفعل الخوارق ، حتى إذا نسوا منه سحنوه ، بل ربما قتلوه ، وأقاموا غيره مكانه »^(٣) .

وهؤلاء وإن عبدوا هذه الآلهة فقد عبدوها لما وراءها من سر غيبى لا يدرك بالحواس ، ولكن مع هذا فهم لا يبحثون فى حدود ما وراء هذا السر ، ومن تم يظهر تهافت مثل هذه العبادات ، ذلك لأن حقيقة العقيدة الدينية الصحيحة لا تلتبس داخل المادة ، ولا حارجها « وإما هى دات عيبية وراء الطبعة ، وفوق الطبيعة »^(٤) وهذه

(١) موسوعة حصاره العراق . ١ / ٢٤٥

(٢) د عبد المعمر أبو بكر إحباطون ص ٦٥ ، سلسلة المكتبة الثقافية .

(٣) عبد الله درار . الدين ص ٣٨ ، ٣٩ عن الرسالة الخالدة لعبد الرحمن عرام ص ٦ ، ٧

(٤) نفسه ص ٤١

الذات هي التي تعطي المتدين الحس الذي ليلمس به حقيقة الذات المدبرة لهذا الكون ، يستمد منها العون كلما حزبه أمر . ولهذا فالعابد ، وكل ما في بطن الفلك يجمع للخالق عز وجل ، ويحسب له سبحانه . قال تعالى : ﴿ ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً ﴾^(١) وهذا الحصوع كما يقول النسخ عند الله دراز رحمه الله : « ليس هو ذلك الحصوع الذي يخلق البأس ، وبكيت النفس ، ويقل من الجهد ، ويحد مجال العمل ، ويسند باب الأمل ، بل هو شعور يرفه عن القلب بما بفتحته أمامه من آفاق الإمكانيات »^(٢) .

والعابد في موقعه أمام معبوده مورع بين الرعبه والرهبه التي نعبنه على النفاذ في بواطن الأمور ، وبالعقل يعرف أن وجود هذا الكون ، ووجوده فيه لس من ذاته ، وإنما صعبه - تفدير إرادة عليا - حالفة من ذات الباري ، الصانع سبحانه ونعالى . قال عز من فائل : ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر : وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾^(٣) فهو سبحانه مدير الأمر ، مرتب الأركان ، جاعل أمر بقاء الكون معلق بالإرادة الإلهية العليا التي سخرته ، ووضعت هذا النظام الدقيق وحفظته ، وهي قادره على حراسته وحفظه وتسبيره ، ثم إيمانه كأن لم يكن - حب لم يكن ونقدرته عز شأنه كان .

إن الله تعالى وحده هو الواحد الأحد الفرد الصمد ، الخالق لكل موجود سواه ، وكل ما حواه بطن الفلك من مخلوقات ، جعل له عز شأنه نظاماً دقيقاً بدير حركته ويحفظ بقاءه وانظامه ، وفق ناموس لا يتغير ولا يبدل ، وهذا هو الخبر الذاتي للحركة الكوبية .

على أن العابد نفسه يحمل في دانه قوة من الإيمان ، تحمل في ذاتها إمكانيات لا نهاية لها ، تعينه وتعضد قدرانه ، في أعماله ونجاربه اليومية ، وفي عروجه نحو الكمال بإرادته كاملة ، وحرية في الفعل حلمهما الله فيه ، وحمل سعيه في الحياة، مقترنا بهما . وهذا الكون في حالي الحر والاختيار يتطلع من داته إلى فطرته بالإيمان بمبدأ

(١) الرعد ١٥

(٢) عند الله دراز الدين ص ٧ .

(٣) القمر ٤٩ ، ٥٠

المخلوقات وهياتها ، ومبدأ الإنسان وهياته ، إلا أن هذا التطلع مقدر فرضاً بضرورة الاعتقاد بوجود الذات الإلهية ، وتحكمها في هذا الكون بكل ما فيه .

حتى الإنسان الوثني بفطرته يتطلع إلى التوحيد :

ترى الدراسات التي قامت حول الديانات الاحماعية والخرافية - فيما زعم أصحابها - أن الإنسان منذ فجر التاريخ كان يبحث عن إله يرعاه ويشعره بالسكينة ، ومع أن المعلومات عن هذه الديانات غير كافية لإلغاء الضوء عليها ، كما أنها غير دقيقة ، فإن المعارف القليلة والمجملة عنها تبين أنها وإن تعددت ، فقد تعرضت لعملية نفية من داخلها ، انتهت بسيادة الإله الأقوى ، أى أنها كانت تنزع إلى التفرد . ويستدل الدارسون على ذلك بألهة الهد « فألهة الهد المتعددة خضعت كلها في الهانة للإله براهما سيد الآلهة ورب العالمين - كما نعتوه - وخالق الإنسان ، وكل شيء في هذه الدنيا »^(١) مثله مثل ما حدث في مصر القديمة فبجانب الآلهة الكثيرة العدد وُحِدَ (رع) نمبزاً للإله الأعلى سيد آلهة المصريين الموجود بداته^(٢) ، وعند البابليين كذلك كان إله السماء هو أبو الآلهة وملكهم ، الذى بأنى بعده إله الأرض وإله البحر ، ثم بلبهما آلهة : القمر والشمس والعدالة والتشريع . أما الآشوريون الذين أخذوا معظم معتقداتهم عن البابليين فكان على رأس آلهتهم (آشور) الذى زعموا أنه يمتار عن سائر الآلهة ، بأنه لم يلد ولم يولد ولا فربة له . و « إن الاعتقادات بترتيب الآلهة في صورة إله أعلى ، وآلهة أدنى تدل على أن البابليين والآشوريين وغيرهم تدبنوا بالتوحيد في الأصل ، وأن هذه الآلهة الثانوية ليست إلا أسماء لصفات الإله الأعظم ، أو لمظاهر القدرة الإلهية في الطبيعة شخوصاً فأفسدوا عباده التوحيد ، كما حدث عند سائر الشعوب القديمة »^(٣) كما تدل على أن الاعتراف بهذه الآلهة ، لم نكس راجعة إلى إنكار الإله الأعظم ، بقدر ما كانت راجعة إلى الإشارك به ، فهم يقرون بالإله الخالق الأعظم ، ولكم أشركوا به ، فجعلوا معه آلهة أخرى متعددة

وثمة دليل على صحة القول بأن الناس - في البدء - كانوا على عقيدة التوحيد ،

(١) د . محمد إسماعيل الدوى . تراث الإسامية ص ٩٤ م ٦ العدد ١ .

(٢) د . إبراهيم بيومي مذكور ، ويوسف كرم . دروس في تاريخ الفلسفة ص ٧ ، ص .

(٣) د . عبد المعين أبو بكر . إحاطون ص ٣٥ .

ثم دت فيهم عقائد الشرك ، هو نزوع فكرة دينية مشتركة بين كل هذه الديانات القديمة ، تلك هي قصة الخلق التي تؤكد فكرة الوحدانية ، قبل أن تحدث ردة فيهم جعلتهم يجنحون عن منح الدين القيم ، وعلى سبيل المثال : « فإن المصريين القدماء ، وعلى الأقل أولئك الذين تفقهوا في الدين وعرفوا أسرارها ، قد اعتنقوا منذ عصر مكر ديانة الإله الواحد »^(١) وهي العقيدة الإلهية التي لم ينحصر سلطانها في وادي النيل فحسب بل امتد تأثيرها بين البشر في العالم ، لنعبر عن فكرة الإله الواحد^(٢) .

بيان من القرآن :

القرآن الكريم ، والآثار الصحيحة نبين أن هذه الأمم جميعاً كانت تدين بالتوحيد ، ولكنها اقترفت أعظم السيئات بجحود فضل الخالق عز وجل فأشركت به ، بل لقد بلغت في بعض الأحوال ، أن تدعى مشاركة الله في ملكه ، بل وسعت أن تكون له - حاشا لله - أنداداً . وإن فرعون طلب ذلك فقال : ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾^(٣) وقال . ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾^(٤) وانتهى به الأمر إلى ما عر عنه القرآن بقوله تعالى : ﴿ لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين ﴾^(٥) وانتهى الأمر بقومه بما قال القرآن الكريم فيهم ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه ﴾^(٦) .

يقول ابن تيمية رحمه الله في سبب الانحراف الإنساني ، الذي بلغ ببعض الناس ادعاء الألوهية أن^(٧) . النفس مشحونة بحب العلو والرياسة بحسب إمكانها ، فحد أحدهم يوالى من يوافقها على هواه ويعادى من يخالفه في هواه ، وإنما معبوده ما يهواه وما يريد . قال تعالى : ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً ﴾^(٨) والواحد من هؤلاء يريد أن يطاع أمره بحسب إمكانه ... فهم وإن

-
- (١) سليم حس الأديب المصري القديم ٢ / ١١١ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٥ م .
 - (٢) جيمس هري برستيد . انتصار الحضارة ص ١٣٧ ترجمة د أحمد محري ، مكتبة الأملو ١٩٦٢ م
 - (٣) القصص . ٣٨ .
 - (٤) البارات . ٢٤ .
 - (٥) الشعراء . ٢٩ .
 - (٦) الرحر ٥٤
 - (٧) ابن تيمية . الحسة والسيئة ص ١٢٤ ، ١٢٦ تحقيق حان ست على بن حافظ ، بشر الريان ١٩٨٨ م .
 - (٨) الفرقان . ٤٣

كانوا يقرون بالصانع ، لكنهم إذا جاءهم من يدعوهم إلى عبادته ، وطاعته المتضمنة ترك طاعتهم يعادونه كما عادى فرعون موسى ... وكما فعلت اليهود لما بعث الله محمداً ﷺ يدعو إلى مثل ما دعا إليه موسى قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم آمَنُوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم ﴾^(١) وقال تعالى : ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾^(٢) وقال تعالى : ﴿ وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ﴾^(٣) .

فاليهود كفرعون كما قال ابن تيمية رحمه الله . ولهذا أحبر تعالى عنهم بنطير ما أخبر عن فرعون ، وسلط عليهم من انتقم به منهم فقال تعالى : - في حق فرعون - ﴿ إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين ﴾^(٤) وقال تعالى : - في حق اليهود - ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلمن علواً كبيراً ﴾^(٥) .

وعلى عكس ما قال في هؤلاء قال تعالى في الصالحين : ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ﴾^(٦) .

ومع أن الفراعنة كان يُنظر إليهم - من قبل رعيّتهم - على أنهم ملوك وآلهة ، فقد تطلع أحدهم وهو إخناتون إلى التوحيد - بقدر ما سيرته إليه نفسه - فقد كان إخناتون - وهو فرعون - يرى في نفسه « إنساناً منطلقاً إلى الإله مأخوذاً بعظمته ، وكان عقله منقاداً بحساسة وإدراك مُدهِشّين إلى ما حوله من المظاهر الدالة على وجود الله »^(٧) .

وعلى كل حال ، فإن ما انتهى إليه الدارسون حول صحة فكرة تطلع الإنسان

-
- (١) القرة ٩١٠ .
(٢) البينة : ٤ .
(٣) الشورى ١٤ .
(٤) القصص . ٤ .
(٥) الإسراء . ٤ .
(٦) القصص ٨٣٠ .
(٧) جيمس هري برستيد . فجر الضمير ص ٣١٥ ترجمة سليم حسن - مراجعة عمر الإسكندري وعلى أدهم - الألف بتاب رقم ١٠٨ .

بفطرته إلى التوحيد ، بين أن البشر كانوا دائماً التطلع إلى عبادة الإله الواحد - حتى في رمس انتكاسات هذه الشعوب العقديّة ، وتُعدّها عن الديانات السماوية . ويستدل العلماء على صواب هذه الفكرة بأن الإله (رع) عند المصريين كان يراه المصريون « الموحود بداته وخالق غيره » وإن تعددت أسماؤه بين رع وحورس وآمون ، ولهذا فتطور الإله الواحد تحت اسم آتون ، لم يكن من فراع ، فلم يكن إلا تطهيراً لما لحق رع من دس»^(١) .

وكما اعتقد المصريون القدماء أن (رع) هو الموحود بداته ، فقد أكدت الأساطير الهندية على القول بأن الإله (براهما) هو الموجود الأول ، خَلَقَ من أعماق قلبه الإلهة (ساراسوتي) وتزوجها . وفي الوقت نفسه حكّت ديانات السومريين والأكاديين والأشوريين أن آلههم « أزلبة وأها هي التي خلقت الكون والإنسان . وسبب هذا الإيمان واضح وبسط ؛ لأنهم كانوا يتحسسون تأثير هذه العوامل الجوية (الآلهة) على حياتهم ، وعلى محاصيلهم الزراعية ، ولكنهم لا يعلمون كيف تكوّنت في الأصل فحولوها إلى آلهة واعتبروها أزلية ، وكان على رأس هذه الآلهة : الإله (آو) وهو إله السماء وترتيبه من حيث الأهمية ، في قمة الآلهة السومرية الرئيسية»^(٢) وهذا بخلاف ما قيل من أن الإله (مارودخ Marduk) إله الآلهة الذي خلق الآلهة ، وحلّ السماء سكناً لها ، وخصّص الأرض سكناً للبشرية التي خلقها .

وفي الصين رأوا أن الوحود الأول خلق إله الآلهة (يوتي Yuti) ثم خلق أول ما خلق الإنسان من الطين»^(٣) .

ومن هذه المزاعم كلها يستبين أنه لم يشد عن فكرة التوحيد في الأمم القديمة إلا الرومان واليونان - مرجع الحضارة الأوربية والأمريكية المعاصرة - فقد كان لهم آلهة في شئون الحياة ، ولكنها كانت مستحلبة من الأمم المجاورة فقد استعاد الإغريق « آلهة شرقية مختلفة من مصر وغيرها مثل الآلهة : ايريس وايروريس وساراميس وميترا وعبرها من الآلهة الشرقية»^(٤) . وكانت أول صورة مهددة لإله يوناني كانت صورة

(١) د محمد إسماعيل الدوي المرجع السابق ص ٩٧

(٢) سليم حسن . الأدب المصري القديم ٢ / ٨٦ ود . عبد المعتم أبو بكر . إحتاتون ص ٧٨

(٣) د محمد إسماعيل الدوي . المرجع السابق ص ٩٦ - ٩٧

(٤) جورج سارنون تاريخ العلم ٥ / ٣٨ ترجمة لفيق من العلماء دار المعارف سنة ١٩٧١ م

إله إفلاطون المتعالى الذى يتمثل فى « فكرة الحق المتعالى على الطبيعة المحسوسة ، كما تعبر عنها المثل الأبدية »^(١) . ثم إله أرسطو المنغلق على نفسه الأنانى الذى لا يفكر إلا فى كمال ذاته .

وكان شنودز اليونانيين عن بقية الأمم القديمة ذات الحضارة فى مجال العقيدة يرجع إلى أن اليونانيين كانوا نزاعين إلى الخرافات الشعرية منهم إلى العلم الإلهى ، ولم تكن لهم كتب مقدسة ولا عقائد^(٢) .

وأيا ما كان الأمر فإنه من الأدلة ذات الأهمية فى تثبيت وجود قاسم مشترك بين هذه الديانات القديمة قصة الطوفان ، وإن وجودها فى كل آثار الديانات القديمة بشكل عام موحد لا تفرد به الآثار البابلية ، وعلى سبيل المثال فإن قصة الطوفان فى كلا الروايتين الأشورية والسومرية تكاد تطابق رواية التوراة « فقد استخدمت الأحداث نفسها فى رواية التوراة من بقاء المركب ، وجلب الحيوانات ، والطوفان ، وفقد الطيور ، وتقديم الأضحية »^(٣) .

ولقد أخذت هذه القصة طريقها إلى الحضارة والديانات فى صورته متعاونة فى حضارة بابل وآشور والسومريين ، وفى حضارة مصر القديمة ، وكذلك فى الديانة الهندية القديمة ، واستعارتها الأساطير الإغريقية القديمة من أساطير الديانة فى بابل وآشور^(٤) .

وفى العصر الحديث ، فلا يزال الإنسان الوثنى فى بعض الأماكن من إفريقيا السوداء ينطلع إلى عقيدة التوحيد بوجهها القديم ، فعقيدة التوحيد لا تزال توجهاً عاماً بين القبائل التى لا تزال على وتيتها ، ولم تعتق ديناً سماوياً بعد .

إن هذه النماذج من العبادات الوثنية المتطلعة إلى التوحيد لا تزال موحودة فى إفريقيا السوداء بجانب الديانات السماوية الثلاثة ، وإن كان ثمة تطور قد طرأ عليها ، فأصبحت

(١) سارون . تاريخ العلم ٣ / ٥٠

(٢) نسه ١ / ٤٠٤ .

(٣) ن - ك - ساندرر . ملحمة حلحامش ترجمة محمد سيل نوفل ، وفاروق القاصى - دار المعارف ستة

١٩٧٠ م

(٤) العقاد : إبراهيم أبو الأسياء ص ١٦٨ ، دار الهلال د . ت .

كلها ترمى إلى فكرة الإله الواحد ، وهي تعادل في عقل هؤلاء البدائيين فكرة الإله الأعلى ، التي تكاد تكون موجودة لدى جميع القبائل الوثنية ، بل إن مفهوم الذات الإلهية الكلية الحضور ، والذاتية الاكتفاء ، والشاملة الفدره تحده بن كمبر من المسائل الإفريقية الوثنية (١) .

كذلك لا تزال الأقلية الررادشية في إيران تمارس عبادتها « فناريج الديانة الفارسية عامة ، وتاريخ ررادشيت خاصة ، على ارساط وثيق تتوارخ العقائد الأسبونية ، وتوارخ بعض العقائد في مصر واليونان ، ولكن زرادشت الحديد أنكر الوثنية ، وحعل الخير المحض من صفات الله ... وحاول جهده أن يفصر الربانية على إله واحد ، موصوف بأرفع ما يفهم أبناء زمانه من صفات النزبه » (٢) .

وكل هذا يؤكد أن الإنسان مفطور بحكم خلقه على التوحيد ، وإن ضل عنه في مسيرة حياته الطويلة .

(١) حاك مدلسون . الرب والإله في الأديان الإفريقية المعاصرة ص ٨ ترجمة إبراهيم أسعد محمد دار المعارف

١٩٧١ م .

(٢) العقاد . إبراهيم أبو الأنبياء .

الفصل السادس

الدين لله وحده

الدين لله وحده

الدين لله وحده ، لا شريك له في الملك ، ولا شريك له في العبادة .
هكذا أسأنا القرآن الكريم ، وقص علينا أن آدم أنا البشر ، كان موحداً عابداً لله وحده بلا شريك ، وكان أول الأنبياء الذين دعوا إلى عبادة الله وحده ، فدعوة الإنسان إلى التوحيد ، بدأت مع بدأ الخلق ، وبعث آدم عليه السلام نبياً بمقتضى الميثاق الذي أخذه الله حل شأنه من آدم ودريته .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ (١) .

قال الطحاوي رحمه الله : « أحبر سبحانه أنه استخرج درية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكم ، وأنه لا إله إلا هو » (٢) .
والأحاديث الشريفة الواردة في أخذ الدرية من صلب آدم والإشهاد عليها كثيرة ، وكذا في تمييز هؤلاء الدرية إلى أصحاب اليمين ، وإلى أصحاب الشمال ، وفي بعضها الإشهاد عليهم بأن الله ربهم .

روى الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس رضی الله عنهما عن النبي - ﷺ - قال : « إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بـ (نعمان) يوم - عرفة - فأخرج من صلبه كل درية ذراً فثرها بين يديه ، ثم كلمهم قبلاً قال : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ ؟ قالوا : بلى شهدنا - إلى قوله - : ﴿ المبطلون ﴾ » (٣) .

وروى الإمام أحمد - رحمه الله - عن أنس بن مالك رضی الله عنه عن النبي

(١) الأعراف . ١٧٢ .

(٢) أبو جعفر أحمد بن محمد الطحاوي : شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٠٥ .

(٣) صححه الشيخ محمد نصر الدين الألباني لطرقه وشواهد - وقد حرحه في مجموعة الأحاديث الصحيحة - رقم ١٦٢٣ ، والآيتان من سورة الأعراف ١٧٢ ، ١٧٣ .

ﷺ قال : « يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديا به ؟ قال : فيقول : نعم . قال : فيقول : قد أردت منك أهون من ذلك . قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً ، فأبيت إلا أن تشرك بي شيئاً »^(١) .

قال الطحاوي رحمه الله : « وقول أهل السلف والخلف : إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرتهم على التوحيد .

وأنه سبحانه أخبر أن حكمة ما الإشهاد إقامة للحجة عليهم لعلا يقولوا يوم القيامة ﴿ إنا كنا عن هذا غافلين ﴾ والحجة إنما قامت عليهم بالرسول والفطره التي همروا عليها ... ولا شك أن الإقرار بالربوبية أمر فطري ، والشرك حادث طارئ ، والأبناء تقلدوه عن الآباء ، فإذا انحوا يوم القيامة بأن الآباء أشركوا ، ونحن حربنا على عاداتهم كما يحرق الناس على عادة آبائهم في المطاعم والملابس والمساكن يقال لهم : أنتم كنتم معترفين بالصانع ، مفرين بأن الله ربكم لا تشرك له ، وقد شهدتم به على أنفسكم ، فلم عدلتم عن هذه المعرفة ، والإقرار الذي شهدتم به على أنفسكم إلى الشرك ؟ بل عدلتم عن المعلوم المتيقن ، إلى ما لا يعلم له حقيقة ، تقليدا لما لا حجة له ... فمن اتبع دين آباءه بغير بصيرة وعلم ، بل يعدل عن الحق المعلوم إليه ، فهذا اتباع هواه ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾^(٢) .^(٣)

ويؤيد ذلك حديث « كل مولود يولد على الفطرة » وأن من قال بإثبات القدر ، وأن الله كتب الشقى والسعيد ، لم يمنع ذلك أن يكون ولد على الإسلام ثم يغير بعد ذلك . يقول ابن تيمية رحمه الله : « والآثار المنفولة عن السلف لا تدل إلا على هذا القول ، وهو أنهم ولدوا على الفطرة ، ثم صاروا إلى ما سبق في علم الله فيهم من سعادة وشقاوة ، لا تدل على أنه حين الولادة لم يكن على فطرة سليمة مقتضية للإيمان ، مستلزمة له لولا المعارض »^(٤) قال تعالى : ﴿ كما بدأكم تهودون فريقاً هدى

(١) متفق عليه وفي المسند ٣ / ١٢٧ - ١٢٩

(٢) النقرة ١٧٠

(٣) الطحاوي شرح العقيدة الطحاوية ص ٢١٢ ، ٢١٣

(٤) ابن تيمية : درء تعارض العقل والنقل ص ٢٣١ - إعداد د . محمد السيد الحليد ، مراجعة د . عبد الصبور شاهين الأهرام ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م

وفريقاً حتى عليهم الضلالة»^(١) .

روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه كما تنتجون البهيمة ، هل نجدون فيها من حدعاء ، حتى تكوبوا أنتم تجدعونها ؟ » قالوا : يا رسول الله : أفرايت من يموت وهو صغير . قال : « الله أعلم بما كانوا عاملين »^(٢) .

ثم هم بصيرون إلى ما علم الله فيهم .

قال ابن عبد البر رحمه الله : « من ابتداء الله خلقه للصلالة صيره للضلالة ، وإن عمل بعمل أهل الهدى ، ومن ابتداء خلقه على الهدى صيره إلى الهدى ، وإن عمل بعمل أهل الضلالة ، ابتداء خلق إبليس على الضلالة ، وعمل بعمل أهل السعادة مع الملائكة ، ثم رده الله إلى ما ابتداء خلقه من الضلالة »^(٣) قال : (وكان من الكافرين) .
أخرج مسلم رحمه الله فى صحيحه عن زيد بن وهب عن عبد الله قال : « حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : إن أحدكم يُجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون فى ذلك علقة مثل ذلك ، ثم يكون فى ذلك مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الله الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أم سعيد ، فوالله الذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار ، فيدخلها . وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها »^(٤) .

والمراد بالذراع كما يقول النووى : « التمثيل للقرب من موته ودخوله عقبه ، وأر نلك الدار ما بقى بينه وبين أن يصلها ، إلا كمن بقى بينه وبين موضع من الأرض ذراع .

والمراد بالحديث أن هذا قد يقع فى نادر من الناس ، لا أنه غالب فيهم ، ثم إبه من لطف الله تعالى وسعة رحمته انقلاب الناس من الشر إلى الخير فى كثرة ، وأما

(١) الأعراف ٢٩ ، ٣٠

(٢) صحيح البخارى : كتاب القدر - باب الله أعلم بما كانوا عاملين ٨ / ١٥٣

(٣) ذكره ابن تيمية فى درء تعارض العقل والنقل ص ٢٣١

(٤) صحيح مسلم بشرح النووى : ١٦ / ١٩٠ ، ١٩٢ ، كتاب القدر ، باب كيفية خلق آدمى

انقلابهم من الخير إلى الشر ففى غاية الندور ، ونهاية القلة»^(١) .

ومعرفة الله تعالى بالفطرة غير الإيمان به سبحانه ، ولكنها فطرة ألزمها الله قلوبهم وهو يخلقهم قبل أن يرسل إليهم الرسل بالإيمان ، والاعتراف بالربوبية ، والإقرار بها ، والخضوع لله ، يصدق ذلك قوله تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾^(٢) فهم يقرون بالربوبية ، ولكن كان فى علم الله قبل خلقهم من يكذب به ومن يصدق . قال تعالى : ﴿ ألم يأتكم نبال الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب * قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين ﴾^(٣) .

والمعنى كما يقول ابن تيمية : « ما فى الله شك ... فدل ذلك على أنه لیس فى الله شك عند الخلق المخاطبين ، وهذا يبين أنهم مفطورون على الإقرار»^(٤) فإن العقول السليمة والفهوم المستقيمة تشهد بضرورة فطرتها ، وبديهة فكرتها بوجود الصانع ، ولهذا إنما تواردت الملل والشرائع بمعرفة التوحيد ، لا بمعرفة وجود الصانع ، قال صلوات الله عليه : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله»^(٥) .

فالدعوة إنما وردت بمعرفة توحيده ، لا بمعرفة وجوده . قال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾^(٦) .
وقال تعالى : ﴿ أفى الله شك ﴾^(٧) .

إنما وقع الخلاف فى نفي الشريك ، كما مضى فى غير موضع من التنزيل . قال تعالى : ﴿ إذا دعى الله وحده كفرتم ﴾^(٨) وقال تعالى : ﴿ وإذا ذكرت ربك فى

(١) نفسه ١٦٠ / ١٩٢ .

(٢) لقمان ٢٥٠ .

(٣) إبراهيم ٩ ، ١٠ .

(٤) ابن تيمية . درء تعارض العقل والنقل ص ٢٥٦ .

(٥) صحيح مسلم . كتاب الإيمان ، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله .

(٦) الرحرف ٨٧ (٧) إبراهيم : ١٥ (٨) عامر : ١٢ .

القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً ﴿١﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة
وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ﴾ ﴿٢﴾ إلى غير ذلك ، وهذا لا خلاف
فيه (٣) .

والفطرة تجعل الإنسان أميل إلى حب الله وخضوعه له ، وإخلاص الدين له
عز وجل ، كذلك فإن في الفطرة قوة إرادية موجبة لحب الله ، وإخلاص العبودية له .
روى أحمد في مسنده : عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة
رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ليلة أسرى بي أتيت بقدرين : قدح
لن ، وقدح خمر فنظرت إليهما فأخذت اللبن . فقال جبريل : الحمد لله الذي هدانا
للفطرة ، لو أخذت الخمر غوت أمتك » .

فالفطرة ههنا موجهة لحب الله ، كما أن فيها قوة إرادية اقتضت شرب اللبن ورددت
الخمر ، ولكن هذا الإقرار الفطري ؛ لكي يكون نافعاً للعبد لا بد أن يكون الله به
هو المعبود وحده . يقول ابن تيمية رحمه الله : « فالإقرار بالصانع بدون عبادته بالمحبة
له والذل له ، وإخلاص الدين له ، لا يكون نافعاً ، فلا بد أن يكون في الفطرة مقتضى
للعلم ، ومقتضى للمحبة ، والمحبة مشروطة بالعلم ، فإن ما لا يشعر به الإنسان لا
يجبه ، والحب للمحبوب لا يكون بسبب من خارج ، بل هو جبلي فطري ، وإذا
كانت المحبة جبلياً ففطرية فشرطها - وهو المعرفة أيضاً - جبلي فطري ، فلا بد أن يكون
في الفطرة محبة الخالق مع الإقرار به » (٤) .

ومقتضى الكلام من قوله تعالى : ﴿ وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم
ذرياتهم ﴾ (٥) .

(١) الإسراء ٤٦ .

(٢) الرمر : ٤٥

(٣) كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري : الداعي إلى الإسلام ص ٢٠٠ دراسة وتحقيق

سيد حسين ناعحوان ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م

(٤) ابن تيمية درء تعارض العقل والنقل ص ٢٥٦ ، والحديث أخرجه أحمد في مسنده ٥١٢ / ٢ .

(٥) الأعراف : ١٧٢

ومن حديث رسول الله ﷺ الذي رواه مسلم عن الزهري عن سعيد بن المسيب
 « أبي هريرة رضى الله عنه أنه كان يقول : قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود
 إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ويصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة ، بهيمة حمراء
 من تحسون فيها من جدعاء » ثم يقول أبو هريرة : واقرأوا إن شئتم ﴿ فطرة الله التي
 بخلق الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾ (١) .

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة أيضاً : فقال رجل : يا رسول الله أرأيت لو مات
 رجل ذلك قال : « الله أعلم بما كانوافاعلس » (٢) .

يعنى أن الناس فطروا على معرفه الخالق ، أما الإيمان فمدنعى بالعلم والعمل
 والإرادة وحب الخالق . عن أنى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
 « المؤمن القوى ، خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف . وفي كل خير ، احرص
 على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أنى فعلت
 كذا لكان كذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل
 الشيطان » (٣) .

ولهذا فإن العبد عند الشدائد يجب عليه النظر إلى القدر : فإن الإنسان حساس
 يتحرك بالإرادة ، ولهذا قال ﷺ : « أصدق الأسماء الحارث وهمام ، وأحبها إلى الله
 محمد الله وعبد الرحمن » .

« فإن الإنسان لا بد له من حرث ، وهو العمل والحركة و الإرادية ، ولا بد له
 من أن يهتم بالأمر ، منها ما يهتم به ويفعله ، ومنها ما يهتم به ولا يفعله ، فإن كان
 المراد موافقاً لمصلحته كانت الإرادة حسنة محمودة ، وإن كان مخالفاً لمصلحته كانت
 الإرادة سيئة مذمومة ، كمن يريد ما يضر عقله ونفسه وبدنه » (٤) .

(١) الروم : ٣٠

(٢) أحرجه مسلم . كتاب القدر - باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ١٦ / ٢٠٧ - ٢٠٩ ،
 والبحارى - باب في الجوائز ٢ / ١١٨ - الشعب

(٣) أحرجه مسلم : كتاب القدر - باب الإيمان للقدر والإدعاء له ١٦ / ٢١٥ ، وأحمد بن حنبل في مسنده
 ٢ / ٣٦٦ ، ٣٧٠

(٤) ابن تيمية : تقرير درء تعارض العقل والنقل ص ٢٦٠ .

وختلاصة القول :

- ١ - إن الإنسان مفطور على معرفة الخالق ، والإيمان به وحبه .
- ٢ - إن فى فطرة الإنسان مفتضى اقتضى به توحيد الخالق ، والإقرار له بالعبودية
- ٣ - إذا كان الإنسان يرجع ميله إلى الحيفية ، فإن ذلك يقتضى ميله إلى الإسلام بالضرورة الحتمية ، فإن ﴿ الدين عند الله الإسلام ﴾ .
- ٤ - ليس معنى أن الإنسان يولد على الفطرة ، يقتضى معرفة الخالق والإيمان به ، وتوحيده منذ ولادته ، فإن الإنسان حين ولادته لا يعقل ، وفى ذلك يقول تعالى : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ﴾^(١) ولكن الله بفضله به ، ويحصل مقصود الفطرة ، وهذا ما دل عليه الحديث ، إذا حصل قوة العلم والإرادة ، والعمل بهما ، وبموجبهما ، فإذا وقف فى سبيل ذلك عارض فلا يحصل مقصود الفطرة التى ولد عليها من حب جلب المنافع ودفْع المضار . ومعنى هذا أن الفطرة السليمة إذا لم نمل إلى ما يفسدها حصلت مقصودها من معرفة الله ، والإيمان به والإذعان بعبوديته وتوحيده ، وهذا لا يتحقق إلا للمسلم . فاليهود يعرفون الحق لكن لا يعملون له ، والنصارى يحبون الله ، لكن بلا علم ، بل مع ضلال و جهل . قال صلى الله عليه وسلم : « اليهود مفضوب عليهم ، والنصارى ضالون »^(٢) ولهذا أمرنا سبحانه وتعالى فى الصلاة أن ندعوه جل ثناؤه ﴿ اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المفضوب عليهم ولا الضالين ﴾^(٣) فيتحقق بذلك معرفة الحق والعلم به ، والعمل على توحيده ، وبه يحصل المقصود .

* * *

فإذا كنا نؤمن بأن الله قضى ألا نعبد إلا إياه قال تعالى : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾^(٤) وأنه تبارك وتعالى خلق الجن والإنس لعبادته قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾^(٥) فبادا نفس نشأة الديانات الأخرى ، التى

(٢) رواه الرمذى وصححه .

(٤) الداريات : ٥٦ .

(١) السجدة . ٧٨

(٣) المائدة ٦ ، ٧ .

(٥) الإسراء ٢٣

أطلقت عليها الوضعيون الاجتماعيون : الديانات الوثنية أو البدائية أو الخرافية إلى غير ذلك من التسميات ؟

يمكن إرجاع ذلك لما حدث من ردة عند بعض من بين الموحدين في فترات من التاريخ الإنساني من لدن آدم عليه السلام . ولهذا السبب كان الله سبحانه وتعالى يبعث الرسل في فترات متعاقبة ؛ ليذكروا الناس بعبادة الإله الواحد الذى لا إله غيره ، كلما خبا نور الإيمان ، وانحرف بعض الناس عن الصراط المستقيم . قال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ (١) .

ولقد تبه علماء المسلمين إلى هذه المسألة ، وهم يفسرون قوله تعالى : ﴿ وقالوا لا تذرنا آلهتكم ولا تذرنا وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً ﴾ (٢) . قال أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة : « كان بين آدم ونوح عشرة قرون » كلهم على الإسلام » (٣) .

وقال ابن تيمية رواية عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « كان بين آدم ونوح عشرة قرون ، كلهم على الإسلام » (٤) .

وبهذا يستبين أن بنى آدم ظلوا على التوحيد ابتداء من بعث آدم عليه السلام ، ولكن في زمان متأخر قبل بعث نوح عليه السلام جاء من عمل الأصنام ، ورجع عن الإسلام .

فقد روى الطبرى في تاريخه قال : حدثنى الحارث قال : حدثنا ابن سعد قال : أخبرنى هشام قال : أخبرنى أبى عن أبى صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « فى زمان (يارد أو يزد) عملت الأصنام ، ورجع من رجع عن الإسلام » .

(١) السجل : ٣٦ .

(٢) نوح : ٢٣ .

(٣) ابن قتيبة . كتاب المعارف ص ٥٧ ، حققه وقدم له د . ثروت عكاشة ، الطبعة الثانية ، دار المعارف . ١٩٦٩ .

(٤) اس تيمية : البوات ص ١٧٣ ، إدارة الطباعة المنيرية ١٣٤٦ هـ .

ويؤكد الطبري ذلك في روايات ثلاثة قال : « وقد روى عن جماعة من السلف أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على ملة الحق ، وأن الكفر بالله إنما حدث في الذين بعث إليهم نوح عليه السلام وقالوا : إن أول نبي أرسله الله إلى قوم بالإندار والدعاء إلى توحيده نوح عليه السلام »^(١) .

وذكر الطبري من ذكر ذلك فقال : حدثنا محمد بن بشار . قال : حدثنا أبو داود ، قال : حدثنا همام عن قتادة ، عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان بين نوح وآدم عليهما السلام عشرة قرون ، كلهم على شريعة من الحق ، فاختلفوا ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين . قال : وكذلك في قراءة عبد الله ﴿ كان الناس أمة واحدة فاختلفوا ﴾ قال تعالى : ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾^(٢) .

قال أبو جعفر : « فتأويل الأمة على هذا القول الذي ذكرناه عن ابن عباس : الدين كما قال النابغة الذبياني :

حلفت فلم أترك لنفسك رية وهل يآتمن ذو أمة وهو طائع

يعنى ذا الدين .

فكان تأويل الآية على معنى قول هؤلاء : كان الناس أمة واحدة مجتمع على ملة واحدة ودين واحد فاختلفوا ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين .

وأصل الأمة كما قال الطبري رحمه الله : « الجماعة تجتمع على دين واحد ، ثم يكتفى بالخبر عن الأمة ، من الخبر عن الدين لدلالاتها عليه ، كما قال جل ثناؤه : ﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ﴾^(٣) يراد به أهل دين واحد ، وملة واحدة ، فوجه ابن عباس في تأويله قوله ﴿ كان الناس أمة واحدة ﴾ إلى أن الناس كانوا أهل دين واحد حتى اختلفوا » .

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ١ / ١٧٠ ، دار المعارف ، الطبعة الرابعة ١٩٧٩ .

(٢) البقرة : ٢١٣ .

(٣) المائة : ٤٨ .

وهذا هو التأويل الذي رجحه الطبري رحمه الله فقال : « وأولى التأويلات في هذه الآية بالصواب أن يقال : إن الله عز وجل أخبر عباده أن الناس كانوا أمة واحدة على دين واحد وملة واحدة ... وكان الدين الذي كانوا عليه : دين الحق ، فاختلفوا في دينهم ، فبعث الله عمداً اختلافهم في دينهم النبيين مشرّين ومذرّين ، وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه رحمة منه حل ذكره بحلقه واعتذاراً منه إليهم ... »

وإن دليل القرآن واضح على أنهم كانوا أمة واحدة على الإيمان ودين الحق ، دون الكفر بالله والشرك به ، وذلك لأن الله جل وعز قال في السورة التي يذكر فيها يونس عليه السلام : ﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ولو لا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون ﴾^(١) فتوعد جل ذكره على الاختلاف ، لا على الاجتماع ، ولا على كونهم أمة واحدة^(٢) .

وهؤلاء الذين كانوا على الهدى فاختانفوا وارتدوا عن دين الحق ، أنبا القرآن الكريم أنهم كانوا أهل أوثان ، وذلك أن الله عز وجل يقول مخبراً عن نوح ﴿ قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً * ومكروا مكراً كباراً * وقالوا لا تذرن آهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يفوث ويعوق ونسراً * وقد أضلوا كثيراً ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً ﴾^(٣) .

أضلوا كثيراً فبعث الله إليهم نوحاً عليه السلام فخوفهم بأسه ، وحذرهم سطوته ، وداعياً لهم إلى التوبة والمراجعة إلى الحق .

قال أبو جعفر : « فليست فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً كما قال عز وجل يدعوهم إلى الله سرّاً وجهراً ، يمضي قرن بعد قرن ، فلا يستجيبيون له حتى مضى قرون ثلاثة على ذلك من حاله وحالهم . فلما أراد الله عز وجل إهلاكهم دعا عليهم نوح عليه السلام فقال ﴿ رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا

(١) يوس ١٩

(٢) الطبري تاريخ الرسل والملوك ١ / ١٧٨

(٣) نوح . ٢١ - ٢٤

خساراً ﴿١﴾ ﴿٢﴾ .

ومما رواه الطبري وغيره من أئمة السلف رحمهم الله تستبين الردة التي أملت بالبشر في تاريخ التوحيد ، ومع هذا لا نسي أن نوحاً عليه السلام بُعث ليعالج ما أصاب الناس لما ارتدوا عن عقيدة التوحيد ، ليصحح مسارها بعد أول ردة في تاريخ البشر كما صورتها الآية الكريمة ﴿ وقالوا لا تذرنا آلهتكم ولا تذرنا وداً ولا سواعاً ولا يفتوت ويعوق ونسراً ﴾ وقد أضلوا كثيراً ﴿٣﴾ فهي تصور العبادة التي كان عليها قوم نوح لما أشركوا بالله ، الأصنام التي ذكرتها الآية بأسمائها ، ونوح هو الأب الثاني للبشرية ، وهذا يوضح أن تلك الردة الدينية حدثت في الفترة فيما بين آدم ونوح عليهما السلام .

يقول العلامة الألوسي في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وقالوا لا تذرنا آلهتكم ولا تذرنا وداً ولا سواعاً ولا يفتوت ويعوق ونسراً ﴾ « لا تتركوا عبادة آلهتكم إلى عبادة رب نوح عليه السلام » ﴿٤﴾ ومعنى هذا أنهم كانوا يعترفون برب نوح عليه السلام ، ولكنهم لا يؤمنون بنوح صلاً منهم واستنكاراً ، وحتى عندما قال لهم نوح عليه السلام ﴿ هو ربكم وإليه ترجعون ﴾ ﴿٥﴾ لم يعارضه أحد في قضية الألوهية ، ولكنهم أرادوا أن يؤمنوا بقوه بعض الآلهة الأخرى ، وتأثيرها عليهم ، بجانب اعترافهم بقوة الله وإرادته ﴿ وقالوا لا تذرنا آلهتكم ولا تذرنا وداً ولا سواعاً ولا يفتوت ويعوق ونسراً ﴾ « إهم لم يشكوا في أن الله تعالى ربهم وخالقهم ، ومالك الأرض والسماء ، ومدبر الكون ، ولكنهم أرادوا أن يشركوه تعالى مع أربابهم ورؤسائهم وأحبارهم في شؤون الأخلاق ، والاجتماع والسياسة ، وسائر شؤون الحياة الإنسانية » ﴿٦﴾ .

وأصل هذه الأصنام على ما جاء في صحيح البخاري قال : حدثنا إبراهيم بن موسى أخبرنا هشام عن ابن جريج ، وقال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما :

-
- (١) نوح . ٢١
 - (٢) الطبري . تاريخ الرسل والملوك ١ / ١٧٩ ، ١٨٠
 - (٣) نوح ٢٣ ، ٢٤ .
 - (٤) الألوسي روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٢٩ / ٧٧ .
 - (٥) هود : ٣٤ .
 - (٦) أبو الأعلى المودودي : المصطلحات الأربعة ص ٤٩ ، دار التراث العربي ١٩٧٥ م

« صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد ، أما وُدُّ فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع فكانت لهذيل ، وأما يغوٲ فكانت لمعاد ثم لبني غطيف بالجوف عند سبأ ، وأما يعوق فكانت لهمدان ، أما نسر فكانت لحمير لآل ذى الكلاع . أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصباً وسموها بأسمائهم ففعلوا ، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتَنَسَخَ العلم عبت «^(١) .

والروايات التي تروى في تفسير الآية (٢٣) من سورة نوح تستشهد بالذي رواه الإمام البخاري رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما في صحيحه ، وربما كانت هناك زيادات في التفصيل .. عند بعضهم - ولكن الروايات في أغلبها لا تخرج عن هذا المعنى . وعلى سبيل المثال لا الحصر لهذه الروايات نذكر بعضها :

أخرج البخاري في صحيحه عن ابن حميد حدثنا مهران عن سفيان ، عن موسى عن محمد بن قيس . قال : « إن يغوٲ ويعوق ونسراً كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون ، دب إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم ويقتدون بهم يسقون المطر فعبدوهم »^(٢) .

وذكر الزمخشري في تفسيره رواية البخاري ، وزاد عليها قوله : « ولذلك سمى العرب بعبد ود ، وعبد يعوق ، وقال أيضاً : وقيل : هي أسماء رجال صالحين ، وقيل : هم من أولاد آدم ماتوا فقال إبليس لمن بعدهم : لو صورتم صورهم فكنتم تنظرون إليهم ففعلوا ، فلما مات أولئك قال لمن بعدهم : إنهم كانوا يعبدونهم فعبدوهم »^(٣) .

وروى الشهرستاني الرواية بطريقة توافق موضوع كتابه في الملل والنحل فقال : « أول من وضع الأصنام عمرو بن لحي لما ساد قومه بمكة واستولى على أمر البيت ، وكان صار إلى مدينة البلقا بالشام ، فرأى قوماً يعبدون الأصنام فسأهم عنها . فقالوا : هذه أرباب اتخذناها على شكل الهياكل العلوية ، والأشخاص البشرية نستنصر بها

(١) صحيح البخاري : ٦ / ١٩٩ ، كتاب التفسير ، مطبعة الشعب .

(٢) صحيح البخاري : ٦ / ١٩٩ ، كتاب التفسير ، طعة الشعب ، وابن كثير : تفسيره ٤ / ٤٢٦ ، ٤٢٧ .

(٣) الزمخشري : الكشاف ٣ / ٢٧٢ .

فننصر ، ونستسقى بها فنسقى ، فأعجبه ذلك فطلب منهم صنماً من أصنامهم ، فدفعوا إليه هبل فسار به إلى مكة ووضعها في الكعبة»^(١) .

وهكذا عبدوا الأصنام تشفيعاً منهم ، ووسيلة إلى الله تعالى ، وفي هذا يقول الشهرستاني : فكانوا يعبدون الأصنام التي هي الوسائل : ودأ وسواعاً ويغوث ونسراً ، وكان ود لكلب ، وهو بدومة الجندل ، وسواع لهذيل ، وكانوا يحجون إليه ويسحرون له . ويغوث لمدجج ولقبائل من اليمن ، ويعوق لهمدان . ونسر لذى الكلاع بأرض حمير . وأما اللات فكانت لثقيف ، والعزى لقريش ، وجميع بنى كنانة ، وقوم من بنى سليم ، ومناة للأوس والخزرج وغسان وهبل أعظم أصنامها عندهم ، وكان على ظهر الكعبة وأساف ونائلة على الصفا والمروة ... إلخ^(٢) .

وكذلك فإن رواية القرطبي المفسر لا تكاد تختلف عن هذه الروايات والأخبار ، فقد روى القرطبي عن محمد بن قيس أن ودأ وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح ، وكان لهم تبع يقتدون بهم ، فلما ماتوا زين لهم إبليس أن يصوروا صورهم ليتذكروا بها أجدادهم ، ولتسلوا بالنظر إليها فصورهم ، فلما ماتوا هم وجاء آخرون قالوا : ليت شعرنا : هذه الصور ما كان آباؤنا يصنعون بها ؟ فجاءهم الشيطان فقال : كان آباؤكم يعبدونها فترحمهم وتسقيهم المطر فعبدوها ، فابتدئ عباد الأوثان من ذلك الوقت^(٣) .

إن كل الروايات التي رويت في تفسير هذه الآية ، توضح كيف كانت عبادة هذه الأصنام ردة دينية أصابت بعض الذين كانوا على التوحيد ، فقد رمزت في البداية إلى تقديس بعض الصالحين الذين كانوا لا يشركون مع الله آلهة أخرى ، ثم أغواهم الشيطان فغالوا في تقديسهم لها حتى تحول إلى عبادة للأوثان ، ونسوا أنها لا تنفع ولا نضر ، وتحول التقديس الذي - كما زعموا - واسطة تقربهم إلى الله ، إلى عبادة ، وبعد أن كانت باعقادهم واسطة تقربهم إلى الله ، صارت عبادة لذاتها ، بدأت بعبادة هذه الأوثان الخمسة ، التي نصبوها للأسلاف الخمسة ، ثم تفرع منها أعداد لا حصر

(١) الشهرستاني . الملل والنحل ٤ / ١٠١ - ١٢٠ ، على هامش الفصل لابن حزم .

(٢) نفسه : ٤ / ١٠٩ ، ١١٠ .

(٣) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ١٨ / ٣٠٨ ، طعة دار الكتب .

لها من مثل هذه الآلهة الوثنية ، « وشأن هؤلاء كشأن كل الأولياء والقديسين ، الذين يتشفع بهم أبناء كل جهة في الأمم التي تؤمن بالوحدانية ... أما العقيدة الإلهية فهي واحدة »^(١) .

ويستبين من النصوص « أن سبب نزوع الناس إلى عبادة الأوثان هذه ، وتحولهم عن ديانة التوحيد وتركهم دينهم ، هو الغلو في الصالحين »^(٢) قال تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ﴾^(٣) وكذلك قال عز من قائل ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً ﴾^(٤) .

ومنه يستبين أن أول شرك حدث على وجه الأرض كان بشبهة الصالحين ، كما يتبين منه أن الإيمان في جبلة ابن آدم ، كما أن في جبلة أن الحق قد ينقص في قلبه ، وينمو الباطل ، وأن الشيطان يدخل إلى قلبه في هذه الحال فيزين إليه البدعة ، وهي وإن بدأت في الأصل عن حسن قصد فاعليها ؛ لأنهم حينئذ لم يقصدوا بها إلا الشفاعة ، ثم حيل بين قلوبهم ، فاعتقدوا أن هذا الفعل الذي صوروا فيه صالحهم ، على هذا الوجه أفضل العبادات ، فقد أدى بهم إلى التهلكة والضلال ، ولهذا فقد أدرك رسول الله ﷺ أمته ، وقد أوتي جوامع الكلم ، ونبهها إلى ما يمكن أن تضل به . عن ابن عباس عن عمر رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال : « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله »^(٥) .

وإذا كان أول اختلاف الناس على الدين كان على عهد نوح عليه السلام ، إلا

-
- (١) العقاد : إبراهيم أبو الأنبياء ص ١٢٣ .
(٢) الإمام محمد بن عبد الوهاب : كتاب التوحيد ص ٦٠ نشر الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ١٣٨٤ هـ .
(٣) المائدة : ٧٧ .
(٤) النساء : ١٧١ .
(٥) رواه أحمد في مسنده ١ / ٢٣ ، ٢٤ ، والدارمي ٢ / ٤١٢ ، ٤١٣ ، باب قول النبي ﷺ « لا تطروني » : والبخاري كتاب الأنبياء .

أنه لم يكن الاحلاف الوحيد ، فقد حدث مراراً بعد ذلك ، ولذلك كان الله تعالى يرسل الرسل عليهم السلام لبعثوا طريق الحق المستقيم للناس .

خلق الله الخلق ، وخلق آدم وأسله سه ، وكانوا على دين واحد هو الإسلام ، وكانوا أمة واحدة مسلمين كلهم قال تعالى : ﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلّفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون ﴾^(١) والتوعد هنا على التفرق بعد الاجتماع على الحق وهو الإسلام . فبعث الله النبيين مبشرين من أطاع بجريل التواب ، ومنذرين من عصى بسدة العذاب ، وأرسل معهم الكتاب ليكون حاكماً على أعمالهم بإرتداد الأبياء ، فإنما يحكمون بما دلهم عليه الكتاب . قال تعالى : ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾^(٢)

وقال تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب ﴾^(٣) .

وهؤلاء الذين اختلفوا فيه عبر الأولين الذين كانوا في عهد نوح عليه السلام ، وهم اليهود المعصوب عليهم ، وهم الذين أوتوا التوراة والعلم بها . ولكن على ما ذكر الطبرى رحمه الله أنهم « اختلفوا فيه على علم منهم ، منعمدين الحلاف على الله فيما حالفوه من أمره وحكم كتابه ، لا عن جهل به ، بل كان اختلافهم فيه من بعد ما ثبتت حجه عليهم بعبادتهم ، وطلباً للرئاسة ، واستدلالاً من بعضهم البعض ، وطلب الدنيا وملكها ورحرفتها وربنها فبغى بعضهم على بعض ، وصرب بعضهم رفات بعض ؛ لأن القوم لم يختلفوا إلا من بعد قيام الحجة عليهم ، ومحى البينات من عند الله ، كذلك لم يختلفوا إلا بغياً »^(٤) .

وكما يقول الطبرى « والآية وإن برلت في اليهود ، فإنها قصدت ما اجتمع الناس

(١) يونس ١٩ (٢) البقرة ٢١٣ (٣) آل عمران ١٩

(٤) الطبرى مسره ٤ / ٢٧٦ - ٢٧٨

عليه من لدن آدم عليه السلام على شريعة الحق»^(١) .

قال الطبرى : « ولا دلالة من كتاب الله ولا خبر يثبت به الحجة على أى هذه الأوقات كان ذلك . فعير جائر أن نقول فيه إلا ما قال الله عز وجل من أن الناس كانوا أمة واحدة [أى على دين واحد] فبعث الله فيهم - لما اختلفوا - الأنبياء والرسل ، ولا بصرياً الجهل بوفت ذلك ، كما لا نفعنا العلم به إذا لم يكن العلم به لله طاعة عر أنه أى ذلك كان ، فإن دليل القرآن واضح على أن الذين أخذ الله عنهم أنهم كانوا أمة واحدة ، إنما كانوا أمة واحدة على الإيمان ودين الحق ، دون الكفر بالله والشرك به »^(٢) .

وذلك أن الله تعالى قال فى سورة بونس : ﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ولو لا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون ﴾^(٣) .

(١) نفسه ٤ / ٢٨١ ، ٢٨٢

(٢) نفسه ٤٠ / ٢٨٢

(٣) بونس ١٩٠ .

الفصل السابع

الأنبياء والرسل دعوا إلى التوحيد

الأنبياء والرسل دعوا إلى التوحيد

جاء في الحديث عن أبي ذر رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ : « أن أول الأنبياء المرسلين آدم عليه السلام . قال أبو ذر رضى الله عنه : « أنيت رسول الله ﷺ وهو في المسجد ، فجلست . فقال : « يا أبا ذر هل صليت » قلت : لا ، قال : « قم فصلى » . قال : فقمت فصليت ثم جلست ، فقال : « يا أبا ذر نعوذ بالله من شر شيطان الإنس والجن » ، قال : قلت : يا رسول الله أو للإنس شياطين ؟ قال : « نعم » ، قلت : يا رسول الله الصلاة ؟ قال : « حير موضوع من شاء أقل ومن شاء أكثر » قال : قلت : يا رسول الله فما الصوم ؟ قال : « فرض محزئ وعند الله مزيد » ، قلت : يا رسول الله فالصدقة ؟ قال : « أضعاف مضاعفة » . قلت : يا رسول الله فأيتها أفضل ؟ قال : « جهد من مقل أو سر إلى فقير » . قلت : يا رسول الله أى الأنبياء كان أول ؟ قال : « آدم » ، قلت : يا رسول الله ونبي كان ؟ قال : « نعم نبي مكلم » . قال : قلت با رسول الله كم المرسلون ؟ قال : « ثلاثمائة وبضعة عشر جما غفيراً » ، أو قال مرة « خمسة عشر » . قال : قلت : يا رسول الله آدم أنبي كان ؟ قال « نعم نبي مكلم » . قلت : يا رسول الله أيما أنزل عليك أعظم ؟ قال : « آية الكرسي ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ... ﴾ » (١) .

وأهبط آدم إلى الأرض ، وهو على عقيدة صحيحة بتوحيد الألوهية ، وبمبادئ الأخلاق الصالحة ، وبث آدم بنيه ، وعلمهم أن يسيروا على منهجه ، وسنته الصحيحة ، دليل ذلك قوله تعالى : ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ﴾ (٢) .

ثم كان خطاب كل نبي لقومه : ﴿ يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ (٣) .

(١) رواه أحمد في مسنده ٥ / ١٧٨ ، ١٧٩ .

(٢) الأعراف : ٥٩ .

(٣) البقرة ٢١٣ .

وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ (١) .

والإنسان يستجيب بفطرته لنداء الحق ، أما الذين أشركوا فقد كانوا مدفوعين بدافع البغى فيما بينهم بنص القرآن الكريم ، يفهم ذلك من قوله تعالى : ﴿ من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم ﴾ (٢) الآية .

وقوله تعالى : ﴿ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ﴾ (٣) بنص الآية الكريمة .

فالبغى حدث فيهم ، أو هم أحدثوه فيهم بعد أن جاءهم الأنبياء والمرسلون مبشرين ومنذرين ، ومن بعد ما جاءهم العلم ، وقامت عليهم الحجة ، والأمر كما ذكر ابن كثير في تفسيره : « أنهم بغوا من بعد أن قامت الحجج عليهم ، حملهم على ذلك تحاسدهم وتباغضهم وتدابرههم ، فحمل بعضهم بُغض بعضهم الآخر ، على مخالفته في جميع أفعاله وأقواله » (٤) وذلك لتحقيق أغراض ومآرب خاصة وإرادة كل طائفة أن يكون العلو والظهور لها ، ولقولها دون غيرها (٥) .

وكل هذا يبين أن دعوة التوحيد هي الأصل الذي جاءت به رسالات السماء ، وأن الشرك والتعدد هو الاستثناء ، وهذا يهدم نظرية الماديين الوضعيين أمثال : أوجست كونت القائلة : « بأن الإنسانية بدأت بتعدد الآلهة والشرك ، ثم كان التوحيد خاتمة المطاف » (٦) .

وتدل التوقفات الكبرى في ديانات التوحيد في رسالات : نوح وإبراهيم ، ثم الرسالات الكبرى الثلاث : اليهودية والمسيحية والإسلام على أن الغالين لم ينكروا عقيدة التوحيد ، ولكنهم أشركوا معها اعتقادات أخرى ، ذلك لأن الأنبياء عليهم السلام كانوا هاديين ومصححين لمسار البشرية الديني ، وعلى سبيل المثال فإنه « منذ أقدم العصور التاريخية لم يعثر مصدر واحد على خبر واحد يفهم منه أن إبراهيم عليه السلام

(١) الأنبياء : ٢٥ . (٢) البقرة : ٢١٣ . (٣) آل عمران : ١٩ .

(٤) ابن كثير : تفسيره ١ / ٢٥٠ - ٢٥٤ .

(٥) ابن القيم مفتاح دار السعادة ٢ / ٦٢ مطبعة الجمالي والخالجي ١٣٢٣ هـ .

(٦) د عبد الحلیم محمود : في رحاب الكون ص ٤٧ .

التقى بمن يعارض عقيدته الإلهية بعد خروجه من موطنه الأول»^(١) ولكن وجد من يعترفون بالإله الواحد ، ويشركون معه آلهة أخرى دونه ، وهذا كما يقول العقاد : « ما فعله أتباع سائر الأنبياء ... إذ تحولوا من عبادة الله الواحد إلى عبادة الأنصاب والتعاويد والتماثيل »^(٢) وكما فعل أقوام الأنبياء من قديم الزمان والعصور من قبل موسى عليه السلام . فعل اليهود مع موسى إذ قالوا له : ﴿ اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴾^(٣) أى اجعل لنا صنماً نعكف عليه ، كما لهم أصنام يعكفون عليها^(٤) ولم يقنعوا بالوعيد فقد اتخذوا العجل إلهاً فقال الله تعالى فيهم : ﴿ إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين ﴾^(٥) بالإخراج من رحمة الله عز شأنه .

ولقد بغى اليهود فاستحقوا غضب الله ، والإخراج من رحمته ؛ لأنهم كما يقول أرنولد توينبى Arnold Toynbee لم يتخلصوا بعد أن جاءهم موسى عليه السلام ، ثم أنبياء بنى إسرائيل من بعده من شرك الهليية الوثنية ، فقد كان إله بنى إسرائيل الذى أصبح أيضاً إله المسيحية ، مثل الآلهة الهلينية ، شخصاً يمكن للبشر أن يتقابلوا معه ، ويتصلوا به ، ولكن بينما صنع الإنسان الهليني إلهه على صورته ، خلق إله إسرائيل الإنسان على صورته هو ، ثم انتقلت الفكرة نفسها بصورة أكثر بروزاً إلى المسيحية ، فقالت العقيدة المسيحية : إن إله إسرائيل الذى خلق آدم على صورته ، قد هياً أيضاً وسيلة لخلاص البشرية ، بأن تجسد بذاته فى صورة إنسان إذ جعله إلهاً وولداً^(٦) .

ولقد صور القرآن الكريم ذلك الذى حدث فى كل من اليهودية والمسيحية أدق تصوير فى قوله تعالى : ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ﴾^(٧) وهذا الزعم اليهودى والنصرانى باطل ، قال تعالى - فى تأكيد بطلانه - :

(١) العقاد : إبراهيم أبو الأنبياء ص ١٢٣ .

(٢) نفسه : ص ١٥٢

(٣) الأعراف : ١٣٨ .

(٤) الأعراف : ١٥٢ .

(٤) الرمحشرى : الكشاف ١ / ٥٧١ .

(٦) أرنولد توينبى : تاريخ الحضارة الهلينية ص ١٩ ، ٢٠ ترجمة رمى جرجس ، الألف كتاب رقم ٤٥٨ ، الأنحلو المصرية ١٩٦٣ م .

(٧) التوبة . ٣٠ .

﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل
اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار
وما للظالمين من أنصار ﴾ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا
إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴿^(١) .

وتلك خيانة دينية ، وخطأ إلهادي كبير ، عبر عنه توينبي Toynbee بقوله :
« كانت هذه خيانة لكل ما حققته العقيدة بعد صراع طويل مرير من أجل تطهير
نظرة الإنسان إلى الذات الإلهية والسمو بها »^(٢) .

إن هذا الأثر اليهودي الإلهادي الخطير الذي لم تتج منه النصرانية ، حاول اليهود
الزج به عند بعض المفكرين المسلمين منذ الصدر الأول للإسلام ، ولكن فقهاء المسلمين
وعلماءهم وقفوا لمثل هذه الأفكار الهدامة بالمرصاد ، وفرقوا بين « لفظ الصورة الذي
يطلق ويراد به الهيئة الحاصلة في أجسام مؤلفة مولدة مرتبة ترتيباً مخصوصاً ، مثل الأنف
والعين والضم التي هي أجسام ، وهي لحوم وعظام ، وقد يطلق ويراد به ما ليس بجسم
ولا هيئة في جسم ، ولا وهو ترتيب في أجسام... فليتحقق كل مؤمن أن الصورة
في حق الله لم تطلق لإرادة المعنى الأول ، الذي هو جسم لحمي وعظمي مركب
من أنف وفم ونحو ونحوه ، فإن جميع ذلك أجسام وهيئات في أجسام - وبين خالق
الأجسام وهيئات كلها المنزه عن مشابقتها وصفاتها ، وإذا علم هذا يقيناً فهو مؤمن ،
فإن خطر له أنه إن لم يؤمر به ، بل أمر بأن لا يخوض فيه ، فإنه ليس على قدر
طاقته ، لكن ينبغي أن يعتقد أنه أريد به معنى يليق بجلال الله وعظمته ليس بجسم
ولا عرض في جسم »^(٣) .

إن القول الفصل ما قال ابن حزم الأندلسي رحمه الله في الفصل ، (فصل الكلام
في الصفات) فقال رحمه الله : « وبالضرورة نعلم أننا لم نعلم الله عز وجل في الدنيا
صورة أصلاً ، وكذلك القول في الحديث الثابت : « خلق الله آدم على صورته » فهذه
إضافة ملك . يريد الصورة التي تخيرها الله سبحانه وتعالى ليكون آدم مصوراً عليها ،

(١) المائة : ٧٢ ، ٧٣ .

(٢) أربولد توينبي : تاريخ الحضارة الهلينية ص ٢٠ .

(٣) الإمام الغزالي : رسالة إجماع العوام عن علم الكلام ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ ضمن كتاب القصور العوالي من
رسائل الغزالي ، مكتب الخندي د . ت .

وكل فاضل في طبقتة فإنه يسب إلى الله عز وجل ... فعلى هذا قبل . على صورته الرحمن ، والصور كلها لله تعالى هي ملك له ، وحلق له .

في هذا برد ابن حرم على ابن فورك وغيره من الأشعرية قولهم في هذا الحديث حيث إهم قالوا في معنى قوله عليه الصلاة والسلام : « إن الله خلق آدم على صورته » : إنما هو صفة الرحمن من الحياة والعلم والافتقار ، واجتماع صفات الكمال فيه ، وأنه سبحانه أسجد له ملائكته ، كما أسجدهم لنفسه .

بقول أبو محمد بن حزم تشدده المعروف « هذا نص كلام أبي جعفر السمعاني عن شيوخه حرفاً حرفاً ، وهذا كفر مجرد لا مزية فيه ؛ لأنه سوى بين الله عز وجل وآدم في الحياة والعلم والافتقار ، واجتماع صفات الكمال فيهما والله يقول : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾^(١) ثم لم يقنعوا بها حتى جعلوا سجود الملائكة لآدم كسجودهم لله عز وجل ، ولا خلاف بين أحد من أهل الإسلام في أن سجودهم لله تعالى سجود عبادة ، ولآدم سجود تحية وإكرام ، ومثله ما صح عن النبي ﷺ عن يوم القيامة : « أن الله عز وجل يكشف عن ساق ، فيخرون سحداً ، فهذا كما قال عز وجل في القرآن : ﴿ يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود ﴾^(٢) وإنما هو إخبار عن سدة الأمر ، وهو الموقف كما تقول العرب ، قد شمرت عن ساقها^(٣) .

وهكذا فهم السلف من أئمة أهل السنة معنى خلق آدم على صورة الرحمن ، وأنه كما بين ابن القيم رحمه الله : « لم يرد به تشبيه الرب ونميله بالخلق ، وإنما أراد به تحبب الوحه ، وإثبات السمع والبصر والكلام صفة ومحلاً^(٤) » .

ولأن التشبيه والتمثيل شرك بالله فإن الذي عليه أهل التوحيد العمل مما جاء في قوله تعالى : ﴿ إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ﴾ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسّ الذين كفروا منهم عذاب أليم^(٥) .

(١) الشورى ١١

(٢) القلم ٤٢ .

(٣) اس حرم الفصل في الملل والنحل ٢ / ١٢٨ ، ٢١٩ مكتبة السلام ١٣٤٨ هـ

(٤) اس القيم . الصواعق المرسله ٢ / ٥٥٨

(٥) المائدة ٧٢ ، ٧٣ .

ولقد فرّق عيسى عليه السلام بين نفسه والذين بعث فيهم ، فهو بشر مثلهم ولكن يوحى إليه ، ولهذا قال لهم نص القرآن الكريم : ﴿ قال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم ﴾ فهو يقر بأنه عبد مثلهم ، وهو احتجاج على النصارى ؛ لأنهم قالوا : ﴿ إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾ وظلموا وجنحوا عن سبيل الحق فيما تقولوا على عيسى عليه السلام لقوله تعالى : ﴿ وما من إله إلا إله واحد ﴾ أى وما إله قط فى هذا الوحد إلا الله الموصوف بالوحدانية ، لا ثانى له ، وهو الله وحده لا شريك له (١) .

رسالات التوحيد كما جاء ذكرها فى القرآن :

إن الرسالة السماوية التى يُبعث بها الرسول من الرسل عليهم السلام ، تكون على قدر إدراك أمتة التى تنزل فيهم الرسالة ، وهذا بين أن الشريعة تنزل لأمة من الأمم فتكون مستعدة لها ، ولقد مهد سبحانه وتعالى لتسريع آدم عليه السلام بعرض آدم وبيته وإعدادهم لحمل الأمانة على الملائكة ، ثم أخذت الشرائع تنزل ، كل نبى إلى قومه ، حتى إذا بلغت الإنسانية غاية رتدها ، أنزلت الرسالة الخاتمة ، كبرى الرسالات وأشملها وأعمها للناس جميعاً ؛ لأن الناس قلها لم يؤهلوا لمتلها ؛ ولأما جماع الشرائع التى هى أكبر من أن تتحلى للناس فى حين واحد من الدهر قبل الإسلام .

كانت رسالة آدم عليه السلام ، إرساء لركائز الإيمان بالخالق ، وتوطيئ الإنسان فى موطنه الدائم فى الأرض ، كما كانت إقراراً بالعبودية لإرادة الله عز شأنه فى تكريمه للإنسان ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم ﴾ مند بدء خلقه ، وتفضيله على سائر الخلق ، بفصل العقل وأهلية التكليف بحمل الأمانة وحلافة الله فى الأرض ﴿ إني جاعل فى الأرض خليفة ﴾ .

وكان أول تكليف للإنسان فى موطنه ، تكليفاً بالعبادة والخضوع لله تعالى وتوحيده قال تعالى : ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ (٢) .

ولما بعث نوح عليه السلام لم يشأ أن يجادل قومه بما فوق طاقتهم ، أو يذكّرهم بالأسباب التى من أجلها يؤمر الإنسان بعبادة ربه سبحانه وتعالى ، وجاءت الأسباب

(١) الرمحترى الكشاف ١ / ٤٧٦

(٢) الأعراف ٧٣٠

بعد ذلك على لسان هود عليه السلام ، الذى حذرهم مما وقع فيه قوم نوح فى قوله عز شأنه ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ﴾^(١) ، وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون * أمدكم بأنعام وبنين * وجنات وعيون * ﴾ .

كان الإنسان قد بدأ يتطلع إلى آفاق أرحب من المعرفة والتأمل ، وأخذ يتساءل عن حقيقة الكون وموقف الإنسان منه ، يقول تعالى على لسان نبيه صالح عليه السلام : ﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾^(٢) .

ثم وضع جل شأنه الإنسان أمام قضية التوحيد ، وأنها من عند الله يمتحن بها الإنسان ، إنها قضية الإنسان إلى يوم الدين . قال تعالى : ﴿ قد جاءكم بينة من ربكم ﴾^(٣) وبواسطة الأنبياء المبشرين المنذرين أقام على الناس الحجة ، ودعاهم إلى كلمة سواء ألا يفسدوا فى الأرض ، وألا يعتدوا على مخالفهم ، ويذكرهم بفضل الله عليهم إذ جعلهم كثرة بعد قلة . قال تعالى : ﴿ ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثرتكم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ﴾^(٤) .

على أن الدين منذ بعث إبراهيم عليه السلام يأخذ منهجاً حديداً سواء فى الاعتقاد أو فى السلوك ، فعقاب المخالفين يتخلى عن أسلوب التدمير المباشر ، والعقاب الفورى كما كان الحال فى الطوفان فى قوم نوح ، أو صواعق هود ، أو عواصف صالح التى ما تدر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم . قال تعالى : ﴿ وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم * ما تدر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم * وفى ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين * فتعوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون * فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين * وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ﴾^(٥) .

(٢) الشعراء . ١٣٢ - ١٣٤

(٤) الأعراف ٧٣

(٦) الداريات . ٤١ - ٥٢

(١) الأعراف . ٦٩ .

(٣) هود . ٦١ .

(٥) الأعراف . ٨٦ .

لقد هيا الله تعالى الناس ابتداء من رسالة إبراهيم عليه السلام لقبول القضايا التي لم تك تتار من قتل ، فالإنسان صار أكثر بصحاً وبعقلاً ، وصار الدين يكلفه بمسائل أكبر ، مع التهاور مع المبعوث فيهم حول الجزاء المؤحل ، والعت والحساب ، وقضايا إسابة لم تطرح من قبل ، ويصور القرآن ذلك بين إبراهيم عليه السلام وقومه ، قال تعالى : ﴿ ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ﴾^(١) وقال تعالى : ﴿ وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . إنما تعبدون من دون الله آوثاناً وتخلقون إفكاً إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون ﴾ . وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾^(٢) .

فإبراهيم عليه السلام يحاور قومه ويأظهم ، وناقش معتقداتهم ، ويهون من شأن تماثيلهم وأوثانهم ، يمهد بهذه النظرة الكونية لأكثر فتح في تاريخ الدين ، وأعظم انتصار للعقل الإنساني في مجال العفيدة « فلقد اقترنت دعوته بالتوحيد ، كما امنزحت بمراة العدل الإلهي ، واقترنت بإعلاء العبادة إلى ما فوق الطبيعة والحتمان »^(٣) .

إبراهيم عليه السلام يطلب زيادة اليقين من ربه :

وإبراهيم عليه السلام نفسه أراد أن يزداد يقيناً من أمر دعوته ، فسأل ربه عز سأنه ، قال تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليظمنن قلى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾^(٤) .

ومهما كانت الأسباب ، ومهما تباينت الدوافع التي دفعت إبراهيم عليه السلام لسؤال ربه سبحانه وتعالى ، فقد دخل قلب إبراهيم ، وهو نبي مرسل من الميل إلى البحث وطلب المعاينة .

ولقد روى الطبرى - رحمه الله - عن بعضهم : « أن إبراهيم عليه السلام مر

-
- (١) الأبياء . ٥٢ .
(٢) العنكوت ١٦٠ - ١٨ .
(٣) العقاد إبراهيم أبو الأبياء ص ٦ .
(٤) القرة : ٢٦٠ .

نحوت نصفه في البر ، وبصفه في البحر ، فما كان منه في البحر فدواب البحر تأكله ، وما كان منه في البر فالسباع ودواب البر تأكله . فقال له الحبيث إبليس : يا إبراهيم متى يجمع الله هذا من بطون هؤلاء ؟ فقال : ﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ الآية .

وقال آخرون - والرواية للطبرى - : « بل كان سب مسألته ربه ذلك : المأظرة والمحاحنة التي جرت بيه وبين عمروذ في أمر الإحياء والإماتة »^(١) .

قال الطبرى رحمه الله . « وهذان القولان ، أعنى الأول وهذا الآخر، متقاربا المعنى في أن مسألة إبراهيم ربه أن يريه كيف يحيى الموتى ، كانت ليرى عيانا ما كان عنده من علم ذلك حبرا »^(٢) .

وزاد ابن حجر رحمه الله في فتح البارى في شرحه لرواية السحارى عن سعيد ابن المسيب عن أنى هريرة رضى الله عنه في قوله تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى ﴾ أن رسول الله ﷺ قال : « نحن أحق بالشك من إبراهيم ، إذ قال : ﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ » .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : « معناه هذا الذى ترون أنه شك أنا أولى به ؛ لأنه ليس بشك ، إنما هو طلب لمزيد البيان » .

وحكى عن بعض علماء العربية : أن أفعل ربما جاءت لنفى المعنى عن الشيئين من نحو قوله تعالى : ﴿ أهم خير أم قوم تبع ﴾ ؟ أى لا خير في الفريقين ، فعلى هذا فمعنى قوله ﷺ : « نحن أحق بالشك من إبراهيم » لا شك عندنا جميعاً .

وقال ابن عطية في تفسير المحرر الوجيز : « ويحمل قول ابن عباس رضى الله عنهما عندها أنها أرجى آية لما فيها من الإدلال على الله ، وسؤاله الإحياء في الدنيا ، أفلا الإيمان يكفى فيه الإجمال ، ولا يحتاج إلى تنقيب وبحث ، ومحمل قول عطاء : دخل قلب إبراهيم بعض ما يدخل قلوب الناس ، أى من طلب المعاينة » .

قال : وأما الحديث فمبى على نفى الشك ، والمراد بالشك فيه الخواطر التى لا

(١) الطبرى . تفسيره ٥ / ٤٧٦

(٢) الطبرى . تفسيره ٥ / ٤٨٧

تثبت ، وأما الشك المصطلح ، وهو التوقف بين الأمرين من غير مزية لأحدهما على الآخر ، فهو منفي عن الخليل قطعاً ؛ لأنه يبعد وقوعه ممن رسخ الإيمان في قلبه ، فكيف بمن بلغ رتبة النبوة !؟

وقوله : ﴿ قال أولم تؤمن ﴾ ؟ الاستفهام للتقرير ، ووجهه أنه طلب الكيفية ، وهو مشعر بالتصديق بالإحياء ، وقوله : ﴿ بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ أى ليزيد سكوناً بالمشاهدة المتضمنة إلى اعتقاد القلب ؛ لأن تظاهر الأدلة أسكن للقلوب ^(١) .

ومع كل هذا فإن قوة إيمان إبراهيم عليه السلام ، فضلاً عن ثبوته لم تمنعه من طلب العلم بالاستدلال وزيادة البيان .

قال الزمخشري في بيان ذلك : « فإن قلت : كيف قال له : ﴿ أولم تؤمن ﴾ وقد علم أنه أثبت الناس إيماناً ؟ قلت : ليجيب بما أجاب به لما فيه من الفائدة الجليلة للسامعين ، و ﴿ بلى ﴾ إيجاب لما بعد النفي ، معناه : بلى آمنت ﴿ ولكن ليطمئن قلبي ﴾ ليزيد سكوناً وطمأنينة ، بمضامة علم الضرورة علم الاستدلال . وتظاهر الأدلة أسكن للقلوب ، وأزيد للبصيرة واليقين ؛ ولأن علم الاستدلال يجوز معه التشكيك ، بخلاف العلم الضروري ، فأراد بطمأنينة القلب : العلم الذى لا مجال فيه للتشكيك فإن قلت : بم تعلق اللام في ﴿ ليطمئن ﴾ ؟ قلت : بمحذوف تقديره : ولكن سألت ذلك إرادة طمأنينة القلب ^(٢) .

فالأمر كما قال صاحب المنار هو أن « صورة هذا ، صورة الإقرار مع طلب الزيادة في العلم بالمعارف لتكون ثناء واستعطافاً أمام الدعاء ، أى أرني بعيني كيفية إحيائك للموتى قال : ﴿ أولم تؤمن ﴾ أى ألم يوح إليك ؟ أولم تؤمن بذلك ؟ ﴿ قال بلى ﴾ أى قد أوحيت إلى فأمنت وصدقت بالخبر ، ﴿ ولكن ﴾ تآقت نفسى للخبر ، والوقوف على كيفية هذا السير ﴿ ليطمئن قلبي ﴾ بالعيان ، بعد خبر الوحي والبرهان .

وقد فهم بعض الناس من هذا السؤال أن إبراهيم عليه السلام كان قلقاً في اعتقاده

(١) فتح البارى : ٦ / ٣٢٠ ، وتفسير الطبرى ٥ / ٤٨٥ - ٤٩٤ ، والمحرم الوجيز لان عطية ٢ / ٢٢١ .

(٢) الزمخشري : الكشاف ١ / ٢٩٦ .

بالبحث وذلك شك فيه ، وقد ورد في صحيح البخارى « نحن أولى بالشك من إبراهيم » ، أى أننا نقطع بعدم شكه ، كما نقطع بعدم شكنا ، أو أشد قطعاً .

ولكن طلب المزيد فى العلم ، والرغبة فى استكناه الحقائق ، والتشوف إلى الوقوف على أسرار الخليقة مما فطر الله عليه الإنسان ، وأكمل الناس علماً وفهماً أشدهم للعلم طلباً ... وطلب الخليل رؤية كيفية إحياء الموتى بعينيه من هذا القبيل ، فهو طلب للطمأنينة فيما تنزع إليه نفسه القدسية من معرفة خفايا أسرار الربوبية ، لا طلب الطمأنينة فى أصل عقد الإيمان بالبعث الذى عرفه بالوحى والبرهان ، دون المشاهدة والعيان ^(١) .

ومن هذه الأقوال يستبين أن إبراهيم عليه السلام كان يطلب من ربه المزيد فى العلم ، ويعلن الرغبة فى استكناه الحقائق الكونية ، ومعرفة أسرار الخليقة ، فضلاً عن مزية السؤال فى ترسيخ الطمأنينة فى القلب ، فبالرغم من أنه قد أوتى الثبوة ، وأنه لا يشك فى جنب الله ، فقد أراد أن يزداد سكوناً وطمأنينة « بمضامة علم الضرورة علم الاستدلال - كما ذهب الزمخشري - لأن تظاهر الأدلة أسكن للقلوب ، وأزيد للبصيرة واليقين ، ولأن علم الاستدلال يجوز معه التشكيك بخلاف العلم الضرورى ، فأراد بطمأنينة القلب العلم الذى لا مجال فيه للتشكيك » ^(٢) .

وهكذا كانت دعوة إبراهيم عليه السلام فتحاً للرسالات الكبرى التى ختمت بالإسلام الذى شمل الناس جميعاً ، فكأن رسالة إبراهيم نقلت مجال الرسالات السماوية من دائرة الديانات المحلية - كل نبي إلى قومه - إلى مجال أم الأرض جميعاً ، ومن دائرة الاكتفاء بالعلم الضرورى إلى مجال العلم الضرورى ، المضموم إليه العلم الاستدلالي ، لكى يواكب تفوق العقل البشرى الذى بلغ رشده ، ولهذا فقد خرج إبراهيم عليه السلام من أرض (أور Ur) فيما بين النهرين ، وانتقل بدعوته إلى الشام ومصر والحجاز حيث شيد الكعبة المشرفة ، وهذه الأرض التى جال فيها هى مهبط الديانات كلها .

وأعد إبراهيم عليه السلام بذلك أساس أعظم دعوة دينية سماوية ، الدعوة

(١) الشيخ محمد رشيد رضا : تفسير المنار ٣ / ٥٣ - ٥٤ .

(٢) الكشاف : للزمخشري ١ / ٢٩٦ .

الإسلامية التي بعث بها محمد ﷺ الرحمة المهداة للعالمين .

الشيء الحقيق بالنظر في دعوة إبراهيم عليه السلام : انتقال منهج الدعوة في الرسائل السماوية من التلقين المباشر بالعلم الضروري ، إلى ضم الاستدلال إليه ، أى ضم علم الاستدلال ، والتجربة في الحوار القائم بين الله والإنسان ، ممثلاً في إبراهيم عليه السلام ، أول من جرؤ على السؤال من الرسل - بعفو ربه - طلباً للمعينة ، والعلم بالمشاهدة العيانية . ﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى ﴾ فكان بشراً رسولاً ، وكان ممهداً لفورة العقل الأولى التي ارتكزت عليها طموحات الإنسان منذ رسالة إبراهيم عليه السلام إلى يوم الدين .

كذلك حدث في دعوة إبراهيم عليه السلام انتقال طرق العقاب - من القصاص الفورى - كما كان الحال في الرسائل السابقة مثل : رسالات : نوح وهود وغيرهما من الرسل والأنبياء - إلى العقاب الأخرى المؤجل ، وثمة شيء ربط إبراهيم عليه السلام بمن سبقوه من الرسل ، تلك هي المعجزة الحسية ، فما أشبه طوفان نوح وسفينته ، بأثر ناقة صالح ، وحوث يونس ، بالنار التي كانت برداً وسلاماً على إبراهيم ، وبمن لحقوه أيضاً كعصا موسى ، ومائدة عيسى ، وغير ذلك من معجزات الأنبياء الحسية - عليهم جميعاً الصلاة والسلام .

إبراهيم عليه السلام كان كمن سبقوه ولحقوه من الأنبياء عليهم السلام ، مؤيداً بالمعجزات الحسية ، وكان أول من سأل من الأنبياء ، كما كان مبشراً بأهمية العقل ، وأهمية العلم الاستدلالي التجريبي ، والتفكير والتدبر في آيات الكون ، وتلك هي المعطيات التي أعلى شأنها فيما بعد الإسلام فيما جاء وحيماً في القرآن الكريم . وفي السنة النبوية الشريفة .

هذا وإن الدين في كل الرسائل السماوية من لدن آدم حتى محمد ﷺ يدعو إلى الإله الواحد ، ويدعو الناس إلى الإيمان بالله وحبه ، وعبادته بلا شريك . قال تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾^(١) .

(١) الشورى : ١٣ .

وكان في الإسلام جماع الشرائع السماوية ؛ لأنه أنزل رحمة للعالمين .

الله عز شأنه كما جاء في القرآن الكريم

نفى القرآن الكريم ما سوى الله عز شأنه ، قبل أن يطرح عقيدة التوحيد : ﴿ لا إله إلا الله ﴾ ، ﴿ لا إله إلا هو ﴾ وذلك حتى لا يتجه عقل إنسان إلى أن يشرك بالله إلهاً آخر ، ولهذا كان الركن الأول في الإسلام : شهادة أن لا إله إلا الله ، وهذه الشهادة تضمنت نفياً يؤكد إثباتاً ، فقد نفت الألوهية عن غيره ، مع إثباتها له سبحانه وتعالى ، كما تضمنت أيضاً معنى الحرية ، لأن العابد لله وحده ، لا يخضع لآلهة أخرى لا تنفع ولا تضر ، قال تعالى ﴿ لا إله إلا الله ﴾^(١) .

وقال تعالى : ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾^(٢) .

وقال تعالى : ﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد ﴾^(٣) .

هذا هو النهج الذي اتبعه القرآن في منهج التوحيد ، نفى ثم إثبات ، سلب ثم إيجاب ، أي أن تنفى ثمة احتمال ممكن لوجود آلهة أخرى مع الله ، كما فعل المشركون الذين جعلوا لله شركاء في الملك ، فقد اعتقدوا بأن الله موجود ، ولكنهم رأوا باطلاً أن وجوده لا ينفي وجود آلهة أخرى - تعالى الله عما يشركون .

الله واحد لا شريك له في الملك . محيط بكل شئ . ليس كمثله شئ . عالم الغيب والشهادة .

قال تعالى : ﴿ لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ﴾^(٤) .

﴿ وهو بكل شئ عليم ﴾^(٥) .

﴿ وسع ربنا كل شئ علماً ﴾^(٦) .

﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾^(٧) .

(١) محمد : ١٩ . (٢) البقرة : ٢٥٥ . (٣) الإخلاص : ١ - ٤ .

(٤) سبأ : ٣ . (٥) الأنعام : ١٠١ . (٦) الأعراف : ٨٩ .

(٧) الأعراف : ٥٤ .

﴿ عليم بذات الصدور ﴾^(١) .
 ﴿ الحى الذى لا يموت ﴾^(٢) .
 ﴿ وهو الذى يحيى ويميت ﴾^(٣) .
 ﴿ كل شئ هالك إلا وجهه ﴾^(٤) .
 ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾^(٥) .
 ﴿ عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون ﴾^(٦) .
 ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ﴾^(٧) .

﴿ يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾^(٨) .

ذلك هو الله - عز شأنه وتعالى ذكره - كما جاء فى القرآن الكريم ، كلام الله أى كما وصف سبحانه نفسه ، وصف تفهيم ، لا وصف تشبيه ولا تجسيم ، وغاية ما يقال فى الذات الإلهية ، كما ذكر القرآن الكريم ، وهو كلام الله سبحانه وتعالى « أن الذات الإلهية غاية ما يتصوره العقل البشرى من الكمال فى أشرف الصفات »^(٩) وأكملها .

ووحداية الله ، هى وحداية ذات ، كما هى وحداية صفات ، كما هى وحداية عبودية ، ولا خلاف عند علماء المسلمين فى ذلك ، فهو معلوم من الدين بالضرورة ، وأصله من القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿ ليس كمثله شئ ﴾^(١٠) .

وهذا الأصل كاف مانع عن الخوض فيما خاض فيه الفلاسفة ، فقد وصف الله تعالى ذاته فقال عز من قائل : ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون * هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾^(١١) .

(١) فاطر : ٣٨ . (٢) الفرقان : ٥٨ . (٣) المؤمنون : ٨٠ . (٤) القصص : ٨٨ .
 (٥) الإحلاص : ٤ . (٦) المؤمنون : ٩٢ . (٧) السحرة : ٤ . (٨) الحديد : ٤ .
 (٩) العقاد : حقائق الإسلام وأنابيل حصومه ص ٤٣ ، كتاب الهلال ١٩٦٥ م .
 (١٠) الشورى : ١١ . (١١) الحشر : ٢٢ - ٢٤ .

﴿ وهو الغفور الودود ﴾ ذو العرش المجيد ﴿ فعال لما يريد ﴾^(١) .
 ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ﴾^(٢) .

هذه هي الصفات الإلهية التي تدل على وحدانيته ، وتعرف بوحى الكتاب والسنة على ظاهرها كما وردت فيهما ، ولهذا فقد دعا ابن تيمية الفلاسفة العقلاء إلى الإيمان بالله وحده بموافقة القرآن والسنة ، فهم لا يصيبون الصدق والعدل إلا إذا وافقوهما ، قال ابن تيمية : « إن الأدلة الصحيحة لا تعارض محال الشريعة ، وإن المعقول الصريح ، مطابق للمقول الصحيح ، وقد رأيت من هذا عجائب فقل أن رأيت بعد ذلك حجة عقلية هائلة لمن عارض الشريعة ، قد انقذح لى وجه فسادها وطريق حلها »^(٣) .

« وهذه الصفات ، وإن شابهت بالاسم مع صفات الناس ، إلا أن ما يضاف إلى الله تعالى يلق بالخالق لا بالمخلوقين »^(٤) فهو سبحانه واحد أحد فرد صمد ، وأسمائه الحسنى كلها تدل على ذاته ، ويدل هذا من صفاته على ما لا يدل عليه الآخر « فهي منفقة في الدلالة على الذات ، متنوعة في الدلالة على الصفات »^(٥) .

بقول الإمام الغرالى رحمه الله : « وتتعالى صفات الله عن أن تشبه صفاتنا »^(٦) وكلها تقيم حجة التوحيد ، والشهادتان : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، هما فصل التفرقة بين الإيمان بالله وتوحيده والإقرار له بالعبودية ، وبين الكفر ، كما أنهما أساس كل تكليف نعدى في الإسلام .

ويخاطب القرآن الكريم الذين جعلوا لله شركاء بقوله تعالى : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون ﴾^(٧) وقال تعالى : ﴿ فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون

(١) الروح ١٤٠ ١٦

(٢) الحديد ٣ .

(٣) ابن تيمية بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المقول ١ / ٢٣٤ على هامش مباح السنة .

(٤) ابن تيمية الرسالة الحموية الكبرى ، ١ / ٤٢٨ وما بعدها . ولأنى رهرة العقيدة الإسلامية كما جاء بها القرآن ص ٢٤ - نشر مجمع البحوث الإسلامية ، وله أيضاً المداهب الإسلامية ١ / ٢٣١

(٥) ابن تيمية الرسائل الكبرى ٢ / ٧٧ رسالة مراتب الإرادة .

(٦) الإمام الغرالى . روضة الطالبين ص ١٥٨ ضمن الرسائل الفرائد ، مطبعة الحدى بالحسين د . ت

(٧) يس ٧٤ .

من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تنبيء ﴿١﴾ .
 وقال تعالى : ﴿ والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون *
 أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يعثون * إلهكم إله واحد ﴾ ﴿٢﴾ .
 وقال تعالى : ﴿ ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو ﴾ ﴿٣﴾ .
 كذلك فإن الآيات الكريمة تبين بطلان الشرك مع الله ، قال تعالى : ﴿ هذا خلق
 الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ﴾ ﴿٤﴾ .

وقال تعالى : ﴿ قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض
 أم لهم شرك في السموات أتتولى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم
 صادقين ﴾ ﴿٥﴾ .

وقال تعالى : ﴿ قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا
 من الأرض أم لهم شرك في السموات أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه بل إن
 يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً ﴾ ﴿٦﴾ .

وقال تعالى : ﴿ قل من رب السموات والأرض قل الله قل أفأخذتم من دونه
 أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل
 تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل
 الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار ﴾ ﴿٧﴾ .

قال ابن القيم رحمه الله « فاحتج على تفرده بالألوهية بتفرده بالخلق ، وعلى بطلان
 إلهية ما سواه بعجزهم عن الخلق ، وعلى أنه واحد قهار ، والقهر التام يستلزم
 الوحدة ، فإن الشركة تنافي تمام القهر .

(٢) السحل : ٢٠ - ٢٢ .

(٤) لقمان . ١١ .

(٦) فاطر : ٤٠ .

(١) هود : ١٠١ .

(٣) القصص : ٨٨ .

(٥) الأحقاف : ٤ .

(٧) الرعد : ١٦ .

فأقام سبحانه حجة التوحيد ، وبين ذلك بأعذب ألفاظ وأحسنها ، لم يشبها غموض ، ولم يشنها تطويل ، ولم يعبها تقصير ، ولم يزرها زيادة ولا نقص ، بل بلغت في الحسن والفصاحة ، والبيان والإيجاز ما لم يتوهمه متوهم ، ولا يظن ظان أن يكون أبلغ في معناها منها ، وتحتها من المعنى الجليل القدر العظيم الشأن البالغ في النفع ما هو أجل من الألفاظ»^(١) .

الوحدانية في الخلق والتكوين :

إن الله سبحانه وتعالى خلق كل شيء وأحسن خلقه ، وهو سبحانه المتفرد بالخلق والتكوين والإنشاء من عدم . قال تعالى : ﴿ أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها إليه مع الله بل هم قوم يعدلون * أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي ويجعل بين البحرين حاجزاً إله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون * أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض إله مع الله قليلاً ما تذكرون * أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته إله مع الله تعالى الله عما يشركون * أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض إله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين * قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون ﴾^(٢) .

فهو سبحانه وتعالى الخالق المدبر وحده للكون ، بالأمر الإلهي الواحد ، والفعل الإلهي الواحد ، قال عز من قائل : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾^(٣) .

وحدانية العبادة :

عبد المشركون الأوثان ، مع إقرارهم بوجود الله زاعمين أنها تقربهم إلى الله ، وأنها واسطتهم إليه ، ثم نسوا أنها واسطة فعبدوها ، قال تعالى : ﴿ ألا الله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله

(١) ابن القيم . الصواعق المرسله على الجهمية والمعتلة ١ / ٧٣ ، ٧٤ اختصره محمد ابن الموصلي ١٩٨١ .

(٢) التمل . ٦٠ - ٦٥ .

(٣) الأنبياء : ٢٢ .

يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ﴿١﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل أفرايتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون ﴾ (٢) .

فلا شريك لله سبحانه في العبادة ، ولا يحق للناس أن يسركوا به عر شأنه أحداً من خلقه ولو كان نبياً ، أو ولياً ، كما يفعل القوريون ، قال تعالى : ﴿ ما كان لبشر أن يؤتية الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله ﴾ (٣) .

ولهذا فإن عقيدة الإسلام تقرر أنه لا واسطة بين الخلوف والخالق ، فلا ينفع عمده شافع إلا بإذنه ومشئته عز شأنه ، قال تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ﴾ (٤) .

ومع هذا فإن دعوات الصالحين من عباد الله مستحاة - بإذنه تعالى - لأنفسهم ولغيرهم من المسلمين بخص القرآن الكريم ، قال عز من قائل : ﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ (٥) .

* * *

الوحى هو طريق معرفة الله ، وبه يعلم العلم الضرورى ، وهو أشرف مقاصد ، والعقل هو الوسيلة ، وبه تضم المعرفة الاستدلالية إلى المعرفة الضرورية ، رآن الكريم يعطيا الطريق الأول كاملاً ، كما يسها إلى قيمة وسيله نحصل المعرفة استدلالية وبراهينها بالعقل ، وبالمطره الصحيحه .

ولما كان « التوحيد كامناً فى الفطرة » (٦) كان الاعتراف بالخالق وتوحيده فطرياً

١ الرمر ٣
٢ الرمر ٣٨
٣ آل عمران ٧٩
٤ القرة ١٨٦
٥ الحشر ١٠
٦ اس تيمية . الرسائل الكرى ٢ / ٣١٢ ، والإمام العزالى فى الإحاء ١ / ١٠٥ ، واس القيم ، مفتاح دار السعادة ١ / ٣١٥

في الناس ، قال تعالى : ﴿ أفى الله شك فاطر السموات والأرض ﴾^(١) فلا حاجة إذن إلى أدلة الفلاسفة لمعرفة الله .

وإن معرفتنا بالله لا يجب أن تتجاوز الآيات التي بينت حقيقة الإيمان وجوهره ، وهي كثيرة في القرآن الكريم ، من أول آية نزلت في القرآن الكريم قال تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم ﴾^(٢) .

وخلق الإنسان يستدل به على خالقه ، وهو أقوى دليل على وجوده عز شأنه ، يقول ابن القيم رحمه الله : « ولهذا فإن أهل السنة أثبتوا كمال الملك والحمد والحكمة ، هو صفوه بالقدره التامة على كل شيء من الأعيان ، وأفعال العباد وغيرهم ، وأثبتوا له الحكمة التامة في جميع خلقه وأمره وأثبتوا له الحمد كله في جميع ما خلقه وأمره ، ونزهوه عن دخوله تحت شريعة يضعها العباد بأرائهم كما نزه نفسه مما لا يليق به »^(٣) .

ومعرفة الله بصفاته من القرآن الكريم ، وبما وصف به تعالى نفسه « من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكليف ولا تمثيل ، والذين ينكرون بعض ذلك ما قدروا الله حق قدره ، وما عرفوه حق معرفته ، ولا وصفوه حق صفته ، ولا عبدوه حق عبادته »^(٤) .

وصفاته عز وجل تتعالى على صفات البشر ؛ لقوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ وهي حقيقة تعلم بالضرورة ، ولكن تصور الذات الإلهية متصفة بصفات تطلق على البشر أمر لا مفر منه ، ذلك لأنه لا مفر من معرفته سبحانه وتعالى إلا بمعرفة الصفات ، ولا يمكن تصور الصفات من داخل النفس فقط ، ولقد كان المخرج من تصور حياة الذات وصفاتها أن تكون على مثال صفات البشر وإن حالفتهم وهذا ما حدا بابن حزم الظاهري رحمه الله إلى التردد في نسبة الحياة والصفات

(١) إبراهيم . ١٠ .

(٢) العلق ١٠ - ٥ .

(٣) اس القيم : مفتاح دار السعادة ٢ / ٦٦

(٤) اس تيمية مجموعة الرسائل الكرى ١ / ١٢٤ ، المطبعة الشرفية ١٣٢٣ هـ

إلى الله عز شأنه ، وتعالى على خلقه ، فقال : « إن الله ينبغي أن يسمى حيا ، لا لأنه حي كحياة البشر ، بل لأن القرآن وصفه بالحياة »^(١) .

ولهذا فقد أنكر ابن حزم رحمه الله على الكندي أن يحدو حدو أرسطو في وصف الحق تبارك وتعالى اسمه « بأنه الحق من غير علة ، وأنه علة كل شيء »^(٢) وللأسبب نفسه اتهم بالجهل فقال : « لقد جهل ربه من سماه بغير أسمائه التي سمى بها نفسه ، ووصفه بغير صفاته التي وصف بها نفسه »^(٣) .

ولقد عمل ابن حزم - رحمه الله - على ألا يقع في خطيئة غيره من المتكلمين والفلاسفة الذين شبهوا الخالق بالخلق فقال : « ومن سأل عن الخالق عز وجل بما يقع على المخلوقات من الصفة ، ومن جهة الضد والند ، ومن جهة الكم والكيف ، كل هذا لا يجاب فيه حتى يسأل غير سؤال المخلوق ، وكما لا يشبه خلقه في صفة من صفاته كذلك لا يمكن أن يسأل عنه بصفة من صفات خلقه »^(٤) أليس هو القائل عز من قائل : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾^(٥) .

إن صفات الخالق هذه تضافى على سلوك خلقه من بنى الإنسان ، تكريماً وكلاً بمعنى : أن الاعتقاد في الله من جانب صفاته ، هو في الوقت نفسه اعتقاد في الإنسان من جانب سلوكه ، وإذا اتخذ ذلك السلوك صورة مثلى في حياته قبل معاده ، وهو عز شأنه خالق كل شيء ﴿ الله خالق كل شيء ﴾^(٦) فهذا اللفظ عام لا تخصيص فيه بوجه ما ، و لا يدخل في ذلك صفاته ، فإنها داخلة في مسمى باسمه ، ليس داخلاً في الأشياء المخلوقة ، كما لم تدخل ذاته فيها ، فهو سبحانه بذاته وصفاته الخالق ، وما سواه مخلوق »^(٧) .

* * *

- (١) نقلاً عن محمد إقبال : تجديد التفكير الدينى في الإسلام ص ٧١ .
- (٢) ابن حزم : الرد على ابن التعريلة اليهودى ورسائل أخرى ص ١٩٥ ، تحقيق د . إحسان عباس ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م ، دار العروبة مصر .
- (٣) نفسه : ص ١٩٥ .
- (٤) نفسه : ٢٥٥ .
- (٥) الشورى : ١١ .
- (٦) الزمر : ٦٢ .
- (٧) ابن القيم : كتاب الروح ، ص ١٤٦ ، مكتبة المتنبى د . ت .

الفصل الثامن

الإنسان : إما شاكراً وإما كفوراً

الإنسان : إما شاكراً وإما كفوراً

يقول الإمام الرازي المفسر رحمه الله : « إن آدم عليه السلام وقع عليه إثم المعصية ؛ لأنه أخطأ في مسألة واحدة اجتهادية »^(١) إلا أن هذه الخطيئة لم تُحَلَّ بينه وبين إظهار فضله على الملائكة بعلمه بعد توبته ، وبه صار سجود الملائكة ، وخليفة ربه في الأرض ، ذلك لأن فضل علمه فاق أثر خطيئته الاجتهادية التي تاب عنها .

الإنسان حقيقة ربما نزع بقصد إلى التمرد ، وكفران النعمة ، وربما أدى به الأمر إلى الفجور ، ولكنه يعود إلى الله ، ثم إن في بيان الفخر الرازي تنبيهاً إلى حقيقتين

هامتين :

أولاهما: أن كل أخطاء آدم ، وهي الأخطاء التي أورها بنيه ، إنما تندرج كلها تحت خطيئة واحدة أطلق عليها الرازي رحمه الله « مسألة واحدة اجتهادية » .

أما الحقيقة الثانية : فهي أن الإنسان بتوبته - بالرغم من وقوعه في هذه الخطيئة - ظل المخلوق الأصلح للعبادة والخلافة ، لعقله وعلمه ، وأهليته للتكليف ، وقدرته على الاجتهاد ، ولهذا فقد استخلفه ربه عز شأنه دون سائر خلقه بمن فيهم الملائكة المقربون ، من حول العرش العظيم ، مع علم الله سبحانه وتعالى بأنه سيكون من بين أبناء آدم - في كل الأجيال والعصور - من سيتردون في هذه الخطيئة ، وهذا ما بينه ابن جرير الطبري في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾^(٢) فأشار رحمه الله إلى أن هذه الخطيئة الاجتهادية « لم تنقص من فضل آدم وشرفه ، ولو أنها أنقصت من فضله شيئاً ، لما استخلفه سبحانه في الأرض دون الملائكة »^(٣) بعلمه وعمله ، فدل كما قال ابن القيم رحمه الله « على أن العلم أشرف ما في الإنسان »^(٤) .

(١) فخر الدين الرازي : التفسير الكبير ١ / ٢٨٨ .

(٢) البقرة : ٣٠ .

(٣) الطبري : تفسيره ١ / ٤٨٠ ، بتحقيق شاکر .

(٤) ابن القيم : مفتاح دار السعادة ١ / ٥٥ ، نشر أحمد ناجي الجمالي ، ومحمد أمين الخانجي ١٣٢٣ هـ .

على أن الجدير بالملاحظة ، أن الله تبارك وتعالى ، وضع الإنسان ، موضع المخلوق العالم العاقل المختار لمصيره ؛ لأنه - حتى وهو يتردى في الخطيئة - إنما كان يجتهد ليخرج منها شريفاً كريماً ، بدليل أنه لما عرف خطيئته ، وأقر بذنبه ، ندم على ما سلف منه ، فطلب مغفرة ربه ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾^(١) .

قال تعالى : ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾^(٢) .

طهره ربه عز شأنه من دنس المعصية ، وبذلك التطهير اقترنت له محبة الله تعالى ، ففضل على الملك والشيطان .

طهره ربه بعد أن طلب المغفرة، دل على ذلك قوله عز من قائل : ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾^(٣) .

وكما وقع آدم عليه السلام في الخطيئة بالاجتهاد ، عاد إلى ربه بالاجتهاد أيضاً ، وهذا لا يتأتى إلا بالعلم والإرادة والاختيار ، ولو كانت الملائكة أقدر على هذا من آدم لحازت شرف الخلافة ، ولما أورثها الله آدم وبنيه .

القرآن الكريم يبين وقوع آدم في الخطيئة ، وكذلك توبته ، فقد أقدم آدم عليه السلام على كل من الموقفين : موقف الخطيئة ، وموقف التوبة بإرادته الكاملة وباحتياره ، ففي الوقوع في الخطيئة قال تعالى : ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ . وفي الموقف الثاني استعد للتوبة من تلقاء نفسه فدعا ربه ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ .

ولهذا فلا يمكن التسليم بأن الإنسان نزاع إلى الشر ، أكثر من نزوعه للخير لكثرة ما ورد في الآيات من ذكر نزوعه إلى الشر وكفران النعمة ونحوه^(٤) ، ذلك لأن

(١) القرة ٣٩ .

(٢) طه : ١٢١ ، ١٢٢ .

(٣) الأعراف : ٢٣ .

(٤) د . أحمد مها . الإنسان في القرآن ص ٧٠ ، ٧١ . مجمع السحوث الإسلامية القاهرة ١٩٧١ م .

الله سبحانه شاء أن يبين للإنسان خطأه ، وأماكن الضعف فيه ، ويضعها أمام عقله وفكره ، فيطلب مغفرة ربه ، ويسعى إلى مرضاته جل شأنه .

إن أحوال الإنسان بين الشكر لله ، وكفران النعمة ، توزعت في آيات كثيرة في سور القرآن الكريم . وأجملت في قوله عز من قائل : ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾^(١) .

وقال تعالى : ﴿ ونفس وما سواها * فآلهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاهها * وقد خاب من دساها ﴾^(٢) .

أما الآيات التي ذكرت كفران الإنسان بالنعمة ، أو التي ذكرت منازع الإنسان السيئة وصفتها بالمبالغة كما ورد في الآيات :

﴿ وإما كفوراً ﴾^(٣) .

﴿ فإن الإنسان كفور ﴾^(٤) .

﴿ إنه ليثوس كفور ﴾^(٥) .

﴿ فيثوس قنوط ﴾^(٦) .

﴿ إن الإنسان لربه لكنود ﴾^(٧) .

﴿ وكان الإنسان قتوراً ﴾^(٨) .

﴿ إذا مسه الشر جزوعاً * وإذا مسه الخير منوعاً ﴾^(٩) .

وكلها ذكرت صفات ذميمة للإنسان ، جاءت صيغة مبالغة ، وعندما تجتمع صفات الحمد والذم للإنسان في آية واحدة ، جاء الذم بصيغة المبالغة ، ولا يأتي الحمد على الصيغة نفسها ، وهذا لا ينقص من قدر الإنسان وشرفه ، فالحمد لا يؤدي كله إلا لذات الحق - تعالى شأنه وكأله - وفرق بين أن يكون الحمد لله جل شأنه ، والذم للإنسان .

(١) الإنسان : ٣ . (٢) الشمس : ٧ - ١٠ .

(٣) الإنسان : ٣ . (٤) الشورى : ٤٨ .

(٥) هود : ٩ . (٦) فصلت : ٤٩ .

(٧) العاديات : ١٠ . (٨) الإسراء : ١٠٠ . (٩) المعارج : ٢١ ، ٢٢ .

فاليأس والكفران والشح والجزع والمنع إلى آخر هذه الصفات التي وصف بها القرآن الكريم ، حالات الإنسان الذميمة الغالبة ، كلها حالات للإنسان .

أما الحمد فهو لله ، يؤديه الإنسان ، وهو لا يقدر أن يؤدي لله حمداً يليق بكماله ، ولهذا فالصفات الأولى ؛ لأنها متأصلة في الإنسان فقد جاءت على صيغة المبالغة ، أما تلك الحميدة فلم تأت على الصيغة نفسها ، قال تعالى : ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً ﴾ - لله فضله - ﴿ وإما كفوراً ﴾ - بأنعم الله .

ولقد أجاد القرطبي رحمه الله في تفهيمنا لدلالات الكلمات ، وموقعها من آيات القرآن الكريم فقال : « جمع القرآن بين الشاكر والكفور ، مع اجتماعهما في معنى المبالغة نفيًا للمبالغة في الشكر ، وإثباتًا لها في الكفر ؛ لأن شكر الله تعالى لا يؤدي ، فانتفت عنه المبالغة ، ولم تنتف عن الكفر المبالغة ، فقل شكره لكثرة النعم عليه ، وكثر كفره وإن قل مع الإحسان إليه »^(١) .

وقبل القرطبي شرح الله صدر القشيري لمثله فقال في قوله تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾^(٢) فقال : « لقد ظهرت قيمة أعمالهم حيث قال الحق لأجله ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا ﴾ ؛ لأنهم إذا تخلصوا من مواضع الخلل ، وموجبات الخجل من أعمالهم عدوا ذلك من أجل ما ينالون من الإحسان إليهم »^(٣) صدق القشيري وصدق القرطبي فشتان بين ما يؤدي لله ، وما يؤدي للإنسان ، فقد خلق سبحانه الإنسان ولم يكن شيئاً مذكوراً . إذ خلق الكون في البدء بدونه ، وظل الحال هكذا دهرًا طويلًا ، ثم خلقه من أمشاج أعدت إعداداً خاصاً ليكون منهم أعظم المخلوقات شأنًا ، لكي يكون باختياره وإرادته إما شاكرًا لله فضله ، وإما كفوراً بنعمائه ، وله عظيم الأجر والجزاء في الأولى ، وعليه وزر الثانية .

لقد خلق الباري جل شأنه النفس الإنسانية وسواها ، وركب فيها قواها على أكمل ما يكون التركيب ، وحدد لكل منها وظيفة تؤديها باختيارها ، وكان كمال التسوية في هبة العقل الذي يميز به الإنسان بين ما يقوم عليه في حياته من الشر والهلكة

(١) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ص ٦٩١٤ ، طبعة الشعب .

(٢) الفرقان : ٢٣ .

(٣) القشيري : لطائف الإشارات ٤ / ٣٠٥ .

أو الأمان وحسن العاقبة ، قال تعالى : ﴿ ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها ﴾^(١) ﴿ إن الإنسان لربه لكنود * وإنه على ذلك لشهيد ﴾^(٢) .

وكما قال الشيخ محمد عبده « فقد منح الله سبحانه الإنسان قوة التمييز ، كما وهبه قوة الاختيار ، فمن رجح طريق الخير أفلح ، ومن رجح طريق الشر خاب »^(٣) .

ولو تأملنا آيات سور : الإنسان والعاديات والبلد والشمس والإسراء وغيرها ، وكلها آيات مكية نزلت بمكة في أول الدعوة الإسلامية لوجدناها القاعدة الأساسية التي ارتكز عليها كل ما جبل عليه الإنسان ، بطبيعة خلقه من خير وشر ، وتمييز وإدراك ، واختيار وإرادة . أى كل ما فى طبيعة الإنسان ، ذلك المخلوق الطينى الأصل ، الذى نفخ فيه من روح الله ، الذى تمثل خلقه فى قوله تعالى : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ﴾^(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾^(٥) .

وغیرها من الآيات التى تتضمن الدلالات نفسها ، لتؤكد للإنسان كمال إرادته ، وزكاة نفسه ، ولعلمنا أن الله سبحانه وتعالى صور كل إنسان بحسب واقع الإنسان فيه ، بعد أن هداه ، وبعد أن سوى نفسه و ﴿ ألهمها فجورها وتقواها ﴾ ولعلمنا كذلك أن الإنسان بطبيعة تكوينه من طين الأرض ، وروح الله يجتهد وينجح بحسب اجتهاده نحو الخير ، أو نحو الشر ، وهو فى كل الأحوال قادر على التمييز بين ما هو خير وما هو شر ، كما أنه قادر على توجيه نفسه إلى أحد الطريقتين : « وهذه القدرة كامنة فيه يعبر عنها القرآن الكريم بالإلهام تارة فى قوله تعالى : ﴿ ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها ﴾ وعبر عنها بالهداية تارة أخرى ، فقال عز من قائل : ﴿ فهديناها للنجدين ﴾ فهى كامنة فيه فى صورة استعداده ، والرسالات السماوية ، والتوجيهات التربوية الصحيحة ، والتعليمية الصالحة وكل المؤثرات الخارجية توظف هذه

(١) الشمس : ٧ - ١٠ .

(٢) العاديات : ٦ ، ٧ .

(٣) الشيخ محمد عبده : تفسير جزء عم ص ٧٤ ، طبعة الشعب .

(٤) الإسراء : ١٣ .

(٥) المدثر : ٣٨ .

الاستعدادات وتشحذها ، وتوجهها هنا أو هناك ، ولكنها لا تخلقها خلقاً ؛ لأنها مخلوقة فطرة ، وكائنة طبعاً ، وكامنة إلهاماً^(١) .

« الإنسان مركب من أضداد متعادية »^(٢) لذلك فهو لا يطيع الله استكراهاً ، ولا لغلبة ، فإن عمل بنو آدم بالطاعة لم يُخل بينهم وبين ما فعلوا ، فإذا لم يفعلوا فليس هو الذى أجبرهم على ذلك ، فلو أجبر الخلق على الطاعة لأسقط عنهم الثواب ، ولو أجبرهم على المعاصى لأسقط عنهم العقاب^(٣) .

بهذا يستبين أن الإنسان مالك لزمam إرادته ، يبنى كماله على إطلاق قدراته عن قيودها ، ويبلغ مقاصده التى لا تقف عند نهاية أو حدود ، ويواجه هذا الكون بإرادته ، ويجنى ثمار إيمانه دون أن يأبه بقيود تضعها الطبيعة أو البشر ، للحد من حركته وسعيه ، والوقوف دون بلوغ قصده ، فقد « خصه الله بالعقل ، وميزه بالفكر وشرفه بهما ، وبحرية الإرادة فيما يرشده إليه عقله وفكره ، وإن الله عرض عليه جميع ما بين يديه من العالمين والأكوان وسلطه عليها ليفهمها ويسخرها وينتفع بها بدون قيد أو شرط ، إلا الاعتدال ، والوقوف عند حدود الشريعة العادلة ، والفضيلة الكاملة »^(٤) والتخلق بخلق القرآن ، تُخلق عباد الرحمن الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً * والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً * والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً * إنها ساءت مستقراً ومقاماً * والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً * والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق آثاماً * يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً * إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن ٣٠ / ١٧٥ ، عيسى البانى الحلى .

(٢) أبو حيان التوحيدى : الإشارات الإلهية ١ / ١٧٢ ، تحقيق عبد الرحمن بدوى - مطبعة جامعة القاهرة ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م .

(٣) محمد سعيد إسماعيل عبده : بحث مشكلة الجبر والاختيار ورأى ابن تيمية ، ضمن مجموعة أبحاث أسبوع الفقه الإسلامى ، ومهرجان ابن تيمية القاهرة ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٣ م .

(٤) محمد عبده : رسالة التوحيد ص ١٣٩ دار المعارف ١٩٧١ م .

يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً * ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً * والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً * والذي إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً * والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قررة أعين واجعلنا للمتقين إماماً * أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاماً * خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً ﴿١﴾ .

فهم متواضعون خاشعون يخاطبون الجاهلين بخلق حسن ، « متصفين بالسجود قياماً بآداب الوجود »^(٢) يجتهدون غاية الاجتهاد لرضا رب العباد ، وإن نزلوا أمام ربهم ومثلوا ، نزلوا منزلة العصاة ، وأهل الاعتذار لقوله تعالى : ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ﴾^(٣) .

والذين هم وسط بين الإسراف والتقتير ، فلا هم سفهاء ، ولا هم بخلاء أو أشحاء ، يعبدون الله ولا يشركون به شيئاً ، ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ويستمسكون في مواطن الصدق قولاً وعملاً ، ولا يزنون ، ولا يساكنون أهل اللغو ، ولا يشاركونهم لهوهم ، ويأخذون آيات الله بالتفكير والتأمل ، وإمعان النظر والتعقل ، ويدعون ربهم متضرعين أن يجعل منتهى سعادتهم في اجتماعهم بأهلهم ، وأن يكونوا من الذين يؤتمون ويقتدى بهم .

هؤلاء الذين أحسن الله إليهم بالجنة خالدين فيها أبداً ، حسنت مستقراً ومقاماً ، بما صبروا عما نهوا عنه ، وبما قدموا ما أمروا به و ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾^(٤) .

ولكى يكون الإنسان من هؤلاء يجب عليه أن يختار الأفضل ، وإن كان شاقاً على النفس ، ولهذا قال ﷺ : « حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات »^(٥) .

(١) الفرقان : ٦٣ - ٧٦ .

(٢) القشيري : لطائف الإشارات ٤ / ٣٢١ .

(٣) المؤمنون : ٦٠ .

(٤) الرحمن : ٦٠ .

(٥) الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣/١٥٣ ، ٢٨٤ ، وأخرجه مسلم : في كتاب الجنة وصفة نعيمها =

وأن يستعين دائماً بالله ، ويطلب الهداية ، كما يفعل المؤمنون ، قال تعالى ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴾^(١) ولا يكون من أولياء الشيطان ومحبيه فيعميه عن الحق ، قال تعالى ﴿ أفرايت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه ﴾^(٢) وإن غلبك الشيطان فلتستعذ بالله ، ولتطلب أن يعينك عليه ، قال تعالى : ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم * إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾^(٣) .

* * *

= ١٦٥/١٧ ، والترمذى : فى صفة الجنة ، باب ٢١ باب ما جاء فى : حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات ، حديث رقم ٢٥٥٩ ، ج٤ / ٥٩٨ ، والدارمى : حديث رقم ٢٨٤٣ باب حفت الجنة بالمكاره ، ٢ / ٤٣٧ ، كلهم عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

(١) البقرة : ٢٥٧ .

(٢) الجاثية : ٢٣ .

(٣) الأعراف : ٢٠٠ ، ٢٠١ .

الفصل التاسع

العبودية لله : عبادة وعلم وعمل

العبودية لله : عبادة وعلم وعمل

يقول ابن تيمية رحمه الله : « لا ريب أن الإنسان قد يحصل له تارة من الاعتقادات والإرادات ما يكون حقاً ، وتارة ما يكون باطلاً ، فإن اعتقاداته قد تكون مطابقة لمعتقدها وهو الحق ، وقد تكون غير مطابقة وهو الباطل ، والإرادات تنقسم إلى ما يوافق مصلحة ، وهو جلب المنفعة له ، وإلى ما لا يوافق مصلحة ، بل يضره .

« فإن الإنسان حساس متحرك بالإرادة ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : « أصدق الأسماء : الحارث وهمام ، وأحبها إلى الله : عبد الله وعبد الرحمن ، وأقبحها : حرب ومرة »^(١) فإن الإنسان لا بد له من حرث ، وهو العمل والحركة الإرادية ، ولا بد له من أن يهتم بالأمر : منها ما يهتم به ويفعله ، ومنها ما يهتم به ولا يفعله ، فإن كان المراد موافقاً لمصلحته كانت الإرادة حسنة محمودة ، وإن كان مخالفاً لمصلحته كانت الإرادة سيئة مذمومة ، كمن يريد ما يضر عقله ونفسه وبدنه »^(٢) .

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤ / ٣٤٥ عن أبي وهب الجشمي رضي الله عنه ، وكانت له صحبة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تسموا بأسماء الأنبياء . وأحب الأسماء إلى الله عز وجل : عبد الله وعبد الرحمن ، وأصدقها الحارث وهمام ، وأقبحها حرب ومرة ، وارتبطوا الخيل وامسحوا بنواصيها وأعجارها - وقال - وأكفأها وقلدوها ، ولا تقلدوها الأوتار ، وعليكم بكل كميث أغر محجل ، أو أشقر أغر محجل ، أو أدهم أغر محجل » .

ومسلم : عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أحب أسمائكم إلى الله عبد الله وعبد الرحمن » ١٤ / ١١٣ كتاب الآداب ، باب النهي عن التكني بأبي القاسم ، وبيان ما يستحب من الأسماء .

واس ماجه : ٢ / ١٢٢٩ كتاب الأدب ، باب ما يستحب من الأسماء بمثل ما جاء عند مسلم .

الترمذي : ٥ / ١٢١ كتاب الآداب ، باب ما جاء ما يستحب من الأسماء .

السنائي : ٦ / ٢١٨ كتاب الخيل ، باب ما يستحب من شية الخيل وهو أقرها إلى رواية المسند .

الدارمي : ٢ / ٣٨٠ كتاب الاستئذان ، باب ما يستحب من الأسماء .

وأبو داود : ٤ / ٢٨٧ في كتاب الأدب ، باب تغيير الأسماء حديث رقم (٤٠٤٩) .

وأكمل روايات هذا الحديث رواية أحمد ، وأقرب هذه الروايات إليها رواية السنائي .

(٢) ابن تيمية : تقريب درء تعارض العقل والنقل ص ٢٦٠ .

والله يهdy إلى الحق ، فهو سبحانه الذى تفرد بهداية القلوب ، وأرسل رسوله بالحق ليبين للناس ما أنزل إليهم من القرآن . قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾^(١) وذلك غير الهداية المقصودة فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾^(٢) ؛ لأن الهداية الأولى : هى هداية التوفيق إلى الحق ، وهى هداية تفرد بها خالق القلوب ، أما الثانية : فهى هداية البيان ، بيان ما أنزل إلى الناس من ربهم ، وهو ﷺ المبلغ له ، والمبين لهتهدى به الخلق .

وفى الصحيح عن سعيد بن المسيب عن أبيه أنه أخبره : « لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة ، وأبا جهل فقال رسول الله ﷺ لأبى طالب : يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله ، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية يا أبا طالب : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ، ويعود بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم هو : على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول لا إله إلا الله فقال النبى ﷺ : « أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك »^(٣) فأنزل الله عز وجل : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قَرَبَىٰ ﴾^(٤) وأنزل فى أبى طالب : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾^(٥) .

وتكون هداية الله للعبد على ما علم سبحانه من اتجاه قلبه ، فقد أخذ عليه عهداً فى عالم الذر ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ ، ولأن أبا طالب توجه إلى دين أبيه لم يهده الله إلى الحق ، ولم ينفعه استغفار الرسول ﷺ ، ودعاؤه له ، بل نهى ﷺ عن ذلك . وإذا قيل : إن الرسول ﷺ جاء هادياً ، فمعنى ذلك أنه جاء بالبيان مبيناً لشرعة الحق ، كما جاء بها الكتاب الكريم ، قال تعالى : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ ﴾^(٦) .

(١) القصص : ٥٦ .

(٢) الشورى : ٥٢ .

(٣) رواه البخارى : باب إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله ٢ / ١١٩ ، الشعب .

(٤) التوبة : ١١٣ .

(٥) القصص : ٥٦ .

(٦) الأعراف : ٥٩ .

فمن أحب التوجه إلى الله هداه إلى الصراط المستقيم ، وفي ذلك يقول ابن تيمية رحمه الله : « إن الله ييسر من الهدى ما يبين للعبد فساد ذلك ، فإن هدايته خلقه وإرشاده لهم بحسب حاجتهم إلى ذلك ، وبحسب قبولهم الهدى ، وطلبهم له قصداً وعملاً » (١) .

وهؤلاء هم الذين قال تعالى فيهم ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ * ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون * وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون * وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون * الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون * أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين * مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون * صم بكم عمى فهم لا يرجعون * أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين ﴿ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً ﴾ * وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً * فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً * أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً ﴿ (٣) .

إن هؤلاء وأولئك جميعاً لم يطلبوا الهدى ، ولم يقبلوه ، وإن زعموا غير ذلك ، فالله لا يهديهم ؛ لأنهم قبلوا غير الهدى .

وإن الله جل شأنه يرسل الرسل للناس جميعاً لمن يقبلون الهداية ، ولمن لا يقبلونها - والله يعلمهم جميعاً - لكي تقوم الحجة على الناس قبل محاسبتهم ، قال

(١) ابن تيمية : موافقة صريح المنقول لصحيح المعقول ٢ / ١٨٢ ، طبعة بيروت .

(٢) البقرة : ١١ - ١٩ .

(٣) النساء : ٦٠ - ٦٣ .

تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾^(١) .
 وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾^(٢) .
 وقال تعالى مخاطباً الأنبياء : ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾^(٣) .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم * وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾^(٤) .

هكذا كانت دعوة الرسل منذ بعث الله سبحانه نوحاً عليه السلام ، توجه الإنسان إلى عبادة الله سبحانه وتعالى ، وكان شرط العبادة حب العبد ربه ؛ لأنه إذا كانت غاية العبادة الطاعة لله جل شأنه ، والخشوع ، والخضوع له ، فإن ذلك لا يتحقق إلا بحب المعبود ، وإخلاص القلب له ، قال تعالى : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾^(٥) .

ولهذا قال ابن تيمية رحمه الله : « ولفظ العبودية يتضمن كمال الذل ، وكمال الحب ، فإنهم يقولون : قلب مقيم إذا كان معبداً للمحبوب »^(٦) « والعبد مفتقر إلى الله من حيث هو المطلوب المحبوب ، المراد المعبود ، ومن حيث هو المسئول المستعان به ، المتوكل عليه ، فهو إلهه الذي لا إله غيره ، وهو ربه الذي لا رب له سواه ، ولا تتم عبوديته لله إلا بهذين .

والناس في هذا على درجات متفاوتة ، لا يحصى طرفيها إلا الله ، فأكمل الخلق

(١) النحل : ٣٦ .

(٢) الأنبياء : ٢٥ .

(٣) الأنبياء : ٩٢ .

(٤) المؤمنون : ٥١ ، ٥٢ .

(٥) التوبة : ٢٤ .

(٦) ابن تيمية : العبودية ص ٥٣ بتحقيق محمد حامد الفقى ، مطبعة السنة المحمدية ١٣٦٧ هـ .

وأفضلهم ، وأعلامهم وأقربهم إلى الله ، وأقواهم وأهداهم : أتمهم عبودية لله من هذا الوجه»^(١) .

وعلاوة محبة الله ، ومحبة رسوله ، اتباع الرسول ﷺ وحبه ، وحب الجهاد في سبيل الله ، والاجتهاد في حصول ما يحبه الله من الإيمان ، وما ينتج عنه من فضائل الأعمال .

وقد لا يوفق المحب فيعتمد على غير الله ، في طلب دنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها ، أو مال أو رياسة فيقع فيما يبغضه الله ورسوله من الفسوق والعصيان ، « فحقيقة المحبة لا تتم إلا بموالاة المحب ، وهو موافقته في حب ما يحب ، وبغض ما يبغض ، والله يحب الإيمان والتقوى ، ويبغض الكفر والفسوق والعصيان »^(٢) .

والخضوع في العبادة تلزمه المحبة لله ، ولما يحبه الله « فمن أحببته ، ولم تكن محباً خاضعاً له ، لم تكن عابداً له ، ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابداً له حتى تكون محباً خاضعاً له ، ومن ههنا كان المنكرون محبة العباد لربهم منكرين حقيقة العبودية ، والمنكرون لكونه محبوباً لهم - بل هو غاية مطلوبهم ، ووجهه الأعلى نهاية بغيتهم - منكرين لكونه إلهاً ، وإن أقروا بكونه ربا للعالمين وخالقاً لهم ، فهذا غاية توحيدهم وهو توحيد الربوبية الذي اعترف به مشركو العرب ، ولم يخرجوا به عن الشرك »^(٣) كما قال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾^(٤) .

وقال تعالى : ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ﴾ سيقولون لله قل أفلا تذكرون * قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم * سيقولون لله قل أفلا تتقون * قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل فأنى تسحرون ﴾^(٥) .

(١) نفسه : ص ٤٧ ، ٤٨ .

(٢) نفسه : ص ٤٥ .

(٣) اس القيم . مدارح السالكين ١ / ٨٥ ، ٨٦ ، مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م

(٤) الزمر : ٣٨ .

(٥) المؤمنون : ٨٤ - ٨٩ .

وحب الإنسان لربه فطري ، ولذا فهو حتمي ، والإنسان محتاج دائماً إلى خالقه ، ومحتاج إلى حبه ، فالناس يحتاجون إلى الباري من جهة ربوبيته ، إذ هو الذي خلقهم ، والمخلوقون محبون لخالقهم منجذبون له ، فهو الذي يرزقهم بالمنافع ، ويدفع عنهم المضار ، قال تعالى : ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾ (١) .

وكل ما يحصل من أحد فإنما هو بخلقه وتقديره وتسببته وتيسيره ، وهذه الحاجة التي توجب رجوعهم إليه حال اضطرارهم كما يخاطبهم بذلك في كتابه العزيز ، وهم يحتاجون إليه من جهة ألوهيته ، فإنه لا صلاح لهم إلا بأن يكون هو معبودهم الذي يحبونه ويعظمونه ، ولا يجعلون له أنداداً يحبونهم كحب الله ، بل يكون ما يحبونه سواء كأنبياؤه ، وصالحى عبادته ، وإنما يحبونهم لأجله كما في الصحيحين ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله ، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد أن أنقذه الله منه ، كما يكره أن يلقى به في النار » (٢) .

« ومعلوم أن السؤال والحب والذل والخوف والرجاء والتعظيم ، والاعتراف بالحاجة والافتقار ، ونحو ذلك مشروط بالشعور بالمسئول المحبوب المرجو الخوف المعبود العظيم الذي تعترف النفوس بالحاجة إليه ، فالافتقار الذي تواضع كل شيء لعظمته ، واستسلم كل شيء لقدرته ، وذل لعزته ، فإذا كانت هذه الأمور مما تحتاج النفوس إليها ولا بد لها منها ، بل هي ضرورية فيها كان شرطها ولازمها ، وهو الاعتراف بالصانع والإقرار به ، أولى أن يكون ضرورياً في النفوس » (٣) لقوله تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ (٤) فحب المعبود ههنا شرط في العبادة ، فإذا افتقر العابد إلى هذا الشرط أو فقده لم تكن عبادة ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف

(١) النحل . ٥٣ .

(٢) متفق عليه .

(٣) ابن تيمية . موافقة صريح المقول لصحيح المعقول ٢ / ١٦٨ ، بيروت ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

(٤) آل عمران . ٣١ .

يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴿١﴾ .

فقد جمعت الآية صفات المؤمنين وهى : حب الله ورسوله ، والجهاد فى سبيله ، وحب المؤمنين فى الله ، وأنهم لا يفعلون إلا ما يحبه الله ، ومن يفعل هذا فقد عبد الله سبحانه حق عبادته ، وفاز بمحبة الله .

ومن شرط العبادة كذلك تصديق الرسول ﷺ فى كل ما جاء به من عند الله ، ذلك لأن الرسول ﷺ لا يأمر إلا بما يحب الله ، ولهذا كان فرضاً على المحب لله أن يلزم الرسول ﷺ ويتبعه فيصدقه فيما أخبر ، ويتأسى به فيما فعل ، فإن فعل ما يحبه الله ورسوله ، قال تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ (٢) .

وفى الصحيح عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « فوالذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » (٣) .

وفى الصحيحين أيضاً « أن عمر بن الخطاب قال : يا رسول الله والله لأنت أحب إلى من كل شئ إلا نفسى ، فقال : لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك فقال : فوالله لأنت أحب إلى من نفسى ، فقال : الآن يا عمر » (٤) .

إذن فلا تكون العبادة كاملة ، ولا يكمل دين المرء إلا بحب الله ورسوله ؛ لأن المؤمن المحب ، يكون بالحب مطيعاً لله تعالى وللرسول ﷺ مستجيباً لكل ما يفرضه عليه الدين ، من العلم والعمل والكسب ، والجهاد فى سبيل الله ، وصيانة أرض الإسلام ، والتضحية بالمال والنفس والولد والزوج ، وكل عزيز وغال مهما عظم شأنه .

(١) المائدة : ٥٤ .

(٢) آل عمران : ٣١ .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان ، ١ / ١٠ الشعب ، وأخرجه الدارمى عن أنس رضى الله عنه ، برقم ٢٧٤١ ، باب « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

(٤) متفق عليه .

إن العبادة كما يبين ابن تيمية : « اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة ، فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، والوفاء بالعهود ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وجهاد الكفار والمنافقين ، والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل ، والمملوك من البهائم ، والدعاء والذكر والقراءة ، وأمثال ذلك من العبادة .

وفوق ذلك من العبادة : حب الله ورسوله ، وخشية الله والإنابة إليه ، وإخلاص الدين له ، والصبر لحكمه ، والشكر لنعمه ، والرضا بقضائه والتوكل عليه ، والرجاء لرحمته ، والخوف من عذابه ، وأمثال ذلك هي من العبادة لله .

وذلك أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له ، والمرضية له ، التي خلق الله الخلق لها^(١) لقوله تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾^(٢) وبها أرسل جميع الرسل كما قال نوح لقومه ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾^(٣) .

والعبادة بهذا الوجه هي ما خلق الله الإنسان من أجله ، ورضيه لهم وسخطه لهم فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله يرضى لكم ثلاثاً ، ويسخط لكم ثلاثاً . يرضى لكم : أن تعبدوه لا تشركوا به شيئاً ، وأن تعصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم ، ويسخط لكم : قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال »^(٤) .

فالعبادة - كما يستبين من كل ما سبق ذكره - بهذا المفهوم الشامل : تشتمل على كل ما للإنسان في الدنيا والآخرة ، وعلى هذا فليعرف المسلم أن معنى العبادة : إقرار بالعبودية مع العلم والعمل للدنيا والآخرة .

فلا تقتصر العبادة على كونها إقراراً بالعبودية عن حب وطواعية لله تعالى ، وأداء العبادات فحسب ، ولكن لا بد من معرفتها - كذلك - من جهة كونها علماً وعملاً لخير الدنيا والآخرة ، ذلك لأن « العبادة تتطلب تحقيق عناصر كثيرة في المسلم منها :

(١) ابن تيمية : العبودية ص ٣ ، ٤ .

(٢) الداريات : ٥٦

(٣) الأعراف : ٥٩

(٤) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده ٢ / ٣٦٧ .

عنصر الإيمان ، وعنصر الإسلام ، وعنصر الإحسان ، وعنصر العدل ، وعنصر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعنصر الجهاد في سبيل الله ؛ لتكون كلمة الله هي العليا ، كما تتطلب ما تستوجهه هذه العناصر من أقوال وأعمال وأخلاق وآداب»^(١) .

العبادة علم وعمل :

ليعلم الناس أن تعلم العلم عبادة ، وأن العمل عبادة :

عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « طلب العلم فريضة على كل مسلم »^(٢) .

وقال سفيان بن عيينة : « طلب العلم والجهاد فريضة على عبادتهم ، ويجزئ من بعضهم على بعض »^(٣) .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ : « ما من رجل يسلك طريقاً يلتمس فيها علماً إلا سهل الله له طريقاً إلى الجنة ، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به حسبه »^(٤) .

وكان رسول الله ﷺ يرشد أمته إلى ما جاء به من العلم ليتعلموا به ويتعبدوا ، عن أبي موسى رضى الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « إن مثل ما بعثني به الله عز وجل من الهدى والعلم ، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكانت منها نقيّة قبلت الماء فأنبتت الكلاً والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلاً فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعمل وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به »^(٥) .

(١) د . على عبد الحليم محمود : وسائل التربية عند الإخوان المسلمين ص ٢١ .

(٢) رواه ابن ماجة .

(٣) أبو يوسف بن عبد البر القرطبي : جامع بيان العلم وفضله وما ينبغى في روايته وحمله ١ / ١٠ المطبعة الميرية ١٣١٨ هـ - ١٩٧٨ م .

(٤) رواه الترمذى ٥ / ٣٨ برقم ٢٦٤٦ كتاب العلم ، باب فضل طلب العلم ، وبرواية مطولة برقم ٢٩٤٥ كتاب القرآن باب ١٢ .

(٥) أخرجه البخارى : في كتاب العلم ، باب فضل من علم وعلم ، ١ / ٣٠ الشعب ، ومسلم : في كتاب =

وعن سفيان الثوري قال : « ما من عمل أفضل من طلب العلم إذا صحت النية » ، وكان يقول أيضاً : « لا أعلم من العبادة شيئاً أفضل من أن يعلم الناس العلم »^(١) .

ولهذا كان الحسن رضى الله عنه يقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ﴾^(٢) « الحسنه في الدنيا العلم والعبادة ، والحسنة في الآخرة الجنة »^(٣) .

وبالعلم بين الله سبحانه عن طريق الرسل والأنبياء شرعته ؛ ليقم على الناس الحجة ، قال تعالى : ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم * والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً * يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾^(٤) .

ذلك لأن الإنسان بين هداية وغواية ، وعليه أن يختار ، وأيهما اختار كان عليه الجزاء من رب العباد ، بما قدم بين يدي مولاه . ولكن لا جزاء في كل الأحوال قبل إقامة الحجة عليه ، فلا يكلف العبد بغير قيام الحجة عليه ، وتمكينه من العلم بها ، وسواء أطاع أم أبى فقد قامت عليه الحجة ، وعليها يعول الجزاء . ذلك لأن « الله لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، فإذا عاقبه على ذنبه ، عاقبه بحجته على أظلمه »^(٥) قال تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾^(٦) . وقال تعالى : ﴿ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء ﴾^(٧) وقال تعالى : ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها

-
- = الفضائل ، باب بيان مثل ما بعث به النبي ﷺ من الهدى والعلم ، ١٥ / ٤٥ ، ٤٦ .
واللؤلؤ والمرجان ٣٠ / ٩٢ - ٩٣ كتاب الفضائل ، باب بيان مثل ما بعث به النبي من الهدى والعلم .
(١) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ١ / ٢٥ .
(٢) البقرة : ٢٠١ .
(٣) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ١ / ٥٢ .
(٤) النساء : ٢٦ - ٢٨ .
(٥) ابن القيم : مدارج السالكين ١ / ٢٣٩ .
(٦) الإسراء : ١٥ .
(٧) الملك : ٨ ، ٩ .

مصلحون ﴿١﴾ .

قال ابن القيم رحمه الله : « إن الله لم يهلكهم قبل التذكير بإرسال الرسول فيكون قد ظلمهم ، فإنه سبحانه لا يأخذ أحداً ولا يعاقبه إلا بذنبه ، وإنما يكون مذنباً إذا خالف أمره ونهيه ، وذلك إنما يعلم بالرسول .

فإذا شاهد العبد القدر السابق بالذنب علم أن الله سبحانه قدره سبباً مقتضياً لأثره من العقوبة ، كما قدر الطاعة سبباً مقتضياً للثواب ، وكذلك تقدير سائر أسباب الخير والشر ، كجعل السم سبباً للموت ، والنار سبباً للإحراق والماء سبباً للإغراق ﴿٢﴾ .

فإذا أقيمت الحجة على العبد ، ولم يتبع الحق فاتبع الباطل ، أخذ بالمؤاخذة اللازمة له ، والواجبة عليه ، والله سبحانه وتعالى لا يأمر الأنبياء إلا بتبليغ ما يصلح له العبد ويصلحه ، ويكون بذلك قد أقيم عليه الحجة العادلة ، فإن اتبع الحق جوزى به ، وإن اتبع غيره أخذ به . قال تعالى : ﴿ إن هو إلا ذكر وقرآن مبين * لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ﴾ ﴿٣﴾ .

وقال تعالى : ﴿ كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون ﴾ ﴿٤﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار ﴾ ﴿٥﴾ .

وعلى هذا فمن اتبع الحق جوزى به خيراً ، ومن اتبع الباطل حق عليه العذاب ، ولا يستوى من آثر الله ومحبه وطاعته ، ومن اتبع الباطل وآثر هواه فضل سواء السبيل ، فقد قامت عليه الحجة بذنوبه ، وعذب بها .

عن أبي عبد الرحمن عن علي قال : « كنا في جنازة في بقيع الفرقد ، فأتانا رسول

(١) هود : ١١٧ .

(٢) ابن القيم : مدارج السالكين ١ / ٢٤٠ ، وابن تيمية : كتاب النبوات ، ص ١٦٣ .

(٣) يس : ٦٩ ، ٧٠ .

(٤) يونس : ٣٣ .

(٥) عافر : ٦ .

الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله ومعه مخرصة ، فجعل ينكث بمخصرته الأرض ثم قال : ما منكم من أحد ، ما من نفس منفوسة ، إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار ، وقد كتبت شقية أو سعيدة ، قال : فقال رجل يا رسول الله : أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل ، فقال : من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة ، ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّق بِالْحُسْنَى * فَسَنِيَرَهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنِيَرَهُ لِلْعُسْرَى ﴾ (١) . (٢)

ومع هذا فإن الله الرؤوف الرحيم ، التواب الغفور ، يفتح للعبد أبواب رحمته ، حتى ولو كانت نفسه أمارة بالسوء ، مع أن النفس الأمارة بالسوء جاهلة ظالمة ، ولكن خروجها من الجهل المؤدى بها إلى الظلم ، ينبغي أن يكون ببذل الجهد في الأخذ بأسباب العلم النافع ، والتوسل إلى الله بالأعمال الصالحة ، وهذا يتم أولاً بمعرفة خطأ النفس ، والعزم على المعرفة الكاملة بالله ، بالحب والعبادة ، والعلم النافع ، وبذل الخير لمن يجبهم الله ورسوله ، وعند ذلك فإن الله سيلهم النفس تقواها ويزكيها ، فهو سبحانه وتعالى خير من زكاها . قال ﷺ لحصين بن المنذر « قل اللهم ألهمني رشدي ، وأعدني من شر نفسي » (٣) ذلك لأن العبد إذا قصد الهداية وفقه الله تعالى إليها .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ : « إن الحمد لله نستعينه ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا فمن يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له » (٤) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ (٥) .

وفي حديث سيد الاستغفار عن شداد بن أوس رضى الله عنه : « اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ

(١) الليل : ٥ - ١٠ .

(٢) أخرج مسلم في كتاب القدر ، باب كيف خلق آدمى في بطن أمه ١٦ / ١٩٥ ، ١٩٦ .

(٣) أخرجه الترمذى ، كتاب الدعوات ، باب ٧٠ ، ٥ / ٤٨٥ .

(٤) من حديث طويل أخرجه الترمذى ، رقم ١١٠٥ باب ١٦ / ما جاء في خطبة النكاح ٣ / ٤١٣ .

(٥) النور . ٢١ .

بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك على ، وأبوء بذنبي فاغفر لي ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» (١) .

ولأن الله قد فرض الحججة على عباده ، فقد أرسل إليهم رسله بالهدى والبيان ، والأدلة والبراهين الدالة على أنهم جاءوا بالحق من عند الله ، ففي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « ما من الأنبياء نبي إلا أعطى من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً يوم القيامة » (٢) .

وما جاء به الأنبياء وهم مورثو العلماء ، فصار فرضاً عليهم أن يبلغوه للناس ، قال تعالى : ﴿ إن الذين يكتبون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴾ (٣) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من سئل عن علم فكتمه ، جاء يوم القيامة عليه لجام من نار » (٤) .

فالبينات الواردة في الآية الكريمة: جمع بينة، وهي الأدلة والبراهين المبينة في نفسها ، والمبينة لغيرها « وقد بين سبحانه في كتبه ما يهدي الناس فعرفهم ما يقصدون ، وما يسلكون من الطرق ، وعرفهم أن الله هو المقصود المعبود وحده ، وأنه لا يجوز عبادة غيره » (٥) .

والنذير من الله تعالى لكل العباد ، لمن علم سبحانه أنه سيؤمن ، ومن علم أنه لن يؤمن قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ (٦) .

(١) رواه البخارى عن شداد بن أوس ، كتاب الدعوات ، باب أفضل الاستغفار ٨ / ٨٣ طبعة الشعب .

(٢) رواه البخارى في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب قول النبي ﷺ « بعثت بحوامع الكلم » ٩ / ١١٣٠ .

(٣) البقرة . ١٥٩ .

(٤) رواه أبو داود عن أبي هريرة برقم ٣٦٥٨ ، باب كراهية منع العلم ٣ / ٣٢٠ ، والترمذى رقم ٢٦٤٩ ، باب ٣ ما جاء في كتاب العلم ٥ / ٢٩ .

(٥) اس تيمية : كتاب النبوات ص ١٥٢ .

(٦) النقرة . ٢١ .

وهؤلاء الناس من الفريقين :

أولهما : الذين قال تعالى فيهم : ﴿ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾^(١) .

وثانيهما : وهم الذين قال تعالى فيهم : ﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم * ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين * يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون * في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴾^(٢) .

إن الآيات تبين أن الحجة مفروضة على الجميع ، سواء الذين آمنوا ، أو الذين لن يؤمنوا ، وفي ذلك يقول الطبري رحمه الله : « أمر جل ثناؤه الفريقين اللذين أخبر الله عن أحدهما أنه سواء عليهم أنذروا ، أو لم ينذروا أنهم لا يؤمنون لطبعه على قلوبهم ، وعن الآخر أنه يخادع الله والذين آمنوا بما يبدي بلسانه من قوله آمنا بالله واليوم الآخر ، مع استبطانه خلاف ذلك ، ومرض قلبه ، وشكه في حقيقة ما يبدي من ذلك ، وغيرهم من سائر خلقه المكلفين بالاستكانة والخضوع له بالطاعة ، وإفراد الربوبية له ، والعبادة دون الأوثان والأصنام والآلهة ؛ لأنه جل ذكره هو خالقهم ، وخالق من قبلهم من آبائهم وأجدادهم ، وخالق أصنامهم وأوثانهم وآلهتهم ، فقال لهم جل ذكره : فالذى خلقكم وخلق آباءكم وأجدادكم وسائر الخلق غيركم وهو يقدر على نفعكم وضرركم ، أولى بالطاعة ممن لا يقدر لكم على نفع ولا ضرر ، وذلك أن الله تعالى أمر من وصفنا بعبادته ، والتوبة من كفره ، بعد إخباره عنهم أنهم لا يؤمنون ، وأنهم عن ضلالهم لا يرجعون »^(٣) .

فالله جل شأنه يعلم سلفاً ما يظهر الصنفان ، وما يستبطنون ، ومع هذا أرسل إليهم الرسل بالندير يطالبون الجميع بعبادة ربهم الذى خلقهم ومن قبلهم ، وليتقوه

(١) البقرة : ٥ .

(٢) البقرة : ٦ - ١٠ .

(٣) الطبري : تفسير ١ / ٣٦٣ بتحقيق شاکر .

بطاعته وتوحيده ، وإفراده بالربوبية والعبادة ، ولو شاء الله سبحانه لأتى كل نفس هداها ، ولكنه لحكمة يعلمها عز شأنه لم يشأ قال تعالى : ﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً ﴾^(١) ولكنه سبحانه لم يشأ لحكمة ، ذلك أن « الرب تعالى يعين المؤمنين فيفعلوا ما أمروا به وأحبه الله منهم ، ولا يعين آخرين لما له فى ذلك من الحكمة ، فإن الفعل لا يوجد بلوازمه ، وانتفاء أضداده ، وقد يكون فى وجود ذلك فوات حكمة له هى أحب إليه من طاعة أولئك ، أو وجود شىء دفعه أحب إليه من حصول معصية أولئك »^(٢) فأمر الله لهم بعبادته إنما لمصلحتهم ، فلهم فيه منفعة وثواب وهم المهتدون ، أما الذين لا يؤمنون ، فإن فى أمره لهم سبحانه عن طريق الرسل عليهم الصلاة والسلام ، يكون قد أقام عز شأنه الحجة عليهم ، وأزاح عن نفسه جل شأنه علة قولهم : لم يأت النذير فينذرنا ويخوفنا من عاقبة سوء العمل والمنقلب .

ومن أجل ذلك أرسل سبحانه الرسل مبشرين ومنذرين ، وميسرين فى كل الأحوال ؛ لأن الله عز شأنه - وهو يعلم ما يصلح الناس - لم يكلفهم بما لا يطيقونه قال تعالى : ﴿ يريد الله ليين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم ﴾^(٣) .

وقال تعالى : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾^(٤) .

وقال تعالى : ﴿ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم ﴾^(٥) .

وقال تعالى : ﴿ ما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾^(٦) .

وعلى ذلك فإن الله سبحانه وتعالى ما خلقهم إلا لعبادته ، والعبادة هى الغاية

(١) يونس : ٩٩ .

(٢) ابن تيمية : تقريب درء تعارض النقل والعقل . ص ٢٧١ ، إعداد : محمد السيد الجليد ، إشراف ومراجعة : د . عبد الصبور شاهين ، الأهرام ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م .

(٣) النساء : ٢٦ .

(٤) البقرة : ١٨٥ .

(٥) المائدة : ٦ .

(٦) الحج : ٧٨ .

التي أرادها منهم ، وبها تحصل سعادة من أحب وعبد .

والناس في كل الأحوال : أحوال الطاعة والمعصية ، مختارون يريدون في العمل ، ولذلك كان حقاً على الله عز شأنه أن يقيم الحجة عليهم ، وإن جرى قضاء الله عليهم .

والذي يؤكد أن قضاء الله جار عليهم - في كل الأحوال - قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾^(١) .

فإن الله تعالى ذكره بيّن في هاتين الآيتين لنبيه ﷺ : « أن الله إذ استخرج ولد آدم من أصلاب آبائهم فقررهم بتوحيده ، وأشهد بعضهم على بعض شهادتهم بذلك وإقرارهم به »^(٢) .

وهذا قضاء الله الجارى عليهم وفيهم ، ثم أقام عليهم الحجة : كيلا يقولوا يوم القيامة ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾^(٣) .

وهذا ما فهمه علماء السلف من معنى الإشهاد ، بمعنى قضاء الله الجارى عليهم ولهذا قال ابن تيمية رحمه الله : « وليس المراد بقوله تعالى : ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ﴾ أن جعلهم يتحملون شهادة على أنفسهم يؤدونها في وقت آخر ، فإنه سبحانه في مثل ذلك إنما يشهد على الرجل غيره ، كما في قصة آدم لما أشهد عليه الملائكة^(٤) ولكن ليبين أن الإقرار منهم في جبلتهم علم ضرورى ملازم لهم لا ينكرونه لقوله تعالى : ﴿ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ أى حتى لا تقولوا بعده : إنا كنا غافلين عن حقيقة ربوبيته لنا ، وعن حقيقة عبوديتنا له جل شأنه وعز ذكره .

فالخلق جميعاً بفطرتهم مقرون بألوهية الخالق ، مقرون بعبوديتهم له ، ولكن يقدر لبعضهم نسيان ذلك ، فيكون تذكير الرسل لهم ، يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ

(١) الأعراف ١٧٢ ، ١٧٣ .

(٢) الطبرى : تفسيره ٩ / ٧٥ - ٨١ ، طعة دار الحديث ، نشر الريان ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

(٣) نفسه . ٩ / ٨١ ، ٨٢

(٤) ابن تيمية . تقريب درء تعارض العقل والنقل ص ٢٨٢ .

نسوا الله فأنساهم أنفسهم ﴿١﴾ .

وفي الصحيح يقول تعالى للكافر : « فاليوم أنساك كما نسيتني » .
فمعرفة الله مركوزة في النفس ، وإليه أشار بقوله تعالى : ﴿ فطرة الله التي فطر
الناس عليها ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ﴾ (٣) .

« فهذا القدر من المعرفة في نفس كل أحد ، ويتنبه الغافل عنه إذا نُبه عليه فيعرفه
كما يعرف أنه مساو لغيره ، فذلك الغير مساو له ، قال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من
خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ (٤) .

وقال تعالى : ﴿ ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون * ثم إذا كشف الضر عنكم
إذا فريق منكم بربهم يشركون ﴾ (٥) .

فهم يقرون بألوهيته ، ولكن بعضهم يشرك به مع علمه بأنه الله .

« وأما معرفة الله تعالى المكتسبة فمعرفة توحيده وصفاته ، وما يجب أن يثبت
له من الصفات ، وما يجب أن يُنفى عنه ، وهذه المعرفة هي التي دعا الأنبياء عليهم
السلام لها وحثوا عليها ، ولهذا قال كلهم : « قولوا : لا إله إلا الله » ولم يدع أحد
إلى معرفته تعالى بل دعا إلى توحيده » (٦) .

ولهذا قال تعالى - وهو يقيم عليهم الحجة - : ﴿ أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا
من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ .

يقول الطبري رحمه الله : « يقول تعالى ذكره : شهدنا عليكم أيها المقرون بأن
الله ربكم كيلا تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، إنا كنا لا نعلم ذلك وكنا
في غفلة منه ، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم اتبعنا مناهجهم

(١) الحشر : ١٩ .

(٢) الروم . ٣٠ .

(٣) البقرة : ١٣٨ .

(٤) لقمان : ٢٥ .

(٥) النحل : ٥٣ ، ٥٤ .

(٦) الراغب الأصفهاني : الدرعية إلى مكارم الشريعة ص ٢٠٠ .

عن جهل منا بالحق ، ويعنى بقوله ﴿ بما فعل المبطلون ﴾ بما فعل الذين أبطلوا في دعواهم إلهاً غير الله ، وقوله ﴿ كذلك نفصل الآيات ولعلمهم يرجعون ﴾ يعنى لينزجروا ويرتدعوا فينبوا إلى طاعتى ، ويتوبوا من شركهم وكفرهم فيرجعوا إلى الإيمان ، والإقرار بتوحيدي ، وإفراد الطاعة لى ، وترك عبادة ما سوى ^(١) .

فالعباد مفلطرون على التوحيد بحكم خلقهم ، وأن الله تعالى هو الذى فطرهم عليه ، فكأنه عز شأنه أقام عليهم الحجة بما فطرهم عليه من التوحيد ، وهو يدفع عنهم باتباع آباءهم ، ذلك لأن آباءهم مبطلون لعبادة التوحيد المناقضة لما فطر عليه الإنسان بموجب العهد والميثاق الذى أخذه عليه ربه ، وهو لا يزال فى عالم الدر ، والذى أقر به بنفسه أمام ربه على نفسه ، ولهذا قال ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » .

يقول ابن تيمية رحمه الله - كأنه يريد أن يبين أن لا حجة لهم فيما ذهبوا إليه - : « إن الفطرة الموجبة للإسلام كانت سابقة للتربية التى يحتجون بها ، وهذا يقتضى أن العقل الذى به يعرفون التوحيد حجة فى بطلان الشرك ، لا يحتاج ذلك إلى رسول ، فإنه جعل ما تقدم حجة عليهم بدون هذا ^(٢) ولكن الله - مع هذا - لكونه رحيماً أرسل الرسل مبشرين ومنذرين ، ومقيمين الحجة على الناس ، أى أنه مع كل هذا فإن الله الرحمن الرحيم ، الرؤوف الغفور لا يعذب من ينكر ألوهيته ، ولا يقر بعبوديته ، إلا بعد أن يقيم عليه الحجة ، فيرسل رسولاً مبشراً برحمة ربه ، نذيراً لمن أبطل عبادته ، قال تعالى فى حق هؤلاء: الذين أنذروا ، فلم ينزجروا ﴿ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا فى ضلال كبير ﴾ ^(٣) .

وهذا يبين كمال رحمته ، وإحسانه عز شأنه إلى خلقه .

وما جاء به الرسل من الحجة على الناس ، إنما هو متعلق العلم الضرورى الذى جاء به الوحي ، كالإيمان والعبادات ، وتزكية النفس ونحوه ، وبجانب العلم

(١) الطبرى : تفسيره ٩ / ٨١ ، ٨٢ .

(٢) ابن تيمية : تقريب درء تعارض النقل والعقل ، ص ٢٨٥

(٣) الملك : ٨ ، ٩ .

الضرورى ، العلم الاستدلالى ، ومعرفته عبادة يتقرب بها العبد إلى ربه .

نعم العلم الاستدلالى أيضاً من فروض العبادات من حيث امتثال لأمر الله سبحانه بالنظر فى الكون والكشف والتدبر ، فى صنع ما اختص الإنسان بصنعه بأمر ربه ، بما يمكن الإنسان من الانتفاع بالطيبات من الرزق ، كذلك التمكن من الصنائع التى تعود على الناس جميعاً بالرخاء ، كذلك التمكن من إدارة المال وتديره فى مجال علوم الإدارة والتنمية والاقتصاد والسياسة ، ففىها جميعاً إدارة شئون العباد ، لما فيه خير المعاش والمعاد .

وليعلم الإنسان المسلم - قبل غيره - أن الله لم يخلقه ويضع فيه من المواهب والذكاء والقدرات من أجل أن يظل مثله كمثل أى مخلوق آخر فى هذا الكون ، ولكن من أجل أن يتحرك وينتج ويشمر ، ومن ثم كان على الإنسان أن يتعلم بقدر ما يستطيع جميع الحرف من أصغرها إلى أكبرها ، وهذا لا يتأتى إلا بالعلم الاستدلالى الذى يُهيأ لنا .

وليعلم المسلم أن الدين ليس فى ارتياد المساجد فقط ، وأداء العبادات لوقتها على الوجه الأكمل فحسب ، ولكن الدين يكون بجانب ذلك « بالتمكين من الدنيا والاستكبار على دناياها » .

« املك أيها المسلم أكثر مما ملك قارون من المال ، وسيطر على أوسع مما بلغه ، ملك سليمان ، واجعل ذلك فى يدك لتدعم به الحق حين يحتاج الحق إلى دعمك وتتركه لله فى ساعة فداء حين تحين المنية ، أما أن تعيش صعلوكاً حاسباً أن الصعلكة طريق الجنة فهذا جنون وفتون » .

و « إذا كان الإلحاد يفرض سلطانه بالتمكين فى الأرض ، فإن انصرافك عن التمكين فى الأرض فاحشة أشد من الزنا والربا »^(١) .

أيها المسلم لماذا تترك أهل الضلال يتمكنون من أرضك ، وثرواتها ويعبثون بحريتك ، ويجيعونك ، ويفرضون عليك أن تعيش متعلقاً بذيوهم الدنسة .

(١) الشيخ محمد الغزالي : السمة السوية بين أهل الفقه وأهل الحديث ص ١٣٨ ، دار الشروق ، الطبعة الثانية ١٩٨٩ م .

لقد ملك أعداؤك الدنيا وتركوا الآخرة . ومع هذا فهم أفضل منك ؛ لأنك
نخست الدين والدنيا معاً .

كان أسلافك راسخى الإيمان ، راسخى العلم ، يملكون المال ويحسنون تديره ،
وبالإيمان والعلم والمال سادوا ، أما أنت فقد ضاع منك كل شيء ، وصرت حائراً
من أمر نفسك ، وما بقى لك من الإيمان ، بات منقوصاً لا يؤدي على الوجه
الأكمل ، فضلاً عن أنه بات حبيس المساجد ، فلا يكاد يخرج إلى دور العلم والصناعة
والتجارة والفلاحة والاقتصاد والأسواق .

أيها المسلم ذلك هو التوحيد :

إيمان بالله وإقرار بوحدانيته وألوهيته بلا شريك .

وعبادة تؤدي على الوجه الأكمل .

وخلافة في الأرض وتمكن منها .

وإمساك بناصية العلم ، وكل وسائل مقاصد الحياة الدنيا .

أما ما ازدحمت به كتب الزهد والترغيب والترهيب ، لم يكن ليقف ضد التمكن
في الأرض بجيازة العلم والمال ، إنما قصد بها أصحابها في المقام الأول أن تعظ هؤلاء
الذين لا يرون المال إلا هدفاً وغاية ، أو لتعبر عن حالات نفسية لأناس زهدوا الدنيا ،
وكانت زهادتهم لها طبعاً فيهم ؛ لأنهم اعتقدوا أن ذلك وحده هو ضمان الآخرة .

إن هؤلاء - مهما قيل فيهم وفي زهدهم - لم يكونوا أزهد من صحابة رسول
الله ﷺ في الدنيا ، وقد ملكوا أموالاً تضيق عنها الخزائن ، وكان منهم عثمان بن عفان ،
وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام ، وطلحة ، رضوان الله عليهم جميعاً وكانت
حيازتهم لهذا المال سبباً في أن بشرهم رسول الله ﷺ بالجنة ؛ لأنهم جمعوه بحقه
وأنفقوه بحقه ، وتداولوه في طرقه المشروعة ، وجعلوه أولاً وأخيراً في خدمة الإسلام
والمسلمين ، ولقد أعان الله تعالى المسلمين بمال عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فقد
غزا المسلمون غزوة العسرة بماله رضى الله عنه ، أعدها من ماله الخاص ، حتى قال
رسول الله ﷺ : « اللهم ارض عن عثمان فأني راض عنه » .

أيها المسلم إذا قصدت التوحيد قصداً فلتعلم :

أن تحصيل العلم واجب إن لم يكن فريضة .
وأن العمل بما حصل الإنسان من علم فريضة ، كوجوب أداء العبادات والجهاد
في سبيل الله ، وأن في كل ذلك لله حق يجب على العبد مراعاته .

وأن المسلم مسئول بعلمه وعمله أمام مقاصده وغاياته الواجبة التحقيق ، في كل
مجال يمكن الإنسان من حياة راشدة في الدنيا ، إذ هي ذاتها المحققة لثواب الله ورضوانه
في الآخرة ، ذلك لأن المسلم - إنسان القرآن - قد حمل أمانة الاستخلاف في
الأرض ، قال تعالى : ﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾^(١) أي مكنكم
فيها بإعطائكم حق استعمارها ، وتسخيرها وما فيها ، والانتفاع بها وبما فيها ، إن
« التعامل مع الأرض والكون كله باستخدام وسائل العلم ، ومستحدثات الكشف
المشروعة للاستفادة من هذا الكون ، واجب شرعي ، وهدف رئيسي من أهداف
الإسلام ، كذلك الأخذ بأسباب العلم والتبحر فيه وتسخيرها لصالح المعاش والمعاد ،
كل ذلك مما فرض الله على الإنسان ، ومما أوجبه الإسلام على المسلمين ، بحيث لا
يجوز لهم أن يتأخروا في هذا المجال ويتقدم سواهم » .

والتمكن في الأرض له شروط لا بد أن يعيها المسلم كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وعد
الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين
من قبلهم ويمكنهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ﴾^(٢) .

وفي هذه الآية يستبين :

- ١ - أن الاستخلاف منحة إلهية مقررة للإنسان ليلي أمرها ويسخرها ويفيد منها .
- ٢ - شرط هذا الاستخلاف ، وهذا التمكين : الإيمان وعمل الصالحات الكلية .
- ٣ - التمكين في الأرض لا يكون إلا بمنهج الإسلام ، وبه يسود وتكون له السيادة
في الأرض .
- ٤ - الإيمان والعمل الصالح لا يكفيان للسؤدد ، إلا بامتلاك وسائل العلم في مجالات
الصناعة والمال وحسن تدبيره ، وامتلاك القوة العسكرية الراقية ، وكلها وسائل

(٢) البور : ٥٥ .

(١) هود : ٦١

الهيمنة والسيادة ، ولن نسود إلا إذا ملكناها .
٥ - إذا ملكنا ذلك - بجانب الإيمان وعمل الصالحات - بدلنا الله سبحانه وتعالى
من بعد خوف أمنا ، وجعل لنا التمكين في الأرض والسيادة فيها .
هذا وبالله التوفيق.

ثبت المراجع

إبراهيم بيومي مذكور - ويوسف كرم :

- ١ - دروس في تاريخ الفلسفة - مصر د . ت .
- ابن الأنباري : كمال الدين أبي البركات عبد الرحمن بن محمد :
- ٢ - الداعي إلى الإسلام - دراسة وتحقيق : سيد حسين باغجوان - دار البشائر الإسلامية - بيروت .
الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م .
- ابن تيمية :
- ٣ - الإيمان .
- ٤ - تقريب درء تعارض العقل والنقل - إعداد : د . محمد السيد الجليند مراجعة :
د . عبد الصبور شاهين .
منشورات الأهرام ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م .
- ٥ - الحسنة والسيئة - تحقيق حنان بنت علي بن حافظ - الريان ١٩٨٨ .
- ٦ - الرسائل الكبرى - المطبعة الشرفية ١٣٢٣ هـ .
- ٧ - العبودية - تحقيق محمد حامد الفقى - مطبعة السنة المحمدية ١٣٦٧ هـ .
- ٨ - موافقة صريح المنقول لصحيح المعقول - دار الكتب العلمية - بيروت
١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ .
- نسخة أخرى طبع المطبعة الأميرية سنة ١٣٢٢ هـ .
على هامش منهاج السنة .
- ٩ - النبوات - نشر إدارة الطباعة المنيرية سنة ١٣٤٦ هـ .

ابن الجوزى : أبو الفرج عبد الرحمن بن علي :

- ١٠ - الموضوعات - ضبط وتقديم وتحقيق عبد الرحمن محمد عثمان .
مكتبة ابن تيمية بالمدينة المنورة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م .

ابن حزم : أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد :

- ١١ - الرد على ابن التفريلة اليهودى ورسائل أخرى - تحقيق د . إحسان عباس دار
العروبة بمصر سنة ١٣٩٨ هـ - ١٩٦٠ م .
- ١٢ - الفصل فى الملل والأهواء والنحل - نشر مكتبة السلام - مصورة عن نسخة
١٣٤٨ هـ .

ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون :

- ١٣ - المقدمة - الطبعة الثالثة - المطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٣٢٠ هـ .

ابن عبد البر : أبو يوسف بن عبد البر القرطبي :

- ١٤ - جامع بيان العلم وفضله وما ينبغى فى روايته وحمله - المطبعة المنيرية
١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .

ابن عطية : أبو محمد عبد الخالق :

- ١٥ - المحرر الوجيز (تفسير ابن عطية) - تحقيق أحمد صالح الملاح - المجلس الأعلى
للشئون الإسلامية وزارة الأوقاف المصرية ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .
- ابن قتيبة :

- ١٦ - كتاب المعارف - حققه وقدم له د . ثروت عكاشة .
الطبعة الثانية دار المعارف سنة ١٩٦٩ م .

ابن القيم : أبو عبد الله محمد بن أبى بكر :

- ١٧ - الروح - مكتبة المتنبي بالقاهرة د . ت .
- ١٨ - الصواعق المرسله على الجهمية والمعطلة - اختصره محمد بن الموصلى .
طبع مصر ١٩٨١ م

- ١٩ - مدارج السالكين بين منازل ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ - مطبعة السنة
المحمدية سنة ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م .
- ٢٠ - مفتاح دار السعادة - مطبعة الجمالي والخانجي سنة ١٣٢٣ هـ .
ابن كثير : عماد الدين أبو الفدا إسماعيل :
- ٢١ - تفسير القرآن العظيم - مكتبة الدعوة الإسلامية ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .
ابن ماجه : أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني :
- ٢٢ - سنن ابن ماجه - حققه محمد فؤاد عبد الباقي - دار الحديث ١٣٧٣ هـ -
١٩٥٤ م .
ابن مسكويه : أحمد بن محمد بن يعقوب :
- ٢٣ - تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق - حققه وشرح غريبه ابن الخطيب - المكتبة
المصرية ومطبتها رمضان ١٣٩٨ هـ .
أبو الأعلى المودودي :
- ٢٤ - المصطلحات الأربعة - دار التراث العربي سنة ١٩٧٥ م .
أبو حيان التوحيدى :
- ٢٥ - الإشارات الإلهية - تحقيق عبد الرحمن بدوى - مطبعة جامعة القاهرة
١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م .
أبو داود السجستاني : أبو داود سليمان الأشعث بن إسحاق :
- ٢٦ - سنن أبي داود .
أبو الشيخ الأصفهاني :
- ٢٧ - الأمثال في الحديث النبوي - الدار السلفية بالهند - الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ -
١٩٨٧ م .

د . أحمد أبو زيد .

٢٨ - بحث : الرمز والأسطورة والبناء الاجتماعي - عالم الفكر الكويتية المجلد ١٦
العدد ١٣ - أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٨٥ م .

أحمد بن حنبل :

٢٩ - المسند - وبهامشه كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال - المطبعة الميمنية بمصر
١٣١٣ هـ .

د . أحمد زكي :

٣٠ - بحث : الخلية الواحدة الصغرى التي بنى منها كل كائن حي - مجلة العربى
الكويتية - العدد ١٨١ ديسمبر ١٩٧٣ م .

د . أحمد مهنا :

٣١ - الإنسان في القرآن - مجمع البحوث الإسلامية - القاهرة ١٩٧١ م .

إخوان الصفا :

٣٢ - رسائل إخوان الصفا - مطبعة التقدم بمصر سنة ١٣٣١ هـ - ١٩١٣ م .

أرنولد توينبي :

٣٣ - تاريخ الحضارة الهلينية - ترجمة رمزي جرجس - الألف كتاب الأولى رقم
٤٥٨ - الأنجلو المصرية ١٩٦٣ م .

إسحق اسيموف :

- الحقيقة والخيال - ترجمة محمد جمال الفندى ، وجابر عبد الحميد جابر - دار
المعارف مع مؤسسة فرانكلين سنة ١٩٦٥ م .

د . أكرم ضياء العمرى :

٣٥ - دور التعليم الإسلامى فى حضارتنا - بحث منشور بمجلة الأمة - قطر - العدد
٣ السنة ١ ربيع الأول ١٤٠١ هـ .

د . أنور عبد العليم :

٣٦ - قصة التطور - سلسلة كتب ثقافية - وزارة الثقافة المصرية .

٣٧ - نشأة الحياة على الأرض .

٣٨ - تراث الإنسانية - المجلد الثاني - الجزء الثاني .

البخارى : محمد بن إسماعيل :

٣٩ - صحيح البخارى بشرح فتح البارى - المطبعة البهية المصرية لصاحبها

عبد الرحمن محمد بميدان الجامع الأزهر سنة ١٣٤٨ هـ .

بيتر فارب :

٤٠ - بنو الإنسان - سلسلة عالم المعرفة رقم ٦٧ الكويت رمضان ١٤٠٣ هـ -

١٩٨٣ م .

الترمذى : أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة :

٤١ - الجامع الصحيح - تحقيق : كمال يوسف الحوت ، وأحمد محمد شاکر - دار

الحديث - القاهرة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م .

توماس كارليل :

٤٢ - الأبطال - تعريب محمد السباعى - نشر المكتبة التجارية - مصطفى محمد -

الطبعة الثالثة ١٣٤٩ هـ - ١٩٣٠ م .

الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر :

٤٣ - البيان والتبيين - عيسى البابى الحلبي سنة ١٣٣٢ هـ .

جاك مندلسون :

٤٤ - الرب والإله فى الأديان الإفريقية المعاصرة - ترجمة أسعد محمد - دار المعارف

١٩٧١ م .

الجرجاني : السيد الشريف على بن محمد :

٤٥ - التعريفات - مطبعة مصطفى البابى الحلبي سنة ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م .

جمال الدين الأفغانى :

٤٦ - الأعمال الكاملة بتحقيق د . محمد عمارة - الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٦٨ م .

جورج سارتون :

٤٧ - تاريخ العلم - ترجمة ليف من العلماء المصريين ، دار المعارف ١٩٧١ م .
جوردون راترى تايلور :

٤٨ - التاريخ الطبيعى للعقل - عرض وتعليق د . عبدالمحسن صالح - عالم الفكر الكويتية المجلد ١٣ العدد ٣ فى أكتوبر ونوفمبر وديسمبر سنة ١٩٨٢ م .
جوليان هكسلى :

٤٩ - الإنسان فى العالم الحديث - سلسلة الألف كتاب الأولى . د . ت .

جون لوك :

٥٠ - الحكومة المدنية - سلسلة اخترنا لك - وزارة الثقافة والإرشاد القومى - د . ت .

جون لويس :

٥١ - الإنسان ذلك الكائن الفريد - ترجمة د . صالح جواد الكاظم - سلسلة الألف كتاب الثانى رقم ١٨ - الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٦ م .

جيمس كونانت :

٥٢ - مواقف حاسمة فى تاريخ العلم - ترجمة د . أحمد زكى - دار المعارف ١٩٦٣ م .

جيمس هنرى برستيد :

٥٣ - انتصار الحضارة - ترجمة د . أحمد فخرى - مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٢ م .

٥٤ - فجر الضمير - ترجمة سليم حسن - مراجعة عمر الإسكندرانى وعلى أدهم - الألف كتاب الأولى رقم ١٠٨ .

د . حسان حنوت :

٥٥ - بحث : مذكرات جنين - مجلة العربي - الكويت - العدد ٢٠٨ مارس ١٩٧٦ م .

د . حسين مروة :

٥٦ - النزعات المادية في الفلسفة الإسلامية - دار الفارابي بيروت سنة ١٩٨٥ م .
الدارمي : عبد الله بن عبد الرحمن :

٥٧ - سنن الدارمي - حقق نصه فؤاد أحمد زمرلي ، وخالد السبع العلمي - دار الريان للتراث ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م . القاهرة .

الراغب الأصفهاني :

٥٨ - تفصيل النشاطين وتحصيل السعادتين - سلسلة الثقافة الإسلامية رقم ٢٨ إبريل ١٩٦١ م .

٥٩ - الذريعة إلى مكارم الشريعة - تحقيق أبو اليزيد العجمي - نشر دارى :
الصحوة والوفاء سنة ١٩٨٥ م .

روبرت أورنشتاين :

٦٠ - بحث : حول عالم النفس الأمريكي - نشر بمجلة الثقافة العالمية الكويتية العدد ٤٩ السنة ٩ جمادى الأولى ١٤١٠ هـ - نوفمبر ١٩٨٩ م .

الزحخشري : أبو القاسم جار الله محمود بن عمر :

٦١ - تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل -
مصطفى الباني الحلبي ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م .

ستفين روز - وليون كارمن - وريتشارد ليونتن :

٦٢ - علم الأحياء والأيدولوجيا والطبيعة البشرية - عالم المعرفة - الكويت رقم
١٤٨ رمضان ١٤١٠ هـ - إبريل ١٩٩٠ م .

السخاوى : شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن :

٦٣ - المقاصد الحسنة - صححه وعلق حواشيه عبد الله محمد الصديق - قدمه
وترجمه للمؤلف عبد الوهاب عبد اللطيف دار الكتب العلمية - بيروت -

الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .

سليم حسن :

٦٤ - الأدب المصرى القديم - لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٥ م .

السيد بدوى :

٦٥ - أصل الأنواع لدارون .

٦٦ - تراث الإنسانية - المجلد الثانى الجزء ١٢ .

سيد قطب :

٦٧ - فى ظلال القرآن - عيسى الحلبى - الطبعة الأولى د . ت .

شارلز دارون :

٦٨ - أصل الأنواع - ترجمة إسماعيل مظهر - مراجعة د. عبد الحلیم منتصر - المؤسسة

العامة للتأليف والترجمة والنشر د . ت .

د . شوق ضيف :

٦٩ - مع العقاد - سلسلة اقرأ - دار المعارف .

الشهرستانى :

٧٠ - الممل والنحل - على هامش الفصل لابن حزم - مطبعة السلام عن نسخة

١٣٤٨ هـ .

الطبرى : محمد بن جرير الطبرى :

٧١ - تفسير جامع البيان فى تأويل آى القرآن - بتحقيق محمود محمد شاكر - دار

المعارف .

- نسخة أخرى من منشورات الريان .

٧٢ - تاريخ الرسل والملوك - دار المعارف - الطبعة الرابعة ١٩٧٩ م .

الطحاوى : أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي :

٧٣ - شرح العقيدة الطحاوية حققها جماعة من العلماء ، خرج أحاديثها محمد ناصر

الألبانى - دار الفكر العربى د . ت .

عباس محمود العقاد :

- ٧٤ - إبراهيم أبو الأنبياء - دار الهلال . د . ت .
٧٥ - الإنسان في القرآن - كتاب الهلال ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م .
٧٦ - الله - كتاب الهلال .
٧٧ - حقائق الإسلام وأباطيل خصومه - كتاب الهلال ١٩٦٥ م .
٧٨ - عبقرية محمد - سلسلة كتاب الهلال .
٧٩ - الفلسفة القرآنية - كتاب الهلال ١٩٧٠ م .
٨٠ - القرن العشرون ما كان وما سيكون - دار المعارف مع مؤسسة فرانكلين
د . ت .

د . عبد المحسن صالح :

- ٨١ - بحث : سبحان الذى خلق الأزواج كلها - مجلة الوعي الإسلامى - الكويت
عدد فبراير ١٩٧٩ م .
٨٢ - لغة الخلايا الجنسية - بحث منشور بمجلة العربى الكويتية ، العدد ٢٤٥ أبريل
١٩٧٩ م .

٨٣ - لماذا نموت - من سلسلة المكتبة الثقافية رقم ١٧٤ .

٨٤ - هل لك فى الكون نقيض - الهيئة العامة للتأليف والترجمة سنة ١٩٧٠ م .

د . عبد المنعم أبو بكر :

٨٥ - اخناتون - سلسلة المكتبة الثقافية .

عبد الله دراز :

٨٦ - الدين - دار الفكر العربى القاهرة د . ت .

عبد الوهاب عزام :

٨٧ - محمد إقبال - الألف كتاب الأولى رقم ٢٧٣ مايو ١٩٦٠ م .

د . عصام حدى :

- ٨٨ - بحث : القرآن والإعجاز العلمى فى خلق الإنسان - مجلة الجهاد الليبية - العدد ٨٤ جمادى الآخرة ١٤١٠ هـ - يناير ١٩٩٠ م .

د . على عبد الحليم محمود :

- ٨٩ - وسائل التربية عند الإخوان المسلمين - دار الوفاء - الطبعة الثانية ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م .

د . على عبد الواحد وافي :

- ٩٠ - الطوطمية - دار المعارف - سلسلة اقرأ .

د . عمارة نجيب :

- ٩١ - الإنسان بين الأديان - مطبعة حسان القاهرة ١٩٧٥ م .

على القاضى :

- ٩٢ - الإنسان فى ميزان التربية الإسلامية - مجلة منار الإسلام - الإمارات السنة ٥ العدد ١ محرم ١٤٠٠ هـ .

غازى التوبة :

- ٩٣ - الفكر الإسلامى المعاصر - دراسة وتقويم - دار القلم بيروت - الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٧ م .

الغزالي : أبو حامد :

- ٩٤ - إحياء علوم الدين - تقديم بدوى طبانة - الحلبي ١٩٥٨ م .

- ٩٥ - إجماع العوام - عن علم الكلام - ضمن كتاب القصور العوالى من رسائل الغزالي - مكتبة الجندى بالحسين . د . ت .

- ٩٦ - روضة الطالبين - ضمن الرسائل الفرائد ، مكتبة الجندى د . ت .

فخر الدين الرازى :

- ٩٧ - التفسير الكبير - المطبعة العامرة الشرفية - الطبعة الأولى ١٣٠٨ هـ .

د . فوزية رمضان أيوب :

- ٩٨ - علم الإنسان - الهيئة العامة لقصور الثقافة الجماهيرية - سلسلة مكتبة

- الشباب رقم ١٥ لسنة ١٩٩٠ م .
- القرطبي : أبو عبد الله محمد بن أحمد :
- ٩٩ - الجامع لأحكام القرآن - دار الشعب - القاهرة - ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .
- القشيري : عبد الكريم القشيري :
- ١٠٠ - تفسير لطائف الإشارات - تحقيق د . إبراهيم بسيوني - دار الكاتب العربي للطباعة والنشر - الطبعة الأولى د . ت .
- د . كارم السيد غنيم :
- ١٠١ - نقد كتاب نظرية التطور عند مفكرى الإسلام دراسة مقارنة - مجلة المسلم المعاصر السنة ١٣ العدد ٥١ ، ٥٢ .
- مالك بن نبي :
- ١٠٢ - الظاهرة القرآنية - ترجمة د . عبد الصبور شاهين - مطبعة العروبة - الطبعة الثالثة سنة ١٩٦١ م .
- الماوردي : أبو الحسن البصرى :
- ١٠٣ - أدب الدنيا والدين .
- محمد بن عبد الوهاب :
- ١٠٤ - كتاب التوحيد - نشر الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سنة ١٣٨٤ هـ .
- محمد أبو زهرة :
- ١٠٥ - العقيدة الإسلامية - نشر مجمع البحوث الإسلامية .
- ١٠٦ - المذاهب الإسلامية - دار الفكر العربى د . ت .
- د . محمد جمال الفندى و د . محمد يوسف حسن :
- ١٠٧ - قصة الكون من السديم إلى الإنسان - كتاب الشعب سنة ١٩٦٨ م .
- محمد رشيد رضا :
- ١٠٨ - تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) - دار المنار - الطبعة الثالثة ١٣٦٧ هـ .

محمد سعيد :

- ١٠٩ - مشكلة الجبر والاختيار ورأى ابن تيمية - ضمن مجموعات أبحاث أسبوع
الفقه الإسلامي ومهرجان ابن تيمية - القاهرة ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٣ م .

محمد عبده :

- ١١٠ - تفسير جزء عم - الشعب .
١١١ - رسالة التوحيد - بتحقيق محمود أبي رية - دار المعارف ١٩٧١ م .

د . محمد عبد العزيز الجبالي :

- ١١٢ - الشخصانية الإسلامية - دار المعارف ١٩٨٣ م .
١١٣ - في الإنسان - مجلة مجمع اللغة العربية في دورتها ٣٧ ، ٣٨ .
١١٤ - ما الإنسان - ضمن مجموعة دراسات فلسفية بإشراف د . إبراهيم بيومي
مذكور - الهيئة العامة للكتاب - القاهرة ١٩٧٤ م .

محمد علي الصابوني :

- ١١٥ - صفوة التفاسير - دار القرآن - بيروت - ١٤٠٢ هـ - ١٩٨١ م .

محمد الغزالي :

- ١١٦ - السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث - دار الشروق - الطبعة الثانية
سنة ١٩٨٩ م .

محمد نصر الدين الألباني :

- ١١٧ - سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة - الطبعة
الرابعة - المكتب الإسلامي ١٣٩٨ هـ .

محمود شلتوت :

- ١١٨ - الفتاوى - دار الشروق - الطبعة الثانية عشرة ١٤٠٣ هـ .

محمود شكره الألويسي :

- ١١٩ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - المطبعة المنيرية د . ت .

مسلم : أبو الحسن مسلم بن الحجاج :

- ١٢٠ - صحيح مسلم بشرح النووي - المطبعة المصرية ومكتبة . د . ت .

موريس بوكاي :

١٢١ - القرآن والتوراة والإنجيل والعلم - دار المعارف سنة ١٩٧٩ م .

ن - ك ساندرز :

١٢٢ - ملحمة جلجامش - ترجمة محمد نبيل نوفل - وفاروق حافظ القاضي - دار
المعارف سنة ١٩٧٠ م .

نخبة من علماء العراق :

١٢٣ - موسوعة حضارة العراق - العراق ١٩٨٥ م .

النسائي : أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب :

١٢٤ - سنن النسائي بشرح جلال الدين السيوطي وحاشية السندی دار الحديث -
القاهرة ١٤٠٧ هـ .

هنري برجسون :

١٢٥ - التطور الخالق - ترجمة محمود محمد قاسم - مراجعة نجيب بلدي - وزارة
الثقافة والإرشاد القومي سنة ١٩٦٠ م .

١٢٦ - منبع الأخلاق والدين - ترجمة سامي الدروبي - الهيئة المصرية للكتاب سنة
١٩٧١ م .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
الفصل الأول : ما الإنسان؟!	٩
الإنسان في القرآن وإنسان القرن العشرين	٢٢
الفصل الثاني : الإنسان كما تحدث عنه العلماء المسلمون	٢٩
الفصل الثالث : خلق الإنسان في مزاعم الطبيعيين والدهريين ..	٤٥
خلق الحياة وخلق الإنسان	٤٧
ماذا قال رجال الكنيسة في العصور الوسطى في أوروبا؟ ..	٥٠
العلماء العرب والتطور	٥٣
الإنسان في ضوء نظرية دارون	٦٧
الفصل الرابع : خلق الإنسان في القرآن ومقصوده ..	٧٥
أول خلق الإنسان من ماء	٧٩
خلق الإنسان من طين	٨٠
الطور الثاني من خلق الإنسان	٨٥
الطور الثالث من خلق الإنسان	٨٥
الجنين في ظلمات ثلاث	٩٤
ماذا بعد الميلاد؟ ..	٩٧
الخلافة غاية خلق الإنسان	١٠٠
الفصل الخامس : ميل الإنسان الفطرى إلى الدين ..	١٠٧
نزوع الإنسان إلى الدين في نظر العلماء من غير المسلمين ..	١١٢
تهافت فكرة تصور الإله عند هؤلاء ..	١٢٠
حتى الإنسان الوثنى بفطرته يتطلع إلى التوحيد ..	١٢٥
	٢١٩

١٢٦	بيان من القرآن
١٣١	الفصل السادس : الدين لله وحده
١٤٩	الفصل السابع : الأنبياء والرسل دعوا إلى التوحيد
١٥٦	رسالات التوحيد كما جاء ذكرها في القرآن
١٥٨	إبراهيم عليه السلام يطلب زيادة اليقين من ربه
١٦٣	الله عز شأنه كما جاء في القرآن الكريم
١٦٧	الوحدانية في الخلق والتكوين
١٦٧	وحدانية العبادة
١٧١	الفصل الثامن : الإنسان : إما شاكراً وإما كفوراً
١٨١	الفصل التاسع : العبودية لله : عبادة وعلم وعمل
١٩١	العبادة علم وعمل
٢٠٥	ثبت المراجع
٢١٩	الفهرس



General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)

Bibliotheca Alexandrina

رقم الإيداع : ٥٦٨٠ / ١٩٩٢ م

I . S . B . N : 977-15 - 0071- 6

مطابع الوفاء - المنصورة

شارع الإمام محمد عبده المواحه لكلية الآداب

ت : ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠

تلکس . ٢٤٠٠٤ DWFA UN

هذا الكتاب

* قضية خلق الإنسان من أهم القضايا التي طرحت من قبل الباحثين من الطبيعيين الذين بحثوا في خلق الحياة على الأرض ، وفي خلق الإنسان عليها .

ولما كانت تصوراتهم لا يقبلها العقل السليم دون أن يتداعى إليه الشك ، بل النقد ، فقد بين المؤلف قصة الخلق كما وردت في كتاب الله ، ذلك لأن الله هو الخالق الذي انفرد بالخلق .

وفي المقابل عرض المؤلف لفهم علماء الإسلام ، الذي جاء كلامهم في الإنسان والتعريف به في ضوء فهمهم لآيات القرآن الكريم ونصوص السنة الشريفة .

* ثم أوضح المؤلف الغاية التي من أجلها خلق الله الإنسان بيده ، وكيف أن الإنسان مقصود الخالق - جل شأنه - إلى خلافة الأرض وعمارتها ، وحمل الأمانة حتى يبلغ الإنسان كماله الدنيوي والأخروي .

* ولا يحقق الإنسان المسلم هذا المقصود إلا بفهمه لحقيقة العبودية التي أجملها المؤلف - بعد تفصيل - في :

- إيمان بالله وإقرار بوحدانيته وألوهيته بلا شريك .

- وعبادة تؤدي على الوجه الأكمل .

- وخلافة في الأرض وتمكن منها .

- وإمساك بناصية العلم ، وكل وسائل مقاصد الحياة الدنيا .

- ثم وجوب العمل بما حصل الإنسان من علم كوجوب أداء

العبادات والجهاد في سبيل الله .

* ودار الوفاء تقدم هذا الكتاب لقراءها الأعزاء ، وتساءل الله أن ينفعهم بما فيه ، إنه على ما يشاء قدير .

الناشر

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة ش.م.م

الإدارة والمطابع المنصورة ش الإمام محمد عبده الواحه لكية الآداب

ت ٢٤٢٧٢١ / ٣٥٦٢٢٠ / ٣٥٦٢٢٠

المكشوف . امام كلية الطب ت ٢٤٧٤٢٢ من ت ٢٢٠ لكس DWFA UN 24004



تطلب جميع منشوراتنا من :

دار النشر للجامعات المصرية - مكتبة الوفاء

٤١ ش شريف ت ٣٩٢١٩٩٧ / ٣٩٣٤٦٠٦

